الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل

الزمخشري

العلامة جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى المولود في رجب عام 467 هـ / 1074م والمتوفي ليلة عرفة عام 538 هـ/ 1143م

المجلد العاشر

المجلد العاشر

تتمة سورة القصص

والثمرات والأرزاق تجبى إليهم من كل أوب ، فإذا خولهم الله ما خولهم من الأمن والرزق بحرمة البيت وحدها وهم كفرة عبدة أصنام فكيف يستقيم أن يعرضهم للتخوّف والتخطف ، ويسلبهم الأمن إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة الإسلام. وإسناد الأمن إلى أهل الحرم حقيقة ، وإلى الحرم مجاز يُجْبى إِلَيْهِ تجلب وتجمع. قرئ : بالياء والتاء. وقرئ : تجنى ، بالنون ، من الجنى. وتعديته بإلى كقوله : يجنى إلىّ فيه ، ويجنى إلى الخافة «1». وثمرات : بضمتين وبضمة وسكون. ومعنى الكلية : الكثرة كقوله وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ متعلق بقوله مِنْ لَدُنَّا أى قليل منهم يقرون بأنّ ذلك رزق من عند الله ، وأكثرهم جهلة لا يعلمون ذلك ولا يفطنون له ، ولو علموا أنه من عند الله لعلموا أن الخوف والأمن من عنده ، ولما خافوا التخطف إذا آمنوا به وخلعوا أنداده.

فإن قلت : بم انتصب رزقا؟ قلت : إن جعلته مصدرا جاز أن ينتصب بمعنى ما قبله ، لأنّ معنى يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ ويرزق ثمرات كل شيء : واحد ، وأن يكون مفعولا له. وإن جعلته بمعنى : مرزوق ، كان حالا من الثمرات لتخصصها بالإضافة ، كما تنتصب عن النكرة المتخصصة بالصفة.

[سورة القصص (28) : آية 58]

وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ (58)

هذا تخويف لأهل مكة من سوء عاقبة قوم كانوا في مثل حالهم من إنعام الله عليهم بالرقود في ظلال الأمن وخفض العيش ، فغمطوا النعمة وقابلوها بالأشر والبطر ، «2» فدمرّهم الله وخرّب ديارهم. وانتصبت مَعِيشَتَها إمّا بحذف الجار وإيصال الفعل ، كقوله تعالى وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ وإمّا على الظرف بنفسها ، كقولك : زيد ظنى مقيم «3». أو بتقدير حذف الزمان المضاف ، أصله : بطرت أيام معيشتها ، كخفوق النجم ، ومقدم الحاج: وإمّا بتضمين بَطِرَتْ معنى : كفرت وغمطت. وقيل : البطر سوء احتمال الغنى : وهو أن لا يحفظ حق الله فيه إِلَّا قَلِيلًا من السكنى. قال ابن عباس رضى الله عنهما : لم يسكنها إلا المسافر ومارّ الطريق يوما أو ساعة ويحتمل أنّ شوم معاصى المهلكين بقي أثره في ديارهم ، فكل من سكنها من أعقابهم لم يبق فيها إلا قليلا وَكُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ لتلك المساكن من ساكنيها ، أى : تركناها على حال لا يكنها أحد ، أو خرّبناها وسوّيناها بالأرض.

(1). قوله «و يجنى إلى الخافة» في الصحاح «الخافة» : خريطة من أدم يشتار فيها بعسل. وفيه «يشتار» : يجتنى. (ع)
(2). قوله «فغمطوا النعمة وقابلوها بالأشر والبطر» أى بطروها وحقروها. والأشر والبطر : شدة المرح والمرح : شدة الفرح ، كذا في الصحاح. (ع)
(3). قوله «كقولك زيد ظنى مقيم» أى : في ظنى. (ع)

تتخلّف الآثار عن أصحابها حينا ويدركها الفناء فتتبع «1»

[سورة القصص (28) : آية 59]

وَما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلاَّ وَأَهْلُها ظالِمُونَ(59)

وما كانت عادة ربك أن يهلك القرى في كل وقت حَتَّى يَبْعَثَ فِي القرية التي هي أمها ، أى : أصلها وقصبتها التي هي أعمالها وتوابعها رَسُولًا لإلزام الحجة وقطع المعذرة ، مع علمه أنهم لا يؤمنون ، أو وما كان في حكم الله وسابق قضائه أن يهلك القرى في الأرض حتى يبعث في أم القرى - يعنى مكة - رسولا وهو محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء. وقرئ : أمها ، بضم الهمزة وكسرها لاتباع الجرّ ، وهذا بيان لعدله وتقدسه عن

(1) أين الذي الهرمان من بنيانه ما قومه ما يومه ما المصرع
تتخلف الآثار عن أصحابها حينا ويدركها الفناء فتتبع

لأبى الطيب حين دخل مصر ورأى الأهرام التي بناها الملك سورند. وقيل : سنان بن مشلشل. وقيل : إدريس عليه السلام. والهرمان : تثنية هرم - كسبب - وأراد بهما القريبين من مصر ، ويومه : هو زمن ملكه ، ويجوز أنه يوم موته ، كما أن المصرع مكان الموت ، والاستفهام عن هذا بعد الاستفهام عن قومه لاستحضار الصورتين والفرق بين الحالتين ، ثم قال : تتخلف ، أى : تتأخر الآثار من البنيان والأشجار وغير ذلك زمنا طويلا بعد أصحابها.

ثم يلحقها الفناء فتتبع أصحابها ولو طال زمن تخلفها. ويجوز أن المعنى : حينا قليلا ، فالتنوين للتكثير أو التقليل.

(2). قال محمود : «هذا بيان لعدله وتقدسه عن الظلم حتى أخبر بأنه لا يهلكهم إلا إذا استحقوا العذاب ولا يستحقوا حتى تتأكد عليهم الحجة ببعثة الرسل» قال أحمد : هذا إسلاف من الزمخشري لجواب ساقط عن سؤال وارد على القدرية لا جواب لهم عنه ، ينشأ السؤال في هذه الآية فيقال : لو كانت العقول تحكم عن اللّه تعالى بأحكام التكليف ، لقامت الحجة على الناس وإن لم يكن بعث رسل ، إذ العقل حاكم ، فلا يجدون للخلاص من هذا السؤال سبيلا.

[سورة القصص (28) : آية 60]

وَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَزِينَتُها وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقى أَفَلا تَعْقِلُونَ (60)

وأى شيء أصبتموه من أسباب الدنيا فما هو إلا تمتع وزينة أياما قلائل ، وهي مدة الحياة المتقضية وَما عِنْدَ اللَّهِ وهو ثوابه خَيْرٌ في نفسه من ذلك وَأَبْقى لأنّ بقاءه دائم سرمد وقرئ : يعقلون ، بالياء ، وهو أبلغ في الموعظة. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما أن اللّه خلق الدنيا وجعل أهلها ثلاثة أصناف : المؤمن ، والمنافق ، والكافر : فالمؤمن يتزوّد ، والمنافق يتزين ، والكافر يتمتع.

[سورة القصص (28) : آية 61]

أَفَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61)

هذه الآية تقرير وإيضاح للتي قبلها. والوعد الحسن : الثواب ، لأنه منافع دائمة على وجه التعظيم والاستحقاق ، وأى شيء أحسن منها ، ولذلك سمى اللّه الجنة بالحسنى. ولاقِيهِ كقوله تعالى. ولقاهم نضرة وسرورا ، وعكسه فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا. مِنَ الْمُحْضَرِينَ من الذين أحضروا النار. ونحوه لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ، فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ قيل : نزلت في رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وأبى جهل. وقيل : في على وحمزة وأبى جهل. وقيل : في عمار ابن ياسر والوليد بن المغيرة. فإن قلت : فسر لي الفاءين وثم ، وأخبرنى عن مواقعها. قلت : قد ذكر في الآية التي قبلها متاع الحياة الدنيا وما عند اللّه وتفاوتهما ، ثم عقبه بقوله أَفَمَنْ وَعَدْناهُ على معنى : أبعد هذا التفاوت الظاهر يسوّى بين أبناء الآخرة وأبناء الدنيا ، فهذا معنى الفاء الأولى وبيان موقعها. وأمّا الثانية فللتسبيب لأن لقاء الموعود مسبب عن الوعد الذي هو الضمان في الخير. وأمّا «ثم» فلتراخى حال الإحضار عن حال التمتيع ، لا لتراخى وقته عن وقته.

وقرئ ثُمَّ هُوَ بسكون الهاء ، كما قيل عضد في عضد ، تشبيها للمنفصل بالمتصل ، وسكون الهاء في : فهو ، وهو ، ولهو : أحسن لأنّ الحرف الواحد لا ينطق به وحده فهو كالمتصل.

[سورة القصص (28) : آية 62]

وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (62)

شُرَكائِيَ مبنى على زعمهم ، وفيه تهكم. فإن قلت : زعم يطلب مفعولين ، كقوله :

... ولم أزعمك عن ذاك معزلا «1»

(1) وإن الذي قد عاش يا أم مالك يموت ولم أزعمك عن ذاك معزلا
يقول. وإن كل حى - وإن طال عمره - يموت. ولم أظنك يا أم مالك معزلا عن ذلك الحكم أو الموت ، والمعزل : مكان العزلة والانفراد ، أى : لم أظنك في معزل عنه ، أو ذات معزل ، أو معتزلة ، أو نفس المقول مبالغة. [.....]

فأين هما؟ قلت : محذوفان ، تقديره : الذين كنتم تزعمونهم شركائى. ويجوز حذف المفعولين في باب ظننت ، ولا يصح الاقتصار على أحدهما.

[سورة القصص (28) : آية 63]

قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنا هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ (63)

الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ الشياطين أو أئمة الكفر ورءوسه. ومعنى حق عليهم القول : وجب عليهم مقتضاه وثبت ، وهو قوله لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ وهؤُلاءِ مبتدأ ، والَّذِينَ أَغْوَيْنا صفته ، والراجع إلى الموصول محذوف ، وأَغْوَيْناهُمْ الخبر.

والكاف صفة مصدر محذوف ، تقديره : أغويناهم ، فغووا غيا مثل ما غوينا ، يعنون : أنا لم نغو إلا باختيارنا ، لا أن فوقنا مغوين أغرونا بقسر منهم وإلجاء. أو دعونا إلى الغىّ وسوّلوه لنا ، فهؤلاء كذلك غووا باختيارهم ، لأن إغواءنا لهم لم يكن إلا وسوسة وتسويلا لا قسرا وإلجاء ، فلا فرق إذا بين غينا وغيهم. وإن كان تسويلنا داعيا لهم إلى الكفر ، فقد كان في مقابلته دعاء الله لهم إلى الإيمان بما وضع فيهم من أدلة العقل ، وما بعث إليهم من الرسل وأنزل عليهم من الكتب المشحونة بالوعد والوعيد والمواعظ والزواجر ، وناهيك بذلك صارفا عن الكفر وداعيا إلى الإيمان. وهذا معنى ما حكاه الله عن الشيطان إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ والله تعالى قدّم هذا المعنى أوّل شيء ، حيث قال لإبليس إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ. تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ منهم ومما اختاروه من الكفر بأنفسهم ، هوى منهم للباطل ومقتا للحق ، لا بقوّة منا على استكراههم ولا سلطان ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ إنما كانوا يعبدون أهواءهم ويطيعون شهواتهم. وإخلاء الجملتين من العاطف ، لكونهما مقرّرتين لمعنى الجملة الأولى.

[سورة القصص (28) : الآيات 64 إلى 66]

وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذابَ لَوْ أَنَّهُمْ كانُوا يَهْتَدُونَ (64) وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ ما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (65) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ (66)

لَوْ أَنَّهُمْ كانُوا يَهْتَدُونَ لوجه من وجوه الحيل يدفعون به العذاب. أو لو أنهم كانوا مهتدين مؤمنين ، لما رأوه. أو تمنوا لو كانوا مهتدين. أو تحيروا عند رؤيته وسدروا «1» فلا يهتدون طريقا. حكى أوّلا ما يوبخهم به من اتخاذهم له شركاء ، ثم ما يقوله الشياطين أو أئمتهم عند توبيخهم لأنهم إذا وبخوا بعبادة الآلهة ، اعتذروا بأن الشياطين هم الذين استغووهم وزينوا لهم عبادتها ، ثم ما يشبه الشماتة بهم من استغاثتهم آلهتهم وخذلانهم لهم وعجزهم عن نصرتهم ، ثم ما يبكتون به من الاحتجاج عليهم بإرسال الرسل وإزاحة العلل فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ فصارت الأنباء كالعمى عليهم جميعا لا تهتدى إليهم فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ لا يسأل بعضهم بعضا كما يتساءل الناس في المشكلات ، لأنهم يتساوون جميعا في عمى الأنباء عليهم والعجز عن الجواب. وقرئ : فعميت ، والمراد بالنبإ : الخبر عما أجاب به المرسل إليه رسوله ، وإذا كانت الأنبياء لهول ذلك اليوم يتتعتعون في الجواب عن مثل هذا السؤال ، ويفوّضون الأمر إلى علم الله ، وذلك قوله تعالى يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ؟ قالُوا لا عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ فما ظنك بالضلال من أممهم.

[سورة القصص (28) : آية 67]

فَأَمَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَعَسى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (67)

فَأَمَّا مَنْ تابَ من المشركين من الشرك ، وجمع بين الإيمان والعمل الصالح فَعَسى أَنْ يفلح عند الله ، و«عسى» من الكرام تحقيق. ويجوز أن يراد : ترجى التائب وطمعه ، كأنه قال : فليطمع أن يفلح.

[سورة القصص (28) : آية 68]

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحانَ اللَّهِ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (68)

الخيرة من التخير ، كالطيرة من التطير : تستعمل بمعنى المصدر هو التخير ، وبمعنى المتخير كقولهم : محمد خيرة الله من خلقه ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ بيان لقوله وَيَخْتارُ لأنّ معناه : ويختار ما يشاء ، ولهذا لم يدخل العاطف. والمعنى : أنّ الخيرة لله تعالى في أفعاله ، وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها ، ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه. قيل : السبب فيه قول الوليد بن المغيرة : لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ يعنى : لا يبعث الله الرسل باختيار المرسل إليهم. وقيل : معناه ويختار الذي لهم فيه الخيرة ، أى : يختار للعباد ما هو خير لهم وأصلح ، وهو أعلم بمصالحهم من أنفسهم ، من قولهم في الأمرين : ليس فيهما خيرة لمختار. فإن قلت : فأين الراجع من الصلة إلى الموصول إذا جعلت ما موصولة؟ قلت : أصل الكلام : ما كان لهم فيه الخيرة ،

(1). قوله «و سدروا» أى تحيروا. أفاده الصحاح. (ع)

فحذف «فيه» كما حذف «منه» في قوله إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ لأنه مفهوم سُبْحانَ اللَّهِ أى الله بريء من إشراكهم وما يحملهم عليه من الجرأة على الله واختيارهم عليه ما لا يختار.

[سورة القصص (28) : الآيات 69 إلى 70]

وَرَبُّكَ يَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَما يُعْلِنُونَ (69) وَهُوَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (70)

ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ من عداوة رسول الله وحسده وَما يُعْلِنُونَ من مطاعنهم فيه.

وقولهم : هلا اختير عليه غيره في النبوّة وَهُوَ اللَّهُ وهو المستأثر بالإلهية المختص بها ، ولا إِلهَ إِلَّا هُوَ تقرير لذلك ، كقولك : الكعبة القبلة ، لا قبلة إلا هي. فإن قلت : الحمد في الدنيا ظاهر فما الحمد في الآخرة؟ قلت : هو قولهم الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ والتحميد هناك على وجه اللذة لا الكلفة. وفي الحديث : يلهمون التسبيح والتقديس «1» وَلَهُ الْحُكْمُ القضاء بين عباده.

[سورة القصص (28) : الآيات 71 إلى 73]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (71) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (72) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (73)

أَرَأَيْتُمْ وقرئ أريتم : بحذف الهمزة ، وليس بحذف قياسي. ومعناه : أخبرونى من يقدر على هذا؟ والسرمد : الدائم المتصل ، من السرد وهو المتابعة. ومنه قولهم في الأشهر الحرم : ثلاثة سرد ، وواحد فرد ، والميم مزيدة. ووزنه فعمل. ونظيره. دلامص ، من الدلاص «2». فإن قلت : هلا قيل : بنهار تتصرفون فيه ، كما قيل : بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ؟ قلت ذكر الضياء وهو ضوء

(1). أخرجه مسلم من حديث جابر في أثناء حديث في صفة أهل الجنة : وفيه «يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس» وفي رواية له «التسبيح والتكبير».
(2). قوله «و نظيره دلامص من الدلاص» في الصحاح ، الدلاص : اللين البراق. والدلامص : البراق. يقال : دلصت الدرع - بالفتح. (ع)

الشمس : لأن المنافع التي تتعلق به متكاثرة ، ليس التصرف في المعاش وحده ، والظلام ليس بتلك المنزلة ، ومن ثمة قرن بالضياء أَفَلا تَسْمَعُونَ لأنّ السمع يدرك ما لا يدركه البصر من ذكر منافعه ووصف فوائده ، وقرن بالليل أَفَلا تُبْصِرُونَ لأنّ غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره. وأنت من السكون ونحوه وَمِنْ رَحْمَتِهِ زاوج بين الليل والنهار لأغراض ثلاثة : لتسكنوا في أحدهما وهو الليل ، ولتبتغوا من فضل الله في الآخر وهو النهار ولإرادة شكركم.

[سورة القصص (28) : آية 74]

وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (74)

وقد سلكت بهذه الآية طريقة اللف في تكرير التوبيخ باتخاذ الشركاء : إيذان بأن لا شيء أجلب لغضب الله من الإشراك به ، كما لا شيء أدخل في مرضاته من توحيده. اللهم فكما أدخلتنا في أهل توحيدك ، فأدخلنا في الناجين من وعيدك.

[سورة القصص (28) : آية 75]

وَنَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (75)

وَنَزَعْنا وأخرجنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً وهو نبيهم : لأن أنبياء الأمم شهداء عليهم ، يشهدون بما كانوا عليه فَقُلْنا للأمة هاتُوا بُرْهانَكُمْ فيما كنتم عليه من الشرك ومخالفة الرسول فَعَلِمُوا حينئذ أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ ولرسوله ، لا لهم ولشياطينهم وَضَلَّ عَنْهُمْ وغاب عنهم غيبة الشيء الضائع ما كانُوا يَفْتَرُونَ من الكذب والباطل.

[سورة القصص (28) : الآيات 76 إلى 77]

إِنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى فَبَغى عَلَيْهِمْ وَآتَيْناهُ مِنَ الْكُنُوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77)

قارُونَ اسم أعجمى مثل هرون ، ولم ينصرف للعجمة والتعريف ، ولو كان فاعولا من قرن لانصرف. وقيل : معنى كونه من قومه أنه آمن به. وقيل ، كان إسرائيليا ابن عم موسى : هو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب. وموسى بن عمران بن قاهث. وقيل : كان موسى ابن أخيه ، وكان يسمى المنور لحسن صورته ، وكان أقرأ بنى إسرائيل للتوراة ، ولكنه نافق كما نافق السامري وقال : إذا كانت النبوّة لموسى عليه السلام ، والمذبح والقربان إلى هرون فما لي؟ وروى : أنه لما جاوز بهم موسى البحر وصارت الرسالة والحبورة لهارون يقرّب القربان ويكون رأسا فيهم - وكان القربان إلى موسى فجعله موسى إلى أخيه - وجد قارون في نفسه وحسدهما ، فقال لموسى : الأمر لكما ولست على شيء ، إلى متى أصبر؟ قال موسى : هذا صنع الله قال : والله لا أصدق حتى تأتى بآية ، فأمر رؤساء بنى إسرائيل أن يجيء كل واحد بعصاه ، فحزمها وألقاها في القبة التي كان الوحى ينزل عليه فيها ، وكانوا يحرسون عصيهم بالليل ، فأصبحوا وإذا بعصا هرون تهتز ولها ورق أخضر ، وكانت من شجر اللوز ، فقال قارون : ما هو بأعجب مما تصنع من السحر فَبَغى عَلَيْهِمْ من البغي وهو الظلم. قيل : ملكه فرعون على بنى إسرائيل فظلمهم. وقيل : من البغي وهو الكبر والبذخ : تبذخ عليهم بكثرة ماله وولده. قيل : زاد عليهم في الثياب شبرا. المفاتح : جمع مفتح بالكسر : وهو ما يفتح به. وقيل هي الخزائن، وقياس واحدها : مفتح - بالفتح. ويقال : ناء به الحمل ، إذا أثقله حتى أماله. والعصبة : الجماعة الكثيرة والعصابة : مثلها. واعصوصبوا : اجتمعوا. وقيل : كانت تحمل مفاتيح خزائنه ستون بغلا ، لكل خزانة مفتاح ، ولا يزيد المفتاح على أصبع. وكانت من جلود. قال أبو رزين : يكفى الكوفة مفتاح ، وقد بولغ في ذكر ذلك بلفظ: الكنوز ، والمفاتح ، والنوء ، والعصبة ، وأولى القوة. وقرأ بديل بن ميسرة : لينوء بالياء. ووجهه أن يفسر المفاتح بالخزائن ، ويعطيها حكم ما أضيفت إليه للملابسة والاتصال ، كقولك ذهبت أهل اليمامة. ومحل إذ منصوب بتنوء لا تَفْرَحْ كقوله وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ وقول القائل :

ولست بمفراح إذا الدّهر سرّنى «1»

وذلك أنه لا يفرح بالدنيا إلا من رضى بها واطمأن. وأمّا من قلبه إلى الآخرة ويعلم أنه مفارق ما فيه عن قريب، لم تحدّثه نفسه بالفرح. وما أحسن ما قال القائل :

أشد الغمّ عندي في سرور تيقّن عنه صاحبه انتقالا «2»

(1) ولست بمفراح إذا الدهر سرني ولا جازع من صرفه المتقلب
ولا أبتغى شرا إذا الشر تاركي ولكن متى أحمل على الشر أركب

لهدبة بن خشرم لما قاده معاوية إلى الحرة ليقتص منه في زياد بن زيد العذرى ، فلقيه عبد الرحمن بن حسان فاستنشده فأنشده ذلك. والمفراح : كثير الفرح. والمراد : نفى الفرح من أصله. وصرف الدهر : حدثانه. وإذا : شرطية فلا بد بعدها من فعل ، أى : إذا كان الشر تاركي. وأحمل مبنى للمجهول ، وأركب للفاعل. والمعنى : أنى جربت الدهر فإذا هو خئون ، ومع ذلك لا أتضعضع.
(2). لأبى الطيب ، أى : أشد الغم عندي وقت السرور الذي تيقن صاحبه الانتقال عنه ، وهكذا سرور الدنيا كله.

وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ من الغنى والثروة الدَّارَ الْآخِرَةَ بأن تفعل فيه أفعال الخير من أصناف الواجب والمندوب إليه، وتجعله زادك إلى الآخرة وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ وهو أن تأخذ منه ما يكفيك ويصلحك وَأَحْسِنْ إلى عباد الله كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ أو أحسن بشكرك وطاعتك لله كما أحسن إليك. والفساد في الأرض : ما كان عليه من الظلم والبغي. وقيل إن القائل موسى عليه السلام. وقرئ : واتبع.

[سورة القصص (28) : آية 78]

قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78)

عَلى عِلْمٍ أى على استحقاق واستيجاب لما فىّ من العلم الذي فضلت به الناس ، وذلك أنه كان أعلم بنى إسرائيل بالتوراة. وقيل : هو علم الكيمياء. عن سعيد بن المسيب : كان موسى عليه السلام يعلم علم الكيمياء ، فأفاد يوشع بن نون ثلثه ، وكالب بن يوفنا ثلثه ، وقارون ثلثه ، فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه فكان يأخذ الرصاص والنحاس فيجعلهما ذهبا.

وقيل : علم الله موسى علم الكيمياء ، فعله موسى أخته ، فعلمته أخته قارون. وقيل : هو بصره بأنواع التجارة والدهقنة «1» وسائر المكاسب. وقيل عِنْدِي معناه : في ظنى ، كما تقول الأمر عندي كذا ، كأنه قال : إنما أوتيته على علم ، كقوله تعالى ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ ثم زاد عِنْدِي أى هو في ظنى ورأيى هكذا. يجوز أن يكون إثباتا لعلمه بأنّ الله قد أهلك من القرون قبله من هو أقوى منه وأغنى ، لأنه قد قرأه في التوراة ، وأخبر به موسى ، وسمعه من حفاظ التواريخ والأيام كأنه قيل أَوَ لَمْ يَعْلَمْ في جملة ما عنده من العلم هذا ، حتى لا يغتر بكثرة ماله وقوّته. ويجوز أن يكون نفيا لعلمه بذلك ، لأنه لما قال : أوتيته على علم عندي ، فتنفج بالعلم «2» وتعظم به. قيل : أعنده مثل ذلك العلم الذي ادعاه ورأى نفسه به مستوجبة لكل نعمة ، ولم يعلم هذا العلم النافع حتى يقي به نفسه مصارع الهالكين وَأَكْثَرُ جَمْعاً للمال ، أو أكثر جماعة وعددا. فإن قلت: ما وجه اتصال قوله وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ بما قبله؟ قلت : لما ذكر قارون من أهلك من قبله من القرون الذين كانوا أقوى منه وأغنى ، قال على سبيل التهديد له : والله مطلع على ذنوب المجرمين ، لا يحتاج إلى سؤالهم عنها واستعلامهم. وهو قادر على أن يعاقبهم عليها ، كقوله تعالى وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ ، وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وما أشبه ذلك.

---
(1). قوله «و الدهقنة» أى الزراعة ، كما عبر غيره. (ع)
(2). قوله «فتنفج بالعلم» أى ترفع وتفاخر وتكبر. أفاده الصحاح. (ع)

[سورة القصص (28) : آية 79]

فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(79)

فِي زِينَتِهِ قال الحسن : في الحمرة والصفرة. وقيل : خرج على بغلة شهباء عليها الأرجوان «1» وعليها سرج من ذهب ، ومعه أربعة آلاف على زيه. وقيل : عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر ، وعن يمينه ثلاثمائة غلام، وعن يساره ثلاثمائة جارية ، بيض عليهنّ الحلي والديباج. وقيل في تسعين ألفا عليهم المعصفرات ، وهو أوّل يوم رئي فيه المعصفر : كان المتمنون قوما مسلمين وإنما تمنوه على سبيل الرغبة في اليسار والاستغناء كما هو عادة البشر. وعن قتادة : تمنوه ليتقربوا به إلى الله وينفقوه في سبل الخير. وقيل : كانوا قوما كفارا. الغابط : هو الذي يتمنى مثل نعمة صاحبه من غير أن تزول عنه. والحاسد : هو الذي يتمنى أن تكون نعمة صاحبه له دونه فمن الغبطة قوله تعالى يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ ومن الحسد قوله وَلا تَتَمَنَّوْا ما فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هل يضر الغبط؟ فقال «2» : «لا إلا كما يضر العضاه الخبط «3»» والحظ : الجدّ ، وهو البخت والدولة : وصفوه بأنه رجل مجدود مبخوت ، يقال : فلان ذو حظ ، وحظيظ ، ومحظوظ ، وما الدنيا إلا أحاظ وجدود.

[سورة القصص (28) : الآيات 80 إلى 81]

وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً وَلا يُلَقَّاها إِلاَّ الصَّابِرُونَ (80) فَخَسَفْنا بِهِ وَبِدارِهِ الْأَرْضَ فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَما كانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (81)

ويلك : أصله الدعاء بالهلاك ، ثم استعمل في الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يرتضى ، كما استعمل : لا أبا لك. وأصله الدعاء على الرجل بالإقراف «4» في الحث على الفعل.

(1). قوله «بغلة شهباء عليها الأرجوان» في الصحاح : قطيفة حمراء أرجوان. وفيه أيضا : الأرجوان صبغ أحمر شديد الحمرة ، ويقال : هو بالفارسية أرغوان ، وهو شجر له نور أحمر أحسن ما يكون. (ع)
(2). ذكره ثابت السر قسطي في الغريب هكذا بغير إسناد. وأخرجه إبراهيم الحربي في الغريب من طريق ابن أبى حسين «أن سائلا سأل النبي صلى اللّه عليه وسلم أيضر الناس الغبط؟ قال : نعم كما يضر العضاه الخبط» بهذا اللفظ أخرجه الطبراني من رواية أم الدرداء قالت : قلت يا رسول اللّه. فذكره ، لكن قال «الشجر» بدل العضاه.
قال الحربي الغبط إرادة السعة. وقال ثابت : الغبط الحسد.
(3). قوله «إلا كما يضر العضاه الخبط» في الصحاح «العضاه» : كل شجر يعظم وله شوك. وفيه «الخبط» : ضرب الشجرة بالعصا ليسقط ورقها. (ع)
(4). قوله «الدعاء على الرجل بالإقراف» أى بفساد الأب. أفاده الصحاح. (ع)

والراجع في وَلا يُلَقَّاها للكلمة التي تكلم بها العلماء ، أو للثواب ، لأنه في معنى المثوبة أو الجنة ، أو للسيرة والطريقة ، وهي الإيمان والعمل الصالح الصَّابِرُونَ على الطاعات وعن الشهوات وعلى ما قسم اللّه من القليل عن الكثير. كان قارون يؤذى نبى اللّه موسى عليه السلام كل وقت ، وهو يداريه للقرابة التي بينهما ، حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف دينار على دينار ، وعن كل ألف درهم على درهم ، فحسبه فاستكثره فشحت به نفسه ، فجمع بنى إسرائيل وقال : إنّ موسى أرادكم على كل شيء ، وهو يريد أن يأخذ أموالكم ، فقالوا : أنت كبيرنا وسيدنا ، فمر بما شئت ، قال : نبرطل فلانة البغىّ حتى ترميه بنفسها فيرفضه بنو إسرائيل ، فجعل لها ألف دينار. وقيل : طستا من ذهب. وقيل : طستا من ذهب مملوءة ذهبا. وقيل : حكمها فلما كان يوم عيد قام موسى فقال : يا بنى إسرائيل ، من سرق قطعناه ، ومن افترى جلدناه ، ومن زنى وهو غير محصن جلدناه ، وإن أحصن رجمناه ، فقال قارون : وإن كنت أنت؟ قال : وإن كنت أنا ، قال : فإنّ بنى إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة ، فأحضرت ، فناشدها موسى بالذي فلق البحر ، وأنزل التوراة أن تصدق ، فتداركها اللّه فقالت : كذبوا ، بل جعل لي قارون جعلا على أن أقذفك لنفسي ، فخرّ موسى ساجدا يبكى وقال : يا رب ، إن كنت رسولك فاغضب لي. فأوحى إليه : أن مر الأرض بما شئت ، فإنها مطيعة لك. فقال : يا بنى إسرائيل ، إنّ اللّه بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون ، فمن كان معه فليلزم مكانه ، ومن كان معنى فليعتزل ، فاعتزلوا جميعا غير رجلين ثم قال : يا أرض خذيهم ، فأخذتهم إلى الركب ، ثم قال : خذيهم ، فأخذتهم إلى الأوساط ، ثم قال : خذيهم ، فأخذتهم إلى الأعناق ، وقارون وأصحابه يتضرعون إلى موسى عليه السلام ويناشدونه باللّه والرحم ، وموسى لا يلتفت اليهم لشدّة غضبه ، ثم قال : خذيهم ، فانطبقت عليهم «1». وأوحى اللّه إلى موسى : ما أفظك : استغاثوا بك مرارا فلم ترحمهم ، أما وعزتي لو إياى دعوا مرة واحدة لوجدوني قريبا مجيبا ، فأصبحت بنو إسرائيل يتناجون بينهم : إنما دعا موسى على قارون ليستبد بداره وكنوزه ، فدعا اللّه حتى خسف بداره وأمواله مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ من المنتقمين من موسى عليه السلام ، أو من الممتنعين من عذاب اللّه. يقال : نصره من عدوه فانتصر ، أى : منعه منه فامتنع.

(1). أخرجه عبد الرزاق والطبراني. من رواية على بن زيد عن عبد اللّه بن الحارث بن نوفل الهاشمي. قال ، فذكره موقوفا. ووصله الحاكم بذكر ابن عباس. قال «لما أتى موسى قومه أمرهم بالزكاة فجمعهم قارون. فذكره باختصار. قوله وفي الأخبار والآثار ما يدل عليه ، يعنى وقوع الرعب في قلوب جميع الناس يوم الموقف يمكن أن يستدل له بحديث الشفاعة الطويل. ففي المتفق عليه عن أبى هريرة في حديث الشفاعة قال «يجمع اللّه الأولين والآخرين في صعيد واحد فيبصرهم الناظر ويسمعهم الداعي وتدنو منهم الشمس ، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون. وفيه قول آدم وغيره : نفسي نفسي» وانفقا عليه من حديث أنس كذلك

[سورة القصص (28) : آية 82]

وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا لَخَسَفَ بِنا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ (82)

قد يذكر الأمس ولا يراد به اليوم الذي قبل يومك ، ولكن الوقت المستقرب على طريق الاستعارة مَكانَهُ منزلته من الدنيا «وى» مفصولة عن «كأن» ، وهي كلمة تنبه على الخطأ وتندم. ومعناه :

أن القوم قد تنبهوا على خطئهم في تمنيهم وقولهم يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ وتندموا ثم قالوا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ أى : ما أشبه الحال بأن الكافرين لا ينالون الفلاح ، وهو مذهب الخليل وسيبويه. قال : وى كأنّ من يكن له نشب يحبب ومن يفتقر يعش عيش ضرّ «1»

وحكى الفراء أنّ أعرابية قالت لزوجها : أين ابنك؟ فقال : وى كأنه وراء البيت. وعند الكوفيين أنّ «ويك» بمعنى : ويلك ، وأنّ المعنى ألم تعلم أنه لا يفلح الكافرون. ويجوز أن تكون الكاف كاف الخطاب مضمومة إلى وى ، كقوله : ...... ويك عنتر أقدم «2»

(1) سألتانى الطلاق أن رأتا قل مالى قد جئتمانى بنكر
وى كأن من يكن له نشب يحبب ومن يفتقر يعش عيش ضر
ويجنب سر النجي ولكن أخا المال محضر كل سر
لزيد بن عمرو بن نفيل القرشي. وقيل : لسعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة. وقيل : لنبيه بن الحجاج بن عامر ، قتل كافرا يوم بدر. وسألتانى بقلب الهمزة ألفا للوزن ، وهي لغة قليلة ، والضمير لزوجتيه ، والطلاق مفعول ثان ، وأن رأتا : أى لرؤيتهما ، وقل : يحتمل أنه فعل ماض ، فلا بد به من تقدير محذوف قبله به يتم الكلام ، أى : لأن رأتانى قل مالى. أو لرؤيتهما أنى قل مالى. ويحتمل أنه اسم بمعنى قليل ، ولا حذف في الكلام ، فالمعنى : لأن رأتا قليل مالى ، أى : مالى القليل ، والتفت من الغيبة إلى خطابهما بقوله : قد جئتمانى بنكر ، أى : منكر. وفيه معنى التعجيب من حالهما ، و«وى» : اسم فعل للتعجب ، وقيل : لفظه تيقظ وتندم ، وكأن : للظن أو للتحقيق ، كما أجازه الكوفيون ، وهي مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن. وقيل : لا اسم للمخففة.
والنشب : المال. ويعش عيش ضرّ ، أى : يبغض. والنجي - بالتشديد - : المناجى ، أى : المتكلم بالسر.
ويجنب : مبنى للمجهول. وسر : مفعوله الثاني. وأخا المال : صاحب المال. ومحضر : اسم مفعول ، وكل : مفعوله الثاني.
(2) ولقد شفى نفسي وأذهب سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم
لعنترة بن شداد من معلقته. ويروى : وأبر أسقمها. ويروى : وأذهب غمها. ويروى : قول ، بدل : قيل. وكلاهما مصدر. وويك : اسم فعل للتعجب ، لكن لا يلائم البيت. وقيل : كلمة تنبيه ، والكاف حرف خطاب. وقال الكسائي : أصل «ويك» : ويلك ، فالكاف ضمير مجرور ، لكن تبعد ملاءمته للبيت. وعنتر : منادى مرخم ، وحسن الترخيم وحذف حرف النداء : أن المقام للاهتمام وسرعة الكلام ، وأقدم : أى أقبل على العدو ، لتمنعنا بأسه. [.....]

وأنه بمعنى لأنه ، واللام لبيان المقول لأجله هذا القول ، أو ، لأنه لا يفلح الكافرون كان ذلك ، وهو الخسف بقارون ، ومن الناس من يقف على «وى» ويبتدئ «كأنه» ومنهم من يقف على «ويك». وقرأ الأعمش لولا منّ الله علينا. وقرئ لَخَسَفَ بِنا «1» وفيه ضمير الله.

ولا نخسف بنا ، كقولك : انقطع به. ولتخسف بنا.

[سورة القصص (28) : آية 83]

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَساداً وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83)

تِلْكَ تعظيم لها وتفخيم لشأنها ، يعنى : تلك التي سمعت بذكرها وبلغك وصفها. لم يعلق الموعد «2» بترك العلو والفساد ، ولكن بترك إرادتهما وميل القلوب إليهما ، كما قال : وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فعلق الوعيد بالركون. وعن على رضى الله عنه : إنّ الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه ، فيدخل تحتها «3». وعن الفضيل أنه قرأها ثم قال.

ذهبت الأمانى هاهنا «4». وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يردّدها حتى قبض. ومن الطماع من يجعل العلوّ لفرعون ، والفساد لقارون ، متعلقا بقوله إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ ، وَلا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ ويقول : من لم يكن مثل فرعون وقارون فله تلك الدار الآخرة ، ولا يتدبر قوله وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ كما تدبره علىّ والفضيل وعمر.

(1). قوله : «و قرئ : لخسف بنا» يفيد أن القراءة المشهورة : لخسف ، مبنيا للمجهول. (ع)
(2). قوله «لم يعلق الموعد» لعله : الوعد. (ع)
(3). أخرجه الطبري والواحدي من رواية وكيع عن أشعث السمان عن أبى سلام الأعرج عن على بهذا موقوفا وإسناده ضعيف.
(4). قال محمود : «لم يعلق الوعد بترك العلو والفساد ولكن بترك إرادتهما ، كما قال تعالى وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ فعلق الوعيد بالركون إلى الظلمة. وعن على أن الرجل يعجبه أن يكون شراك نعله خيرا من شراك نعل أخيه فيدخل تحتها. وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يرددها حتى قبض. وعن الفضيل أنه قرأها وقال : ذهبت الأمانى هاهنا. ومن الطماع من يجعل العلو لفرعون والفساد لقارون ، لقوله إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وقوله وَلا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ ويقول : من لم يكن مثل فرعون وقارون فله تلك الدار الآخرة ، ولا يتدبر قوله وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ كما تدبرها على وعمر والفضيل» قال أحمد : هو تعرض لغمص أهل السنة ، فان كل

[سورة القصص (28) : آية 84]

مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (84)

معناه : فلا يجزون ، فوضع الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ موضع الضمير ، لأن في إسناد عمل السيئة إليهم مكررا. فضل تهجين لحالهم ، وزيادة تبغيض للسيئة إلى قلوب السامعين إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ إلا مثل ما كانوا يعملون ، وهذا من فضله العظيم وكرمه الواسع أن لا يجزى السيئة إلا بمثلها ، ويجزى الحسنة بعشر أمثالها وبسبعمائة ، وهو معنى قوله فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها.

[سورة القصص (28) : آية 85]

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (85)

فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه ، يعنى : أن الذي حملك صعوبة هذا التكليف لمثيبك عليها ثوابا لا يحيط به الوصف. ولَرادُّكَ بعد الموت إِلى مَعادٍ أى معاد ليس لغيرك من البشر وتنكير المعاد لذلك : وقيل : المراد به مكة : ووجهه أن يراد رده إليها يوم الفتح : ووجه تنكيره أنها كانت في ذلك اليوم معادا له شأن ، ومرجعا له اعتداد ، لغلبة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها ، وقهره لأهلها ، ولظهور عز الإسلام وأهله وذل الشرك وحزبه. والسورة مكية ، فكأن الله وعده وهو بمكة في أذى وغلبة من أهلها : أنه يهاجر به منها ، ويعيده إليها ظاهرا ظافرا. وقيل : نزلت عليه حين بلغ الجحفة في مهاجره وقد اشتاق إلى مولده ومولد آبائه وحرم إبراهيم ، فنزل جبريل فقال له : أتشتاق إلى مكة؟ قال : نعم ، فأوحاها إليه. فإن قلت : كيف اتصل قوله تعالى قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بما قبله؟ قلت : لما وعد رسوله الردّ إلى معاد ، قال : قل للمشركين : رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى يعنى نفسه وما يستحقه من الثواب في معاده وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ يعنيهم وما يستحقونه من العقاب في معادهم.

[سورة القصص (28) : آية 86]

وَما كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقى إِلَيْكَ الْكِتابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ (86)

فإن قلت : قوله إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ما وجه الاستثناء فيه؟ قلت : هذا كلام محمول على المعنى ، كأنه قيل : وما ألقى عليك الكتاب إلا رحمة من ربك. ويجوز أن يكون إلا بمعنى لكن للاستدراك ، أى : ولكن لرحمة من ربك ألقى إليك.

[سورة القصص (28) : آية 87]

وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (87)

وقرئ : يصدنك ، من أصدّه بمعنى صدّه ، وهي في لغة كلب. وقال :

أناس أصدوا النّاس بالسّيف عنهمو صدود السّواقى عن أنوف الحوائم «1»

بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ بعد وقت إنزاله «2» وإذ تضاف إليه أسماء الزمان ، كقولك : حينئذ وليلتئذ ويومئذ وما أشبه ذلك. والنهى عن مظاهرة الكافرين ونحو ذلك من باب التهييج الذي سبق ذكره.

[سورة القصص (28) : آية 88]

وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (88)

إِلَّا وَجْهَهُ إلا إياه. والوجه يعبر به عن الذات.

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «من قرأ طسم القصص كان له الأجر بعدد من صدق موسى وكذب به ، ولم يبق ملك في السماوات والأرض إلا شهد له يوم القيامة أنه كان صادقا أن كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون» «3».

---

(1). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة 538 فراجعه إن شئت اه مصححه.
(2). قوله «بعد وقت إنزاله» لعله : إنزالها. (ع)
(3). أخرجه الثعلبي وابن مردويه. والواحدي من حديث أبى بن كعب بأسانيدهم المتقدم ذكرها.

سورة العنكبوت

مكية [إلا من آية 1 إلى غاية آية 11 فمدنية] وآياتها 69 [نزلت بعد الروم]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ (3)

الحسبان لا يصح تعليقه بمعاني المفردات ، ولكن بمضامين الجمل. ألا ترى أنك لو قلت : حسبت زيدا وظننت الفرس : لم يكن شيئا حتى تقول : حسبت زيدا عالما وظننت الفرس جوادا ، لأنّ قولك : زيد عالم ، أو الفرس جواد كلام دال على مضمون ، فأردت الإخبار عن ذلك المضمون ثابتا عندك على وجه الظن لا اليقين ، فلم تجد بدّا في العبارة عن ثباته عندك على ذلك الوجه ، من ذكر شطرى الجملة مدخلا عليهما فعل الحسبان ، حتى يتم لك غرضك. فإن قلت : فأين الكلام الدال على المضمون الذي يقتضيه الحسبان في الآية؟ قلت : هو في قوله أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ وذلك أن تقديره : أحسبوا تركهم غير مفتونين ، لقولهم : آمنا ، فالترك أول مفعولي حسب ، ولقولهم : آمنا ، هو الخبر. وأما «غير مفتونين» فتتمة الترك ، لأنه من الترك الذي هو بمعنى التصيير ، كقوله :

فتركته جزر السّباع ينشنه «1»

ألا ترى أنك قبل المجيء بالحسبان ، تقدر أن تقول : تركهم غير مفتونين ، لقولهم : آمنا ، على تقدير : حاصل ومستقر ، قبل اللام. فإن قلت : أَنْ يَقُولُوا هو علة تركهم غير مفتونين ، فكيف يصح أن يقع خبر مبتدأ؟ قلت : كما تقول خروجه لمخافة الشر ، وضربه للتأديب ، وقد كان التأديب والمخافة في قولك : خرجت مخافة الشر ، وضربته تأديبا : تعليلين. وتقول أيضا : حسبت خروجه لمخافة الشر ، وظننت ضربه للتأديب ، فتجعلهما مفعولين كما جعلتهما مبتدأ وخبرا.

(1). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 75 فراجعه إن شئت اه مصححه.

والفتنة : الامتحان بشدائد التكليف : من مفارقة الأوطان ، ومجاهدة الأعداء ، وسائر الطاعات الشاقة ، وهجر الشهوات والملاذ ، وبالفقر والقحط ، وأنواع المصائب في الأنفس والأموال. وبمصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم وضرارهم. والمعنى : أحسب الذين أجروا كلمة الشهادة على ألسنتهم وأظهروا القول بالإيمان : أنهم يتركون بذلك غير ممتحنين ، بل يمحنهم الله بضروب المحن ، حتى يبلو صبرهم ، وثبات أقدامهم ، وصحة عقائدهم ، ونصوع نياتهم ، ليتميز المخلص من غير المخلص ، والراسخ في الدين من المضطرب ، والمتمكن من العابد على حرف ، كما قال لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وروى أنها نزلت في ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جزعوا من أذى المشركين. وقيل في عمار بن ياسر : وكان يعذب في الله. وقيل : في ناس أسلموا بمكة ، فكتب إليهم المهاجرون : لا يقبل منكم إسلامكم حتى تهاجروا ، فخرجوا فتبعهم المشركون فردّوهم ، فلما نزلت كتبوا بها إليهم ، فخرجوا فاتبعهم المشركون فقاتلوهم ، فمنهم من قتل ومنهم من نجا. وقيل : في مهجع بن عبد الله مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وهو أوّل قتيل من المسلمين يوم بدر، رماه عامر بن الحضرمي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سيد الشهداء مهجع ، وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة «1» ، فجزع عليه أبواه وامرأته وَلَقَدْ فَتَنَّا موصول بأحسب أو بلا يفتنون ، كقولك: ألا يمتحن فلان وقد امتحن من هو خير منه ، يعنى : أن أتباع الأنبياء عليهم السلام قبلهم ، قد أصابهم من الفتن والمحن نحو ما أصابهم.

أو ما هو أشدّ منه فصبروا ، كما قال : وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَما وَهَنُوا ... الآية وعن النبي صلى الله عليه وسلم : «قد كان من قبلكم يؤخذ فيوضع المنشار على رأسه فيفرق فرقتين ، ما يصرفه ذلك عن

(1). ذكره الثعلبي عن مقاتل قال «نزلت هاتان الآيتان في مهجع بن عبد الله مولى عمر ، كان أول من قتل من المسلمين يوم بدر ، رماه عامر بن الحضرمي بسهم فقتله. فقال النبي صلى الله عليه وسلم : سيد الشهداء مهجع وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة» وسنده إلى مقاتل في أول كتابه ، وفي الدلائل لابن أبى شيبة من طريق القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود قال «أول من استشهد يوم بدر مهجع مولى عمر».
(2). أخرجه البخاري من حديث خباب بن الأرت به ، وأتم منه.
(3). قال محمود : «إن قلت هو لم يزل يعلم الصادقين والكاذبين قبل الامتحان ، فما وجه هذا الكلام؟
قلت : لم يزل يعلمه معدوما ولا يعلمه موجودا إلا إذا وجد» قال أحمد : فيما ذكر إيهام بمذهب فاسد ، وهو اعتقاد أن العلم بالكائن غير العلم بأن سيكون ، والحق أن علم الله تعالى واحد يتعلق بالموجود زمان وجوده وقبله وبعده على ما هو عليه ، وفائدة ذكر العلم هاهنا وإن كان سابقا على وجود المعلوم : التنبيه بالسبب على المسبب وهو الجزاء ، كأنه قال تعالى : لنعلمنهم فلنجازينهم بحسب علمه فيهم، والله أعلم.

وليتميزن الصادق منهم من الكاذب. ويجوز أن يكون وعدا ووعيدا ، كأنه قال : وليثيبن الذين صدقوا وليعاقبنّ الكاذبين. وقرأ على رضى الله عنه والزهري : وليعلمنّ ، من الإعلام ، أى :
وليعرفنهم الله الناس من هم. أو ليسمنهم بعلامة يعرفون بها من بياض الوجوه وسوادها ، وكحل العيون وزرقتها.

[سورة العنكبوت (29) : آية 4]

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ساءَ ما يَحْكُمُونَ (4)

أَنْ يَسْبِقُونا أن يفوتونا ، يعنى أنّ الجزاء يلحقهم لا محالة ، وهم لم يطمعوا في الفوت ، ولم يحدّثوا به نفوسهم ، ولكنهم لغفلتهم وقلة فكرهم في العاقبة وإصرارهم على المعاصي : في صورة من يقدر ذلك ويطمع فيه. ونظيره وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ، وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ. فإن قلت : أين مفعولا «حسب»؟ قلت : اشتمال صلة أن على مسند ومسند إليه سدّ مسدّ المفعولين ، كقوله تعالى أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ويجوز أن يضمن حسب معنى قدر وأم منقطعة. ومعنى الإضراب فيها : أن هذا الحسبان أبطل من الحسبان الأوّل ، لأن ذاك يقدر أنه لا يمتحن لإيمانه ، وهذا يظن أنه لا يجازى بمساويه ساءَ ما يَحْكُمُونَ بئس الذي يحكمونه حكمهم هذا. أو بئس حكما يحكمونه حكمهم هذا ، فحذف المخصوص بالذم.

[سورة العنكبوت (29) : آية 5]

مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (5)

لقاء الله : مثل للوصول إلى العاقبة ، من تلقى ملك الموت ، والبعث ، والحساب ، والجزاء : مثلت تلك الحال بحال عبد قدم على سيده بعد عهد طويل ، وقد اطلع مولاه على ما كان يأتى ويذر ، فإما أن يلقاه ببشر وترحيب لما رضى من أفعاله ، أو بضد ذلك لما سخطه منها ، فمعنى قوله مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ : من كان يأمل تلك الحال. وأن يلقى فيها الكرامة من الله والبشر فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ وهو الموت لَآتٍ لا محالة ، فليبادر العمل الصالح الذي يصدق رجاءه ، ويحقق أمله ، ويكتسب به القربة عند الله والزلفى وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ الذي لا يخفى عليه شيء مما يقوله عباده ومما يفعلونه ، فهو حقيق بالتقوى والخشية. وقيل يَرْجُوا : يخاف من قول الهذلي في صفة عسال : إذا لسعته الدّبر لم يرج لسعها «1»

فإن قلت : فإن أجل الله لآت ، كيف وقع جوابا للشرط؟ قلت : إذا علم أن لقاء الله عنيت به تلك الحال الممثلة والوقت الذي تقع فيه تلك الحال هو الأجل المضروب للموت : فكأنه قال : من كان يرجو لقاء الله فإن لقاء الله لآت ، لأن الأجل واقع فيه اللقاء ، كما تقول : من كان يرجو لقاء الملك فإن يوم الجمعة قريب ، إذا علم أنه يقعد للناس يوم الجمعة.

[سورة العنكبوت (29) : آية 6]

وَمَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ (6)

وَمَنْ جاهَدَ نفسه في منعها ما تأمر به وحملها على ما تأباه فَإِنَّما يُجاهِدُ لها ، لأن منفعة ذلك راجعة إليها ، وإنما أمر اللّه عز وجل ونهى ، رحمة لعباده وهو الغنى عنهم وعن طاعتهم.

[سورة العنكبوت (29) : آية 7]

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (7)

إما أن يريد قوما مسلمين صالحين قد أساءوا في بعض أعمالهم وسيئاتهم مغمورة بحسناتهم فهو يكفرها عنهم ، أى يسقط عقابها بثواب الحسنات ويجزيهم أحسن الذي كانوا يعملون ، أى : أحسن جزاء أعمالهم : وإما قوما مشركين آمنوا وعملوا الصالحات ، فاللّه عز وجل يكفر سيئاتهم بأن يسقط عقاب ما تقدم لهم من الكفر والمعاصي ويجزيهم أحسن جزاء أعمالهم في الإسلام «2».

[سورة العنكبوت (29) : آية 8]

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8)

(1) إذا لسعته الدبر لم يرج لسعها وحالفها في بيت نوب عواسل
لأبى ذؤيب ، يصف عسالا يجتنى العسل : بأنه إذا لسعته الدبر - بالفتح والكسر - : ذكور النحل والزنابير.
وروى كذلك : لم يرج ، أى : لم يخف لسعها إذا أرادت لسعه. أو لسعته بالفعل لم يخف من مثله ، أو لم يرتقبه ويعتنى به ، وحالفها : أى لازمها. ويروى بالمعجمة ، أى : خالف مرادها. أو جاء خلفها بعد أن خرجت ترعى.
والنوب : ضرب من النحل واحده نائب ، لأنه يذهب إلى بيته نوبة بعد نوبة ، عواسل : كثيرة العسل. وروى : عوامل ، بالميم لأنها تعمل العسل.
(2). قال محمود : «المراد بهؤلاء أحد فريقين : إما قوم مسلمون سيئاتهم صغائر مغمورة بالحسنات ، وإما قوم آمنوا وعملوا الصالحات بعد كفر فالإسلام يجب ما قبله» قال أحمد : حجر واسعا من رحمة اللّه تعالى ، بناء على أصله الفاسد في وجوب الوعيد على مرتكب السيئات الكبائر لا بالتوبة ، وأطلق تكفير الصغائر وإن لم تكن توبة إذا غمرتها الحسنات ، وكلا الأصلين قدرى مجتنب ، واللّه الموفق.

«وصى» حكمه حكم «أمر» في معناه وتصرفه. يقال : وصيت زيدا بأن يفعل خيرا ، كما تقول : أمرته بأن يفعل. ومنه بيت الإصلاح : وذبيانيّة وصّت بنيها بأن كذب القراطف والقروف «1»

كما لو قال : أمرتهم بأن ينتهبوها. ومنه قوله تعالى وَوَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ أى وصاهم بكلمة التوحيد وأمرهم بها ، وقولك : وصيت زيدا بعمرو ، معناه : وصيته بتعهد عمرو ومراعاته ونحو ذلك ، وكذلك معنى قوله وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً : وصيناه بإيتاء والديه حسنا ، أو بإيلاء والديه حسنا ، أى : فعلا ذا حسن ، أو ما هو في ذاته حسن لفرط حسنه ، كقوله تعالى وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وقرئ : حسنا. وإحسانا. ويجوز أن تجعل حُسْناً من باب قولك : زيدا ، بإضمار «أضرب» إذا رأيته متهيئا للضرب ، فتنصبه بإضمار أو لهما. أو افعل بهما ، لأن التوصية بهما دالة عليه ، وما بعده مطابق له ، كأنه قال : قلنا أو لهما معروفا وفَلا تُطِعْهُما في الشرك إذا حملاك عليه. وعلى هذا التفسير إن وقف على بِوالِدَيْهِ وابتدأ حُسْناً حسن الوقف ، وعلى التفسير الأول لا بد من إضمار القول ، معناه : وقلنا إن جاهداك أيها الإنسان ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ أى لا علم لك بإلهيته. والمراد بنفي العلم : نفى المعلوم ، كأنه قال : لتشرك بى شيئا لا يصح أن يكون إلها ولا يستقيم : وصاه بوالديه وأمره بالإحسان إليهما ، ثم نبه بنهيه عن طاعتهما إذا أراداه على ما ذكر ، على أن كل حق وإن عظم ساقط إذا جاء حق اللّه ، وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، ثم قال : إلىّ مرجع من آمن منكم ومن أشرك ، فأجازيكم حق جزائكم. وفيه شيئان ، أحدهما : أن الجزاء إلىّ ، فلا تحدث نفسك بجفوة والديك وعقوقهما لشركهما ، ولا تحرمهما برك ومعروفك في الدنيا ، كما أنى لا أمنعهما رزقي. والثاني : التحذير من متابعتهما على الشرك ، والحث على الثبات والاستقامة في الدين بذكر المرجع والوعيد.

روى أن سعد بن أبى وقاص الزهري رضى اللّه عنه حين أسلم قالت أمّه - وهي حمنة بنت أبى سفيان بن أمية بن عبد شمس - : يا سعد ، بلغني أنك قد صبأت ، فو اللّه لا يظلني سقف بيت من الضح «2» والريح ،

(1). لمعقر بن حمار البارقي ، أنشده ابن السكيت في كتابه المسمى : إصلاح المنطق ، أى : امرأة منسوبة إلى قبيلة ذبيان وصت بنيها. وأن مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن ، وخبرها : كذب ، وهو قد يكون بمعنى وجب كما في الصحاح. وفي الحديث :

أوعية من أدم يجعل فيها اللحم المشوى. والقرف - بالكسر - : المقشر. والقرفة : قشر يداوى به. والقرف - بالفتح - وعاء من جلد يدبغ بالقرفة. واقترف ، واقترب : متقاربان لفظا ومعنى ، أى : وصتهم باغتنامها وحفظها معهم. [.....]
(2). قوله «من الضح» في الصحاح «الضح» : الشمس. وفي الحديث : «لا يقعدن أحدكم بين الضح والظل ، فانه مقعد الشيطان» اه. (ع)

وإن الطعام والشراب علىّ حرام حتى تكفر بمحمد - وكان أحبّ ولدها إليها - فأبى سعد وبقيت ثلاثة أيام كذلك ، فجاء سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكا إليه ، فنزلت هذه الآية والتي في لقمان والتي في الأحقاف ، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يداريها ويترضاها بالإحسان «1». وروى أنها نزلت في عياش بن أبى ربيعة المخزومي ، وذلك أنه هاجر مع عمر بن الخطاب رضى الله عنهما مترافقين حتى نزلا المدينة «2» ، فخرج أبو جهل بن هشام والحرث بن هشام - أخواه لأمه أسماء بنت مخرمة : امرأة من بنى تميم من بنى حنظلة - فنزلا بعياش وقالا له : إن من دين محمد صلة الأرحام وبر الوالدين ، وقد تركت أمّك لا تطعم ولا تشرب ولا تأوى بيتا حتى تراك ، وهي أشدّ حبا لك منا فاخرج معنا ، وفتلا منه في الذروة والغارب «3» فاستشار عمر رضى الله عنه فقال : هما يخدعانك ، ولك علىّ أن أقسم مالى بيني وبينك ، فما زالا به حتى أطاعهما وعصى عمر ، فقال له عمر : أما إذ عصيتني فخذ ناقتي ، فليس في الدنيا بعير يلحقها ، فإن رابك منهما ريب فارجع ، فلما انتهوا إلى البيداء قال أبو جهل : إن ناقتي قد كلت فاحملني معك. قال : نعم ، فنزل ليوطئ لنفسه وله ، فأخذاه وشدّاه وثاقا ، وجلده كل واحد منهما مائة جلدة ، وذهبا به إلى أمه فقالت : لا تزال في عذاب حتى ترجع عن دين محمد ، فنزلت.

[سورة العنكبوت (29) : آية 9]

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (9)

فِي الصَّالِحِينَ في جملتهم. والصلاح من أبلغ صفات المؤمنين ، وهو متمنى أنبياء الله. قال الله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ وقال في إبراهيم عليه السلام : وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ أو في مدخل الصالحين وهي الجنة ، وهذا نحو قوله تعالى وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ الآية.

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 10 إلى 11]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ (10) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ (11)

(1). ذكره الواحدي والثعلبي والواقدي هكذا بغير سند والقصة في صحيح مسلم من حديث سعد بن أبى وقاص بغير هذا السياق.
(2). تقدم الكلام عليه في سورة النساء وهذا السياق أورده الثعلبي عن مقاتل وسنده إليه في أول كتابه ، وأخرجه ابن إسحاق في المغازي ومن طريقه البزار قال : حدثني نافع عن ابن عمر عن عمر مطولا.
(3). قوله «و فتلا منه في الذروة والغارب» في الصحاح : ما زال فلان يفتل من فلان في الذروة والغارب ، أى : يدور من وراء خديعته. (ع)

هم ناس كانوا يؤمنون بألسنتهم ، فإذا مسهم أذى من الكفار وهو المراد بفتنة الناس ، كان ذلك صارفا لهم عن الإيمان ، كما أن عذاب الله صارف للمؤمنين عن الكفر. أو كما يجب أن يكون عذاب الله صارفا. وإذا نصر الله المؤمنين وغنمهم اعترضوهم وقالوا إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أى مشايعين لكم في دينكم ، ثابتين عليه ثباتكم ، ما قدر أحد أن يفتننا ، فأعطونا نصيبنا من المغنم. ثم أخبر سبحانه أنه أعلم بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ من العالمين بما في صدورهم ، ومن ذلك ما تكنّ صدور هؤلاء من النفاق ، وهذا إطلاع منه للمؤمنين على ما أبطنوه ، ثم وعد المؤمنين وأوعد المنافقين. وقرئ : ليقولنّ ، بفتح اللام.

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 12 إلى 13]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ وَما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (12) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ (13)

أمروهم باتباع سبيلهم وهي طريقتهم التي كانوا عليها في دينهم ، وأمروا أنفسهم بحمل خطاياهم فعطف الأمر على الأمر ، وأرادوا : ليجتمع هذان الأمران في الحصول أن تتبعوا سبيلنا وأن تحمل خطاياكم. والمعنى : تعليق الحمل بالاتباع ، وهذا قول صناديد قريش : كانوا يقولون لمن آمن منهم : لا نبعث نحن ولا أنتم ، فإن عسى كان ذلك فإنا نتحمل عنكم الإثم. ونرى في المتسمين بالإسلام من يستن بأولئك فيقول لصاحبه - إذا أراد أن يشجعه على ارتكاب بعض العظائم - : افعل هذا وإثمه في عنقي. وكم من مغرور بمثل هذا الضمان من ضعفة العامّة وجهلتهم - ومنه ما يحكى أنّ أبا جعفر المنصور رفع إليه بعض أهل الحشو حوائجه ، فلما قضاها قال : يا أمير المؤمنين ، بقيت الحاجة العظمى. قال : وما هي؟ قال شفاعتك يوم القيامة ، فقال له عمرو بن عبيد رحمه اللّه : إياك وهؤلاء ، فإنهم قطاع الطريق في المأمن «1». فإن قلت : كيف سماهم كاذبين ،

(1). قال محمود : «و بعض المتسمين بالإسلام إذا أراد أن يشجع صاحبه على ذنب قال له : افعل هذا وإثمه في عنقي. ومنه ما يحكى أن رجلا رفع إلى المنصور حوائجه فلما قضاها ، قال يا أمير المؤمنين ، بقيت لي إليك حاجة هي العظمى. قال : وما هي؟ قال : شفاعتك في المحشر. فقال عمرو : يا أمير المؤمنين ، إياك وهؤلاء فهم قطاع الطريق في المأمن» قال أحمد : عمرو بن عبيد أول القدرية المنكرين للشفاعة فاحذره ، وليست الآية مطابقة للحكاية ، ولكن الزمخشري يبنى على أنه لا فرق بين اعتقاد الشفاعة واعتقاد أن الكفار يحملون خطايا أتباعهم ، فلذلك ساقهما مساقا واحدا نعوذ باللّه من ذلك. وفي قوله تعالى : إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ نكتة حسنة يستدل بها على صحة مجيء الأمر بمعنى الخبر ، فان من الناس من أنكره والتزم تخريج جميع ما ورد في ذلك على أصل الأمر ، ولم يتم له ذلك في هذه الآية ، لأن اللّه تعالى أردف قولهم : ولنحمل خطاياكم ، على صيغة الأمر بقوله إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ والتكذيب إنما يتطرق إلى الاخبار.

وإنما ضمنوا شيئا علم اللّه أنهم لا يقدرون على الوفاء به ، وضامن ما لا يعلم اقتداره على الوفاء به ، لا يسمى كاذبا لا حين ضمن ولا حين عجز ، لأنه في الحالين لا يدخل تحت حدّ الكاذب وهو المخبر عن الشيء لا على ما هو عليه؟ قلت : شبه اللّه حالهم حيث علم أن ما ضمنوه لا طريق لهم إلى أن يفوا به ، فكان ضمانهم عنده لا على ما عليه المضمون بالكاذبين الذين خبرهم لا على ما عليه لمخبر ، عنه. ويجوز أن يريد أنهم كاذبون ، لأنهم قالوا ذلك وقلوبهم على خلافه ، كالكاذبين الذين يعدون الشيء وفي قلوبهم نية الخلف وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ أى أثقال أنفسهم وَأَثْقالًا يعنى أثقالا أخر غير الخطايا التي ضمنوا للمؤمنين حملها ، وهي أثقال الذين كانوا سببا في ضلالهم وَلَيُسْئَلُنَّ سؤال تقريع عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ أى يختلقون من الأكاذيب والأباطيل. وقرئ : من خطيآتهم.

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 14 إلى 15]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَهُمْ ظالِمُونَ (14) فَأَنْجَيْناهُ وَأَصْحابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ (15)

كان عمر نوح عليه السلام ألفا وخمسين سنة ، بعث على رأس أربعين ، ولبث في قومه تسعمائة وخمسين ، وعاش بعد الطوفان ستين. وعن وهب : أنه عاش ألفا وأربعمائة سنة. فإن قلت : هلا قيل تسعمائة وخمسين سنة؟ قلت : ما أورده اللّه أحكم. لأنه لو قيل كما قلت ، لجاز أن يتوهم إطلاق هذا العدد على أكثره ، وهذا التوهم زائل مع مجيئه كذلك ، وكأنه قيل : تسعمائة وخمسين سنة كاملة وافية العدد ، إلا أنّ ذلك أخصر وأعذب لفظا وأملأ بالفائدة «1» ، وفيه نكتة أخرى : وهي أنّ القصة مسوقة لذكر ما ابتلى به نوح عليه السلام من أمّته وما كابده من طول المصابرة ، تسلية لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وتثبيتا له ، فكان ذكر رأس العدد الذي لا رأس أكثر منه ، أوقع وأوصل إلى الغرض من استطالة السامع مدّة صبره. فإن قلت : فلم جاء المميز أوّلا بالسنة وثانيا بالعام؟ قلت : لأنّ تكرير اللفظ الواحد في الكلام الواحد حقيق بالاجتناب في البلاغة ،

(1). قال محمود : «عدل عن تسعمائة وخمسين لأنه يحتمل فيه إطلاق العدد على أكثره بخلاف مجيئه مع الاستثناء» قال أحمد : لأن الاستثناء استدراك ورجوع على الجملة بالتنقيص ، تحريرا للعدد ، فلا يحتمل المبالغة لأنها لا يجوز معها العدد.

إلا إذا وقع ذلك لأجل غرض ينتحيه المتكلم من تفخيم أو تهويل «1» أو تنويه أو نحو ذلك. والطُّوفانُ ما أطاف وأحاط بكثرة وغلبة ، من سيل أو ظلام ليل أو نحوهما. قال العجاج : وغمّ طوفان الظّلام الأثأبا «2»

أَصْحابَ السَّفِينَةِ كانوا ثمانية وسبعين نفسا : نصفهم ذكور ، ونصفهم إناث ، منهم أولاد نوح عليه السلام : سام، وحام ، ويافث ، ونساؤهم. وعن محمد بن إسحاق : كانوا عشرة. خمسة رجال وخمس نسوة. وقد روى عن النبيّ صلى اللّه عليه وسلم «كانوا ثمانية : نوح وأهله وبنوه الثلاثة» «3» والضمير في وَجَعَلْناها للسفينة أو للحادثة والقصة.

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 16 إلى 18]

وَإِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (16) إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (17) وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (18)

نصب إِبْراهِيمَ بإضمار اذكر ، وأبدل عنه إِذْ بدل الاشتمال ، لأنّ الأحيان تشتمل على ما فيها. أو هو معطوف على نُوحاً وإذ ظرف لأرسلنا ، يعنى : أرسلناه حين بلغ من السنّ والعلم مبلغا صلح فيه لأن يعظ قومه وينصحهم ويعرض عليهم الحق ويأمرهم بالعبادة والتقوى.

(1). عاد كلامه. قال : «و فيه نكتة أخرى ، وهي أن القصة مسوقة لذكر ما ابتلى به نوح وكابده من طول المصابرة ، تسلية له عليه السلام فكان ذكر رأس العدد الذي لا رأس أكثر منه أوقع على الغرض. قال : وإنما خالف بين اللفظين فذكر في الأول السنة وفي الثاني العام ، تجنبا للتكرار الذي لا يحمد إلا لقصد تفخيم أو تعظيم» قال أحمد : ولو فخم المستثنى لعاد ذلك ببعض تفخيم المستثنى منه وتكبيره عند السامع ، والله أعلم.

(2) حتى إذا ما يومها تصيبا وعم طوفان الظلام الأثأبا

للعجاج يصف بقرة وحشية. وما : زائدة. ويروى : عم ، بالمهملة وبالمعجمة ، والمعنيان متقاربان. والطوفان : كل ما طاف حول الشيء وأحاط به من ظلام أو ماء أو نحوهما. والأثأب : نوع من الشجر يشبه شجر التين ، الواحدة : أثأبة ونسبة التصبب اليوم : مجاز عقلى من باب الاسناد للزمان ، أو على تقدير التمييز ، أى : تصبب مطرا ، وستر ظلامه الشجر الذي كانت فيه.

(3). تقدم في هود.

وقرأ إبراهيم النخعي وأبو حنيفة رحمهما الله. وإبراهيم ، بالرفع على معنى : ومن المرسلين إبراهيم إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يعنى : إن كان فيكم علم بما هو خير لكم مما هو شر لكم. أو إن نظرتم بعين الدراية المبصرة دون عين الجهل العمياء : علمتم أنه خير لكم : وقرئ : تخلقون من خلق بمعنى التكثير في خلق. وتخلقون ، من تخلق بمعنى تكذب وتخرص. وقرئ : إفكا ، فيه وجهان : أن يكون مصدرا ، نحو : كذب ولعب. والإفك : مخفف منه ، كالكذب واللعب من أصلهما ، وأن يكون صفة على فعل ، أى خلقا إفكا ، أى ذا إفك وباطل. واختلاقهم الإفك : تسميتهم الأوثان آلهة وشركاء لله أو شفعاء إليه. أو سمى الأصنام : إفكا ، وعملهم لها ونحتهم : خلقا للإفك. فإن قلت : لم نكر الرزق ثم عرفه؟ قلت : لأنه أراد لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئا من الرزق ، فابتغوا عند الله الرزق كله. فإنه هو الرزاق وحده لا يرزق غيره إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وقرئ : بفتح التاء ، فاستعدوا للقائه بعبادته والشكر له على أنعمه ، وإن تكذبونى فلا تضروننى بتكذيبكم ، فإنّ الرسل قبلي قد كذبتهم أممهم ، وما ضرّوهم وإنما ضروا أنفسهم ، حيث حلّ بهم ما حل بسبب تكذيب الرسل : وأما الرسول فقد تم أمره حين بلغ البلاغ المبين الذي زال معه الشكّ ، وهو اقترانه بآيات الله ومعجزاته. أو : وإن كنت مكذبا فيما بينكم فلي في سائر الأنبياء أسوة وسلوة حيث كذبوا ، وعلى الرسول أن يبلغ وما عليه أن يصدق ولا يكذب ، وهذه الآية والآيات التي بعدها إلى قوله فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ محتملة أن تكون من جملة قول إبراهيم صلوات الله عليه لقومه ، وأن تكون آيات وقعت معترضة في شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وشأن قريش بين أوّل قصة إبراهيم وآخرها. فإن قلت : إذا كانت من قول إبراهيم فما المراد بالأمم قبله؟ قلت : قوم شيث وإدريس ونوح وغيرهم ، وكفى بقوم نوح أمّة في معنى أمم جمة مكذبة ، ولقد عاش إدريس ألف سنة في قومه إلى أن رفع إلى السماء. وآمن به ألف إنسان منهم على عدد سنيه ، وأعقابهم على التكذيب.

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 19 إلى 22]

أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (19) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20) يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (21) وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (22)

فإن قلت : فما تصنع بقوله قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ؟ قلت : هي حكاية كلام حكاه إبراهيم عليه السلام لقومه ، كما يحكى رسولنا صلى الله عليه وسلم كلام الله على هذا المنهاج في أكثر القرآن فإن قلت : فإذا كانت خطابا لقريش فما وجه توسطهما بين طرفى قصة إبراهيم والجملة؟ أو الجمل الاعتراضية لا بد لها من اتصال بما وقعت معترضة فيه؟ ألا تراك لا تقول : مكة - وزيد أبوه قائم - خير بلاد الله؟ قلت : إيراد قصة إبراهيم ليس إلا إرادة للتنفيس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن تكون مسلاة له ومتفرجا بأنّ أباه إبراهيم خليل الله كان ممنوّا بنحو ما مني «1» به من شرك قومه وعبادتهم الأوثان ، فاعترض بقوله : وإن تكذبوا ، على معنى إنكم يا معشر قريش إن تكذبوا محمدا فقد كذب إبراهيم قومه وكل أمة نبيها ، لأن قوله فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ لا بد من

دل بقوله النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ على أنهما نشأتان ، وأن كل واحدة منهما إنشاء ، أى : ابتداء واختراع ، وإخراج من العدم إلى الوجود ، لا تفاوت بينهما إلا أن الآخرة إنشاء بعد إنشاء مثله ، والأولى ليست كذلك. وقرئ : النشأة والنشاءة ، كالرأفة والرآفة. فإن قلت : ما معنى الإفصاح باسمه مع إيقاعه مبتدأ في قوله ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ بعد إضماره في قوله : كيف بدأ الخلق؟

(1). قوله «كان ممنوا بنحو ماضى؟؟؟ به» أى : مبتلى. في الصحاح : منوته ومنيته ، إذا ابتليته. (ع)
(2). قوله «و هو كما ترى اعتراض واقع» لعله : واقع موقعه. (ع)
(3). قال محمود : «يعيده ليس معطوفا على يبدئ ، وإنما هو إخبار على حياله ، كما وقع كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ كقولك ما زلت أوثر فلانا وأستخلفه بعدي» قال أحمد ، وقد تقدم له عند قوله تعالى أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ أنه معطوف ، وصحح العطف - وإن كانوا ينكرون الاعادة - لأن الاعتراف بها لازم لهم ، وقد أبى هاهنا جعله معطوفا ، فالفرق والله أعلم أنه هاهنا لو عطف الاعادة على البداءة لدخلت في الرؤية الماضية ، وهي لم تقع بعد ، ولا كذلك في آية النمل ، ولقائل أن يقول : هي وإن لم تقع ، إلا أنها باخبار الله تعالى بوقوعها كالواقعة المرئية ، فعوملت معاملة ما رئي وشوهد إلا أن جعله خبرا ثانيا أوضح ، والله أعلم.

وكان القياس أن يقال : كيف بدأ الله الخلق ثم ينشئ النشأة الآخرة؟ قلت : الكلام معهم كان واقعا في الإعادة ، وفيها كانت تصطك الركب ، فلما قرّرهم في الإبداء بأنه من الله ، احتج عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء ، فإذا كان الله الذي لا يعجزه شيء هو الذي لم يعجزه الإبداء ، فهو الذي وجب أن لا تعجزه الإعادة «1» ، فكأنه قال : ثم ذاك الذي أنشأ النشأة الأولى هو الذي ينشئ النشأة الآخرة ، فللدلالة والتنبيه على هذا المعنى أبرز اسمه وأوقعه مبتدأ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ تعذيبه وَيَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ رحمته ، ومتعلق المشيئتين مفسر مبين في مواضع من القرآن «2» وهو من يستوجبهما من الكافر والفاسق إذا لم يتوبا ، ومن المعصوم والتائب تُقْلَبُونَ تردون وترجعون وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ربكم أى لا تفوتونه إن هربتم من حكمه وقضائه فِي الْأَرْضِ الفسيحة وَلا فِي السَّماءِ التي هي أفسح منها وأبسط لو كنتم فيها ، كقوله تعالى : إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا ، وقيل : ولا من في السماء «3» كما قال حسان رضى الله عنه : أمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء «4»

ويحتمل أن يراد : لا تعجزونه كيفما هبطتم في مهاوي الأرض وأعماقها ، أو علوتم في البروج والقلاع الذاهبة في السماء ، كقوله تعالى وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ أو لا تعجزون أمره الجاري في السماء والأرض أن يجرى عليكم ، فيصيبكم ببلاء يظهر من الأرض أو ينزل من السماء.

[سورة العنكبوت (29) : آية 23]

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ وَلِقائِهِ أُولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (23)

بِآياتِ اللَّهِ بدلائله على وحدانيته وكتبه ومعجزاته ولقائه والبعث يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وعيد ، أى ييأسون يوم القيامة، كقوله : وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ. أو هو وصف لحالهم ،

(1). قال محمود : «إن قلت ما وجه الإفصاح باسمه تعالى مع النشأة الآخرة ، بعد إضماره في البداءة أو لا؟
قلت : لأن النشأة الآخرة هي المقصودة وفيها كانت تصطك الركب ، فكانت خليقة بإبراز اسمه تعالى تحقيقا لنسبة الاعادة إلى من نسبت إليه الأولى» قال أحمد : والأصل الاظهار ثم الإضمار ، ويليه لقصد التفخيم : الاظهار بعد الاظهار ، ويليه وهو أفخم الثلاثة : الاظهار بعد الإضمار كما في الآية ، والله أعلم.
(2). قوله «و متعلق المشيئتين مفسر مبين في مواضع من القرآن» تفسيره بما يأتى مبنى على أنه تعالى يجب عليه تعذيب الكافر والفاسق إذا لم يتوبا وإثابة المعصوم والتائب ، وهو مذهب المعتزلة. ولا يجب عليه تعالى شيء عند أهل السنة ، فالمشيئة في الآية على إطلاقها. (ع) [.....]
(3). قوله «و قيل ولا من في السماء» عبارة الخازن : ولا من في السماء بمعجز. (ع)
(4). تقدم شرح هذا الشاهد ضمن أبيات بالجزء الثاني صفحة 563 فراجعه إن شئت اه مصححه.

لأنّ المؤمن إنما يكون راجيا خاشيا ، فأما الكافر فلا يخطر بباله رجاء ولا خوف.

أو شبه حالهم في انتفاء الرحمة عنهم بحال من يئس من الرحمة : وعن قتادة رضى الله عنه. إن الله ذمّ قوما هانوا عليه فقال أُولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وقال إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ فينبغي للمؤمن أن لا ييأس من روح الله ولا من رحمته ، وأن لا يأمن عذابه وعقابه صفة المؤمن «1» أن يكون راجيا لله عز وجل خائفا.

[سورة العنكبوت (29) : آية 24]

فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (24)

قرئ جَوابَ قَوْمِهِ بالنصب والرفع قالُوا قال بعضهم لبعض. أو قاله واحد منهم وكان الباقون راضين ، فكانوا جميعا في حكم القائلين. وروى أنه لم ينتفع في ذلك اليوم بالنار ، نعنى : يوم ألقى إبراهيم في النار ، وذلك لذهاب حرّها.

[سورة العنكبوت (29) : آية 25]

وَقالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (25)

قرئ على النصب بغير إضافة وبإضافة ، وعلى الرفع كذلك ، فالنصب على وجهين : على التعليل ، أى لتتوادّوا بينكم وتتواصلوا ، لاجتماعكم على عبادتها واتفاقكم عليها وائتلافكم ، كما يتفق الناس على مذهب فيكون ذلك سبب تحابهم وتصادقهم. وأن يكون مفعولا ثانيا ، كقوله اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ أى اتخذتم الأوثان سبب المودّة بينكم ، على تقدير حذف المضاف.

أو اتخذتموها مودّة بينكم ، بمعنى مودودة بينكم ، كقوله تعالى وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وفي الرفع وجهان : أن يكون خبرا لأنّ ، على أن ما موصولة.

وأن يكون خبر مبتدإ محذوف. والمعنى : أنّ الأوثان مودّة بينكم ، أى : مودودة ، أو سبب مودّة. وعن عاصم : مودّة بينكم : بفتح بينكم مع الإضافة ، كما قرئ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ففتح وهو فاعل. وقرأ ابن مسعود رضى الله عنه: أوثانا إنما مودّة بينكم في الحياة الدنيا ، أى : إنما تتوادّون عليها ، أو تودّونها في الحياة الدنيا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يقوم بينكم التلاعن والتباغض والتعادي : يتلاعن العبدة ، ويتلاعن العبدة والأصنام ، كقوله تعالى وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا.

(1). قوله : «صفة المؤمن» لعله : لأن صفه المؤمن ... الخ. (ع)

[سورة العنكبوت (29) : آية 26]

فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقالَ إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (26)

كان لوط ابن أخت إبراهيم عليهما السلام ، وهو أول من آمن له حين رأى النار لم تحرقه وَقالَ يعنى إبراهيم إِنِّي مُهاجِرٌ من «كوثى» وهي من سواد الكوفة إلى «حرّان» ثم منها إلى فلسطين ، ومن ثمة قالوا : لكل نبى هجرة ولإبراهيم هجرتان ، وكان معه في هجرته : لوط ، وامرأته سارّة ، وهاجر وهو ابن خمس وسبعين سنة إِلى رَبِّي إلى حيث أمرنى بالهجرة إليه إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الذي يمنعني من أعدائى الْحَكِيمُ الذي لا يأمرنى إلا بما هو مصلحتي.

[سورة العنكبوت (29) : آية 27]

وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ وَآتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ(27)

أَجْرَهُ الثناء الحسن ، والصلاة عليه آخر الدهر والذرية الطيبة والنبوّة ، وأن أهل الملل كلهم يتولونه. فإن قلت : ما بال إسماعيل عليه السلام لم يذكر ، وذكر إسحاق وعقبه؟

قلت : قد دلّ عليه في قوله وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ وكفى الدليل لشهرة أمره وعلوّ قدره. فإن قلت : ما المراد بالكتاب؟ قلت : قصد به جنس الكتاب ، حتى دخل تحته ما نزل على ذرّيته من الكتب الأربعة : التي هي التوراة والزبور والإنجيل والقرآن؟

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 28 إلى 30]

وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (28) أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا ائْتِنا بِعَذابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (29) قالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (30)

وَلُوطاً معطوف على إبراهيم ، أو على ما عطف عليه. والْفاحِشَةَ الفعلة البالغة في القبح. وما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ جملة مستأنفة مقررة لفحاشة تلك الفعلة ، كأن قائلا قال : لم كانت فاحشة؟ فقيل له : لأن أحدا قبلهم لم يقدم عليها اشمئزازا منها في طباعهم لإفراط قبحها ، حتى أقدم عليها قوم لوط لخبث طينتهم وقذر طباعهم. قالوا لم ينز ذكر على ذكر قبل قوم لوط قط. وقرئ : إنكم ، بغير استفهام في الأوّل دون الثاني : قال أبو عبيدة :

وجدته في الإمام بحرف واحد بغير ياء ، ورأيت الثاني بحرفين الياء والنون وقطع السبيل : عمل قطاع الطريق ، من قتل الأنفس وأخذ الأموال. وقيل : اعتراضهم السابلة بالفاحشة.

وعن الحسن : قطع النسل بإتيان ما ليس بحرث. والْمُنْكَرَ عن ابن عباس رضى الله عنهما هو الخذف بالحصى ، والرمي بالبنادق ، والفرقعة ، ومضغ العلك ، والسواك بين الناس ، وحل الأزرار ، والسباب ، والفحش في المزاح. وعن عائشة رضى الله عنها : كانوا يتحابقون «1».

وقيل السخرية بمن مرّ بهم. وقيل : المجاهرة في ناديهم بذلك العمل ، وكل معصية فإظهارها أقبح من سترها ، ولذلك جاء : من خرق جلباب الحياء فلا غيبة له. ولا يقال للمجلس : ناد ، إلا ما دام فيه أهله ، فإذا قاموا عنه لم يبق ناديا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فيما تعدناه من نزول العذاب. كانوا يفسدون الناس بحملهم على ما كانوا عليه من المعاصي والفواحش طوعا وكرها ولأنهم ابتدعوا الفاحشة وسنوها فيمن بعدهم ، وقال الله تعالى الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ بِما كانُوا يُفْسِدُونَ فأراد لوط عليه السلام أن يشتد غضب الله عليهم ، فذكر لذلك صفة المفسدين في دعائه.

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 31 إلى 32]

وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ (31) قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (32)

بِالْبُشْرى هي البشارة بالولد. والنافلة : وهما إسحاق ويعقوب. وإضافة مهلكو إضافة تخفيف لا تعريف. والمعنى الاستقبال. والقرية : سدوم التي قيل فيها : أجور من قاضى سدوم كانُوا ظالِمِينَ معناه أنّ الظلم قد استمر منهم إيجاده في الأيام السالفة ، وهم عليه مصرون ، وظلمهم : كفرهم وألوان معاصيهم إِنَّ فِيها لُوطاً ليس إخبارا لهم بكونه فيها ، وإنما هو جدال في شأنه ، لأنهم لما عللوا إهلاك أهلها بظلمهم : اعترض عليهم بأن فيها من هو بريء من الظلم ، وأراد بالجدال : إظهار الشفقة عليهم ، وما يجب للمؤمن من التحزن لأخيه ، والتشمر في نصرته وحياطته ، والخوف من أن يمسه أذى أو يلحقه ضرر. قال قتادة : لا يرى المؤمن ألا يحوط المؤمن ، ألا ترى إلى جوابهم بأنهم أعلم منه بِمَنْ فِيها يعنون : نحن أعلم منك

(1). قوله «كانوا يتحابقون» في الصحاح «الحبق» بالكسر : الردام. وفيه أيضا «الردام» بالضم : الحبق اه ، وهو دور فلينظر حله ، ثم رأيت فيه في مادة «ضرط» الضراط : الردام ، وقد ضرط يضرط ضرطا بكسر الزاء ، مثال : حبق يحبق حبقا اه فالتحابق : المضارطة ، كما عبر النسفي. (ع)

وأخبر بحال لوط وحال قومه ، وامتيازه منهم الامتياز البين ، وأنه لا يستأهل ما يستأهلون ، فخفض على نفسك وهوّن عليك الخطب. وقرئ لَنُنَجِّيَنَّهُ بالتشديد والتخفيف ، وكذلك منجوك.

[سورة العنكبوت (29) : آية 33]

وَلَمَّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (33)

أَنْ صلة أكدت وجود الفعلين مترتبا أحدهما على الآخر في وقتين متجاورين لا فاصل بينهما ، كأنهما وجدا في جزء واحد من الزمان ، كأنه قيل : كما أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ريث «1» ، خيفة عليهم من قومه وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وضاق بشأنهم وبتدبير أمرهم ذرعه أى طاقته ، وقد جعلت العرب ضيق الذراع والذرع : عبارة عن فقد الطاقة ، كما قالوا : رحب الذراع بكذا ، إذا كان مطيقا له ، والأصل فيه أنّ الرجل إذا طالت ذراعه نال ما لا يناله القصير الذراع ، فضرب ذلك مثلا في العجز والقدرة.

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 34 إلى 35]

إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (34) وَلَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(35)

الرجز والرجس : العذاب ، من قولهم : ارتجز وارتجس إذا اضطرب ، لما يلحق المعذب من القلق والاضطراب. وقرئ مُنْزِلُونَ مخففا ومشدّدا مِنْها من القرية آيَةً بَيِّنَةً هي آثار منازلهم الخربة. وقيل : بقية الحجارة. وقيل : الماء الأسود على وجه الأرض. وقيل : الخبر عما صنع بهم لِقَوْمٍ متعلق بتركنا أو ببينة.

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 36 إلى 37]

وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (36) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (37)

وَارْجُوا وافعلوا ما ترجون به العاقبة. فأقيم المسبب مقام السبب. أو أمروا بالرجاء : والمراد : اشتراط ما يسوّغه من الإيمان ، كما يؤمر الكافر بالشرعيات على إرادة الشرط. وقيل : هو من الرجاء بمعنى الخوف. والرجفة : الزلزلة الشديدة. وعن الضحاك : صيحة جبريل عليه السلام ، لأنّ القلوب رجفت لها فِي دارِهِمْ في بلدهم وأرضهم. أو في ديارهم ، فاكتفى بالواحد

(1). قوله «من غير ريث» أى بطء. (ع)

لأنه لا يلبس جاثِمِينَ باركين على الركب ميتين.

[سورة العنكبوت (29) : آية 38]

وَعاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ(38)
وَعاداً منصوب بإضمار «أهلكنا» لأن قوله فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ يدل عليه ، لأنه في معنى الإهلاك وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ ذلك : يعنى ما وصفه من إهلاكهم مِنْ جهة مَساكِنِهِمْ إذا نظرتم إليها عند مروركم بها ، وكان أهل مكة يمرون عليها في أسفارهم فيبصرونها وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ عقلاء متمكنين من النظر والافتكار ، ولكنهم لم يفعلوا. أو كانوا متبينين أن العذاب نازل بهم لأن الله تعالى قد بين لهم على ألسنة الرسل عليهم السلام ، ولكنهم لجوا حتى هلكوا.

[سورة العنكبوت (29) : آية 39]

وَقارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهامانَ وَلَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَما كانُوا سابِقِينَ (39)

سابِقِينَ فائتين ، أدركهم أمر الله فلم يفوتوه.

[سورة العنكبوت (29) : آية 40]

فَكُلاًّ أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا وَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (40)

الحاصب : لقوم لوط ، وهي ريح عاصف فيها حصباء. وقيل : ملك كان يرميهم. والصيحة : لمدين وثمود. والخسف : لقارون. والغرق : لقوم نوح وفرعون.

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 41 إلى 42]

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (41) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (42)

الغرض تشبيه ما اتخذوه متكلا ومعتمدا في دينهم وتولوه من دون اللّه ، بما هو مثل عند الناس في الوهن وضعف القوّة. وهو نسج العنكبوت. ألا ترى إلى مقطع التشبيه وهو قوله وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ؟ فإن قلت : ما معنى قوله لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ وكل أحد يعلم وهن بيت العنكبوت؟ قلت : معناه لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم وأن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن. ووجه آخر : وهو أنه إذا صحّ تشبيه ما اعتمدوه في دينهم ببيت العنكبوت ، وقد صح أن أوهن البيوت بيت العنكبوت ، فقد تبين أن دينهم أوهن الأديان لو كانوا يعلمون. أو أخرج الكلام بعد تصحيح التشبيه مخرج المجاز ، فكأنه قال : وإن أوهن ما يعتمد عليه في الدين عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون. ولقائل أن يقول : مثل المشرك الذي يعبد الوثن بالقياس إلى المؤمن الذي يعبد اللّه ، مثل عنكبوت يتخذ بيتا ، بالإضافة إلى رجل يبنى بيتا بآجر وجص أو ينحته من صخر ، وكما أن أوهن البيوت إذا استقريتها بيتا بيتا بيت العنكبوت ، كذلك أضعف الأديان إذا استقريتها دينا دينا عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون.

قرئ : تدعون ، بالتاء والياء. وهذا توكيد للمثل وزيادة عليه ، حيث لم يجعل ما يدعونه شيئا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ فيه تجهيل لهم حيث عبدوا ما ليس بشيء ، لأنه جماد ليس معه مصحح العلم والقدرة أصلا ، وتركوا عبادة القادر القاهر على كل شيء ، الحكيم الذي لا يفعل شيئا إلا بحكمة وتدبير.

[سورة العنكبوت (29) : آية 43]

وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إِلاَّ الْعالِمُونَ (43)

كان الجهلة والسفهاء من قريش يقولون إنّ ربّ محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت ، ويضحكون من ذلك ، فلذلك قال وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ أى لا يعقل صحتها وحسنها وفائدتها إلا هم ، لأنّ الأمثال والتشبيهات إنما هي الطرق إلى المعاني المحتجبة في الأستار حتى تبرزها وتكشف عنها وتصوّرها للأفهام ، كما صوّر هذا التشبيه الفرق بين حال المشرك وحال الموحد وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه تلا هذه الآية فقال : «العالم من عقل عن اللّه فعمل بطاعته واجتنب سخطه «1»» :

[سورة العنكبوت (29) : آية 44]

خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (44)

بِالْحَقِّ أى بالغرض الصحيح «2» الذي هو حق لا باطل ، وهو أن تكونا مساكن عباده وعبرة للمعتبرين منهم ، ودلائل على عظم قدرته : ألا ترى إلى قوله إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَو نحوه قوله تعالى وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلًا ثم قال ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا

---

(1). أخرجه داود بن المجبر في كتاب العقل والحارث بن أبى أسامة في مسنده عنه من حديث جابر ، وأخرجه من طريق الحارث الثعلبي والواحدي : والبغوي ، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات.
(2). قال محمود : «أى بالغرض الصحيح» قال أحمد : لفظة قدرية ومعتقد رديء قد تقدم إنكاره على القدرية ، ولو كان ما قالوه حقا من حيث المعنى ، لوجب اجتناب هذه العبارة التي لا تليق بالأدب. واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

[سورة العنكبوت (29) : آية 45]

اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ (45)

الصلاة تكون لطفا في ترك المعاصي ، فكأنها ناهية عنها. فإن قلت : كم من مصل يرتكب ولا تنهاه صلاته؟ قلت الصلاة التي هي الصلاة عند الله المستحق بها الثواب : أن يدخل فيها مقدّما للتوبة النصوح ، متقيا ، لقوله تعالى إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ويصليها خاشعا بالقلب والجوارح ، فقد روى عن حاتم : كأنّ رجلي على الصراط والجنة عن يمينى والنار عن يساري وملك الموت من فوقى ، وأصلى بين الخوف والرجاء ، ثم يحوطها بعد أن يصليها فلا يحبطها ، فهي الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر. وعن ابن عباس رضى الله عنهما : من لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله إلا بعدا «1». وعن الحسن رحمه الله : من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، فليست صلاته بصلاة ، وهي وبال عليه. وقيل : من كان مراعيا للصلاة جرّه ذلك إلى أن ينتهى عن السيئات يوما ما ، فقد روى أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنّ فلانا يصلى بالنهار ويسرق بالليل ، فقال «إنّ صلاته لتردعه» «2» وروى أنّ فتى من الأنصار كان يصلى معه الصلوات ، ولا يدع شيئا من الفواحش إلا ركبه ، فوصف له فقال «إن صلاته ستنهاه» فلم يلبث أن تاب «3». وعلى كل حال إنّ المراعى للصلاة لا بدّ أن يكون أبعد من الفحشاء والمنكر ممن لا يراعيها. وأيضا فكم من مصلين تنهاهم الصلاة عن الفحشاء والمنكر ، واللفظ لا يقتضى أن لا يخرج واحد من المصلين عن قضيتها، كما تقول : إنّ زيدا ينهى عن المنكر فليس غرضك أنه ينهى عن جميع المناكير ، وإنما تريد أنّ هذه الخصلة موجودة فيه وحاصلة منه من غير اقتضاء للعموم وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ يريد : وللصلاة أكبر من غيرها من الطاعات ،

(1). أخرجه الطبراني من رواية العلاء بن المسيب عمن ذكره عن ابن عباس بهذا موقوفا. ورواه الطبراني وابن أبى حاتم وابن مردويه من طريق ليث عن عطاء عن ابن عباس مرفوعا. وفي الباب عن ابن عمر. أخرجه الدارقطني في غرائب مالك. وفي إسناده محمد بن الحسن البصري. قال ابن حبان : لا يجوز الاحتجاج به. يروى عن مالك ما لا أصل له. وأخرجه أحمد في الزهد من قول ابن مسعود. وأخرجه عبد الرزاق والطبري والبيهقي في الشعب من مرسل الحسن

(2). أخرجه أحمد وإسحاق وابن حبان والبزار وأبو يعلى من طريق عيسى بن يونس ووكيع ومجاهد عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة. قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إن فلانا يصلى بالليل فإذا أصبح سرق.
فقال إن صلاته ستنهاه ورواه البزار من طريق زياد البكائى وأبو يعلى من طريق أبى إسحاق الفزاري كلاهما عن الأعمش عن أبى صالح عن جابر. قال البزار : اختلف فيه عن الأعمش فقيل عنه أيضا عن أبى سفيان عن جابر

(3). لم أجده

وسماها بذكر الله كما قال فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ وإنما قال : ولذكر الله : ليستقلّ بالتعليل ، كأنه قال : وللصلاة أكبر، لأنها ذكر الله. أو ولذكر الله عند الفحشاء والمنكر وذكر نهيه عنهما ووعيده عليهما أكبر ، فكان أولى بأن ينهى من اللطف الذي في الصلاة. وعن ابن عباس رضى الله عنهما ولذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ من الخير والطاعة ، فيثيبكم أحسن الثواب.

[سورة العنكبوت (29) : آية 46]

وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلهُنا وَإِلهُكُمْ واحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (46)

بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ بالخصلة التي هي أحسن : وهي مقابلة الخشونة باللين ، والغضب بالكظم.

والسورة بالأناة ، كما قال. ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا فأفرطوا في الاعتداء والعناد ولم يقبلوا النصح ولم ينفع فيهم الرفق ، فاستعملوا معهم الغلظة ، وقيل : إلا الذين آذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقيل : إلا الذين أثبتوا الولد والشريك وقالوا يد الله مغلولة.

وقيل : معناه ولا تجادلوا الداخلين في الذمّة المؤدّين للجزية إلا بالتي هي أحسن ، إلا الذين ظلموا فنبذوا الذمّة ومنعوا الجزية ، فإن أولئك مجادلتهم بالسيف. وعن قتادة : الآية منسوخة بقوله تعالى قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ولا مجادلة أشدّ من السيف : وقوله قُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا من جنس المجادلة بالتي هي أحسن. وعن النبي صلى الله عليه وسلم : ما حدّثكم أهل الكتاب فلا تصدّقوهم ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله ، فإن كان باطلا لم تصدّقوهم ، وإن كان حقا لم تكذبوهم «1».

[سورة العنكبوت (29) : آية 47]

وَكَذلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ الْكافِرُونَ (47)

ومثل ذلك الإنزال أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ أى : أنزلناه مصدّقا لسائر الكتب السماوية ، تحقيقا لقوله آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم. وقيل : كما أنزلنا الكتب إلى من كان قبلك أنزلنا إليك الكتاب فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ هم عبد الله بن سلام ومن آمن معه وَمِنْ هؤُلاءِ من أهل مكة وقيل : أراد بالذين أوتوا الكتاب الذين تقدموا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب ، ومن هؤلاء ممن في عهده منهم وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا مع ظهورها وزوال الشبهة عنها ، إلا المتوغلون في الكفر المصممون عليه. وقيل : هم كعب بن الأشرف وأصحابه.

(1). أخرجه أبو داود ، وابن حبان وأحمد وإسحاق وابن أبى شيبة وأبو يعلى والطبراني ، من طريق الزهري أخبرنى ابن أبى نملة الأنصارى أن أباه أبا نملة الأنصارى أخبره. قال «بينا هو عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فذكر قصة هذا فيها» هذا هو المعروف في إسناد هذا الحديث وأخرجه الطبراني في مسند الشاميين من رواية بقية عن الزبير عن الزهري عن سالم عن أبيه عن عامر بن ربيعة به. وأصل الحديث في البخاري من حديث أبى هريرة باختصار

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 48 إلى 49]

وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتابَ الْمُبْطِلُونَ (48) بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ الظَّالِمُونَ (49)

وأنت أمىّ ما عرفك أحد قط بتلاوة كتاب ولا خط إِذاً لو كان شيء من ذلك ، أى ، من التلاوة والخط لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ من أهل الكتاب وقالوا : الذي نجده في كتبنا أمى لا يكتب ولا يقرأ وليس به. أو لارتاب مشركو مكة وقالوا : لعله تعلمه أو كتبه بيده. فإن قلت : لم سماهم مبطلين ، ولو لم يكن أمّيا وقالوا : ليس بالذي نجده في كتبنا لكانوا صادقين محقين؟

ولكان أهل مكة أيضا على حق في قولهم لعله تعلمه أو كتبه فإنه رجل قارئ كاتب؟ قلت : سماهم مبطلين لأنهم كفروا به وهو أمىّ بعيد من الريب ، فكأنه قال : هؤلاء المبطلون في كفرهم به لو لم يكن أمّيا لارتابوا أشدّ الريب ، فحين ليس «1» بقارئ كاتب فلا وجه لارتيابهم. وشيء آخر : وهو أن سائر الأنبياء عليهم السلام لم يكونوا أمّيين ، ووجب الإيمان بهم وبما جاءوا به ، لكونهم مصدقين من جهة الحكيم بالمعجزات ، فهب أنه قارئ كاتب فما لهم لم يؤمنوا به من الوجه الذي آمنوا منه بموسى وعيسى عليهما السلام؟ على أن المنزلين «2» ليسا بمعجزين ، وهذا المنزل معجز ، فإذا هم مبطلون حيث لم يؤمنوا به وهو أمى ، ومبطلون لو لم يؤمنوا به وهو غير أمى.

فان قلت : ما فائدة قوله بيمينك؟ قلت ذكر اليمين وهي الجارحة التي يزاول بها الخط : زيادة تصوير لما نفى عنه من كونه كاتبا. ألا ترى أنك إذا قلت في الإثبات ، رأيت الأمير يخط هذا الكتاب بيمينه ، كان أشد لإثباتك أنه تولى كتبته ، فكذلك النفي بَلْ القرآن آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ العلماء به وحفاظه ، وهما من خصائص القرآن: كون آياته بينات الإعجاز ، وكونه محفوظا في الصدور يتلوه أكثر الأمة ظاهرا : بخلاف سائر الكتب ، فإنها لم تكن معجزات ،

(1). قوله «فحين ليس» لعله فحين كان ليس. (ع)
(2). قوله «على أن المنزلين ليسا بمعجزين» لعله : المنزلين عليهما. (ع)

وما كانت تقرأ إلا من المصاحف. ومنه ما جاء في صفة هذه الأمة «صدورهم أناجيلهم» «1» وَما يَجْحَدُ بآيات الله الواضحة ، إلا المتوغلون في الظلم المكابرون.

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 51 إلى 52]

أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (51) قُلْ كَفى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (52)

قرئ : آية ، وآيات. أرادوا : هلا أنزل عليه آية مثل ناقة صالح ومائدة عيسى عليهما السلام ونحو ذلك إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ ينزل أيتها شاء ، ولو شاء أن ينزل ما تقترحونه لفعل وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ كلفت الإنذار وإبانته بما أعطيت من الآيات ، وليس لي أن أتخير على الله آياته فأقول ، أنزل علىّ آية كذا دون آية كذا ، مع علمى أنّ الغرض من الآية ثبوت الدلالة ، والآيات كلها في حكم آية واحدة في ذلك ، ثم قال أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ آية مغنية عن سائر الآيات - إن كانوا طالبين للحق غير متعنتين - هذا القرآن الذي تدوم تلاوته عليهم في كل مكان وزمان فلا يزال معهم آية ثابتة لا تزول ولا تضمحلّ ، كما تزول كل آية بعد كونها ، وتكون في مكان دون مكان. إنّ في مثل هذه الآية الموجودة في كل مكان وزمان إلى آخر الدهر لَرَحْمَةً لنعمة عظيمة لا تشكر. وتذكرة لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ وقيل : أو لم يكفهم ، يعنى اليهود : أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم بتحقيق ما في أيديهم من نعتك ونعت دينك. وقيل : إنّ ناسا من المسلمين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتف قد كتبوا فيها بعض ما يقول اليهود، فلما أن نظر إليها ألقاها وقال : كفى بها حماقة قوم أو ضلالة قوم أن يرغبوا عما جاءهم به نبيهم إلى ما جاء به غير نبيهم ، فنزلت «2». والوجه ما ذكرناه كَفى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً أنى قد بلغتكم ما أرسلت به إليكم وأنذرتكم ، وأنكم قابلتمونى بالجحد والتكذيب يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فهو مطلع على أمرى وأمركم،

(1). أخرجه الطبراني من رواية سنان بن الحارث عن إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود مرفوعا في أثناء حديث وروى الواقدي في الردة عن إسماعيل بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبى ربيعة عن أبيه أن يهوديا من أهل سبأ يقال له نعمان ، وكان أعلم أحبار يهود فذكر قصة فيها صفة النبي صلى الله عليه وسلم في سفر عندهم مختوم وفيه هذا. [.....]

(2). أخرجه الطبري وأبو داود في المراسيل من طريق يحيى بن جعدة «أن النبي صلى الله عليه وسلم أتاه قوم من المسلمين بكتاب في كتف» فذكر نحوه ولفظ الطبري كالأصل.

وعالم بحقي وباطلكم وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ منكم وهو ما تعبدون من دون الله وَكَفَرُوا بِاللَّهِ وآياته أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ المغبونون في صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان ، إلا أن الكلام ورد مورد الإنصاف ، كقوله وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ وكقول حسان : فشر كما لخير كما الفداء «1»

وروى أنّ كعب بن الأشرف وأصحابه قالوا : يا محمد ، من يشهد لك بأنك رسول الله ، فنزلت.

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 53 إلى 55]

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (53) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ (54) يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (55)

كان استعجال العذاب استهزاء منهم وتكذيبا ، والنضر بن الحرث هو الذي قال : اللهم أمطر علينا حجارة من السماء ، كما قال أصحاب الأيكة : فأسقط علينا كسفا من السماء وَلَوْلا أَجَلٌ قد سماه الله وبينه في اللوح لعذابهم ، وأوجبت الحكمة تأخيره إلى ذلك الأجل المسمى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ عاجلا. والمراد بالأجل : الآخرة ، لما روى أنّ الله تعالى وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يعذب قومه ولا يستأصلهم ، وأن يؤخر عذابهم إلى يوم القيامة «2».

وقيل : يوم بدر. وقيل : وقت فنائهم بآجالهم لَمُحِيطَةٌ أى ستحيط بهم يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ أو هي محيطة بهم في الدنيا : لأنّ المعاصي التي توجبها محيطة بهم. أو لأنها مآلهم ومرجعهم لا محالة فكأنها الساعة محيطة بهم. وَيَوْمَ يَغْشاهُمُ على هذا منصوب بمضمر ، أى : يوم يغشاهم العذاب كان كيت وكيت. مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ كقوله تعالى لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ، وَيَقُولُ قرئ بالنون والياء ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أى جزاءه.

[سورة العنكبوت (29) : آية 56]

يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (56)

معنى الآية : أنّ المؤمن إذا لم يتسهل له العبادة في بلد هو فيه ولم يتمش له أمر دينه كما يحب،

(1). تقدم شرح هذا الشاهد ضمن أبيات بالجزء الثاني صفحة 563 فراجعه إن شئت اه مصححه.

(2). لم أجده.

فليهاجر عنه إلى بلد يقدّر أنه فيه أسلم قلبا وأصح دينا وأكثر عبادة وأحسن خشوعا. ولعمري إن البقاع تتفاوت في ذلك التفاوت الكثير ، ولقد جرّبنا وجرّب أوّلونا ، فلم نجد فيما درنا وداروا : أعون على قهر النفس وعصيان الشهوة وأجمع للقلب المتلفت وأضم للهم المنتشر وأحث على القناعة وأطرد للشيطان وأبعد من كثير من الفتن وأضبط للأمر الديني في الجملة - من سكنى حرم الله وجوار بيت الله ، فللّه الحمد على ما سهل من ذلك وقرب ، ورزق من الصبر وأوزع من الشكر. وعن النبي صلى الله عليه وسلم «من فرّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبرا من الأرض ، استوجب الجنة وكان رفيق إبراهيم «1» ومحمد» وقيل : هي في المستضعفين بمكة الذين نزل فيهم أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها وإنما كان ذلك لأنّ أمر دينهم ما كان يستتب لهم بين ظهراني الكفرة فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ في المتكلم ، نحو : إياه ضربته ، في الغائب وإياك عضتك ، في المخاطب. والتقدير : فإياى فاعبدوا : فاعبدون. فإن قلت : ما معنى الفاء في فَاعْبُدُونِ وتقديم المفعول؟ قلت : الفاء جواب شرط محذوف ، لأنّ المعنى : إنّ أرضى واسعة فإن لم تخلصوا العبادة لي في أرض فأخلصوها لي في غيرها ، ثم حذف الشرط وعوّض من حذفه تقديم المفعول ، مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص.

[سورة العنكبوت (29) : آية 57]

كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ (57)

لما أمر عباده بالحرص على العبادة وصدق الاهتمام بها حتى يتطلبوا لها أوفق البلاد وإن شسعت «2» ، أتبعه قوله كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ أى واجدة مرارته وكربه كما يجد الذائق طعم المذوق. ومعناه : إنكم ميتون فواصلون إلى الجزاء ، ومن كانت هذه عاقبته لم يكن له بد من التزود لها والاستعداد بجهده.

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 58 إلى 59]

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (58) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (59)

لَنُبَوِّئَنَّهُمْ لننزلنهم مِنَ الْجَنَّةِ علالي. وقرئ : لنثوّينهم ، من الثواء وهو النزول للإقامة.

يقال : ثوى في المنزل ، وأثوى هو ، وأثوى غيره وثوى : غير متعد ، فإذا تعدى بزيادة همزة النقل لم يتجاوز مفعولا واحدا ،

(1). أخرجه الثعلبي من مرسل الحسن وقد تقدم في النساء.
(2). قوله «أوفق البلاد وإن شعست» أى بعدت. (ع)

نحو : ذهب ، وأذهبته. والوجه في تعديته إلى ضمير المؤمنين وإلى الغرف : إمّا إجراؤه مجرى لننزلنهم ونبوئنهم. أو حذف الجار وإيصال الفعل : أو تشبيه الظرف المؤقت «1» بالمبهم. وقرأ يحيى بن وثاب : فنعم ، بزيادة الفاء الَّذِينَ صَبَرُوا على مفارقة الأوطان والهجرة لأجل الدين. وعلى أذى المشركين ، وعلى المحن والمصائب ، وعلى الطاعات ، وعن المعاصي ، ولم يتوكلوا في جميع ذلك إلا على الله.

[سورة العنكبوت (29) : آية 60]

وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُها وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (60)

لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أسلم بمكة بالهجرة ، خافوا الفقر والضيعة ، فكان يقول الرجل منهم: كيف أقدم بلدة ليست لي فيها معيشة ، فنزلت. والدابة : كل نفس دبت على وجه الأرض ، عقلت أو لم تعقل. تَحْمِلُ رِزْقَهَا لا تطيق أن تحمله لضعفها عن حمله اللَّهُ يَرْزُقُها وَإِيَّاكُمْ أى لا يرزق تلك الدواب الضعاف إلا الله ، ولا يرزقكم أيضا أيها الأقوياء إلا هو وإن كنتم مطيقين لحمل أرزاقكم وكسبها ، لأنه لو لم يقدركم ولم يقدّر لكم أسباب الكسب ، لكنتم أعجز من الدواب التي لا تحمل ، وعن الحسن لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا لا تدّخره ، إنما تصبح فيرزقها الله. وعن ابن عيينة : ليس شيء يخبأ إلا الإنسان والنملة والفأرة.

وعن بعضهم : رأيت البلبل يحتكر في حضنيه. ويقال : للعقعق مخابئ إلا أنه ينساها وَهُوَ السَّمِيعُ لقولكم : نخشى الفقر والضيعة الْعَلِيمُ بما في ضمائركم.

[سورة العنكبوت (29) : آية 61]

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (61)

الضمير في سَأَلْتَهُمْ لأهل مكة فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ فكيف يصرفون عن توحيد الله وأن لا يشركوا به ، مع إقرارهم بأنه خالق السماوات والأرض.

[سورة العنكبوت (29) : آية 62]

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (62)

قدر الرزق وقتره بمعنى إذا ضيقه. فإن قلت : الذي رجع إليه الضمير في قوله وَيَقْدِرُ لَهُ هو من يشاء ، فكأن بسط الرزق وقدره جعلا لواحد. قلت : يحتمل الوجهين جميعا : أن يريد ويقدر لمن يشاء ، فوضع الضمير موضع من يشاء ، لأن لِمَنْ يَشاءُ مبهم غير معين ، فكان الضمير مبهما مثله ، وأن يريد تعاقب الأمرين على واحد على حسب المصلحة إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ يعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم.

(1). قوله «الظرف المؤقت» أى المحدد ، وهو الغرف. (ع)

[سورة العنكبوت (29) : آية 63]

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ(63)

استحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنه ممن أقر بنحو ما أقروا به ثم نفعه ذلك في توحيد الله ونفى الأنداد والشركاء عنه ، ولم يكن إقرارا عاطلا كاقرار المشركين ، وعلى أنهم أقروا بما هو حجة عليهم حيث نسبوا النعمة إلى الله وقد جعلوا العبادة للصنم ، ثم قال بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ما يقولون وما فيه من الدلالة على بطلان الشرك وصحة التوحيد. أو لا يعقلون ما تريد بقولك الحمد لله ، ولا يفطنون لم حمدت الله عند مقالتهم؟

[سورة العنكبوت (29) : آية 64]

وَما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (64)

هذِهِ فيها ازدراء للدنيا وتصغير لأمرها ، وكيف لا يصغرها وهي لا تزن عنده جناح بعوضة. يريد : ما هي - لسرعة زوالها عن أهلها وموتهم عنها - إلا كما يلعب الصبيان ساعة ثم يتفرقون وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ أى ليس فيها إلا حياة مستمرة دائمة خالدة لا موت «1» فيها ، فكأنها في ذاتها حياة. والحيوان : مصدر حي ، وقياسه حييان ، فقلبت الياء الثانية واوا ، كما قالوا : حيوة ، في اسم رجل ، وبه سمى ما فيه حياة : حيوانا. قالوا : اشتر من الموتان ، ولا تشتر من الحيوان «2». وفي بناء الحيوان زيادة معنى ليس في بناء الحياة ، وهي ما في بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب ، كالنزوان والنغصان واللهبان «3» ، وما أشبه ذلك. والحياة : حركة ، كما أن الموت سكون ، فمجيئه على بناء دال على معنى الحركة ، مبالغة في معنى الحياة ، ولذلك اختيرت على الحياة في هذا الموضع المقتضى للمبالغة لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ فلم يؤثروا الحياة الدنيا عليها.

(1). قال محمود : «إنما عدل عن الحياة إلى هذا البناء تنبيها على تعظيم حياة الآخرة ودوامها» قال أحمد : والذي يخص هذا البناء به إفادة ما لا يخلو من الحركة ، كالنزوان والجولان. والحيوان من ذلك ، والله أعلم.
(2). قوله «اشتر من الموتان ... الخ» الذي في الصحاح : اشتر الموتان ، ولا تشتر الحيوان. أى : اشتر الأرض والدور ، ولا تشتر الرقيق والدواب اه (ع)
(3). قوله «كالنزوان والنغضان واللهبان» في الصحاح «اللهبان» بالتحريك : اتقاد النار. (ع)

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 65 إلى 66]

فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ (65) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (66)

فإن قلت : بم اتصل قوله فَإِذا رَكِبُوا؟ قلت : بمحذوف دلّ عليه ما وصفهم به وشرح من أمرهم ، معناه : هم على ما وصفوا به من الشرك والعناد فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كائنين في صورة من يخلص الدين للّه من المؤمنين ، حيث لا يذكرون إلا اللّه ولا يدعون معه إلها آخر. وفي تسميتهم مخلصين : ضرب من التهكم فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ وآمنوا عادوا إلى حال الشرك : واللام في لِيَكْفُرُوا محتملة أن تكون لام كى ، وكذلك في وَلِيَتَمَتَّعُوا فيمن قرأها بالكسر. والمعنى : أنهم يعودون إلى شركهم ليكونوا - بالعود إلى شركهم - كافرين بنعمة النجاة ، قاصدين التمتع بها والتلذذ لا غير ، على خلاف ما هو عادة المؤمنين المخلصين على الحقيقة : إذا أنجاهم اللّه أن يشكروا نعمة اللّه في إنجائهم ، ويجعلوا نعمة النجاة ذريعة إلى ازدياد الطاعة ، لا إلى التمتع والتلذذ ، وأن تكون لام الأمر وقراءة من قرأ وليتمتعوا بالسكون تشهد له. ونحوه قوله تعالى اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. فإن قلت : كيف جاز أن يأمر اللّه تعالى بالكفر وبأن يعمل العصاة ما شاءوا ، وهو ناه عن ذلك ومتوعد عليه؟ قلت : هو مجاز عن الخذلان والتخلية ، وأن ذلك الأمر متسخط إلى غاية. ومثاله أن ترى الرجل قد عزم على أمر ، وعندك أنّ ذلك الأمر خطأ ، وأنه يؤدى إلى ضرر عظيم ، فتبالغ في نصحه واستنزاله عن رأيه ، فإذا لم تر منه إلا الإباء والتصميم ، حردت «1» عليه وقلت : أنت وشأنك وافعل ما شئت، فلا تريد بهذا حقيقة الأمر. وكيف والآمر بالشيء مريد له ، وأنت شديد الكراهة متحسر ، ولكنك كأنك تقول له : فإذ قد أبيت قبول النصيحة ، فأنت أهل ليقال لك : افعل ما شئت وتبعث عليه ، ليتبين لك - إذا فعلت - صحة رأى الناصح وفساد رأيك.

[سورة العنكبوت (29) : آية 67]

أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (67)

كانت العرب حول مكة يغزو بعضهم بعضا ، ويتغاورون ، ويتناهبون ، وأهل مكة قارّون آمنون فيها ، لا يغزون ولا يغار عليهم مع قلتهم وكثرة العرب ، فذكرهم اللّه هذه النعمة الخاصة عليهم ، ووبخهم بأنهم يؤمنون بالباطل الذي هم عليه ، ومثل هذه النعمة المكشوفة الظاهرة

(1). قوله «حردت عليه» أى غضبت. أفاده الصحاح. (ع)

وغيرها من النعم التي لا يقدر عليها إلا اللّه وحده مكفورة عندهم.

[سورة العنكبوت (29) : آية 68]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ (68)

افتراؤهم على اللّه كذبا : زعمهم أن للّه شريكا. وتكذيبهم بما جاءهم من الحق : كفرهم بالرسول والكتاب. وفي قوله لَمَّا جاءَهُ تسفيه لهم ، يعنى : لم يتلعثموا في تكذيبه وقت سمعوه ، ولم يفعلوا كما يفعل المراجيح العقول المثبتون في الأمور : يسمعون الخبر فيستعملون فيه الروية والفكر ، ويستأنون إلى أن يصح لهم صدقه أو كذبه أَلَيْسَ تقرير لثوائهم في جهنم ، كقوله :

ألستم خير من ركب المطايا «1»

قال بعضهم : ولو كان استفهاما ما أعطاه الخليفة مائة من الإبل. وحقيقته : أن الهمزة همزة الإنكار دخلت على النفي ، فرجع إلى معنى التقرير ، فهما وجهان ، أحدهما : ألا يثوون في جهنم ، وألا يستوجبون الثواء فيها ، وقد افتروا مثل هذا الكذب على اللّه ، وكذبوا بالحق هذا التكذيب والثاني : ألم يصح عندهم أن في جهنم مثوى للكافرين ، حتى اجترءوا مثل هذه الجرأة؟.

[سورة العنكبوت (29) : آية 69]

وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69)

أطلق المجاهدة ولم يقيدها بمفعول ، ليتناول كل ما يجب مجاهدته من النفس الأمّارة بالسوء والشيطان وأعداء الدين فِينا في حقنا ومن أجلنا ولوجهنا خالصا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا لنزيدنهم هداية إلى سبل الخير وتوفيقا ، كقوله تعالى وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وعن أبى سليمان الداراني : والذين جاهدوا فيما علموا لنهدينهم إلى ما لم يعلموا. وعن بعضهم : من عمل بما يعلم وفق لما لا يعلم. وقيل : إن الذي نرى من جهلنا بما لا نعلم ، إنما هو من تقصيرنا فيما نعلم لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ لناصرهم ومعينهم.

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قرأ سورة العنكبوت كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل المؤمنين والمنافقين «2»».

---

(1) ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

لجرير : في عبد الملك بن مروان. والاستفهام للإنكار ، يعنى : لا تنتفى زيادتكم في الفضل والكرم على جميع الناس ومن ركب المطايا : كناية عنهم ، لأن الركوب من خواصهم. والراح : اسم جمع واحده راحة ، وهي ما عدا الأصابع من الكف ، وذلك كناية عن الكرم ، لأن بها بذل المعروف في العادة. قيل : لما بلغ جرير هذا البيت في القصيدة ، كان عبد الملك متكئا فاستوى جالسا فرحا وقال هكذا مدحنا. وأعطاه مائة من الإبل.

(2). أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبى بن كعب.

سورة الروم

مكية ، إلا آية 17 فمدنية وآياتها 60 [نزلت بعد الانشقاق]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الروم (30) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (5)

القراءة المشهورة الكثيرة غُلِبَتِ بضم الغين. وسيغلبون بفتح الياء. والأرض : أرض العرب ، لأن الأرض المعهودة عند العرب أرضهم. والمعنى : غلبوا في أدنى أرض العرب منهم وهي أطراف الشام. أو أراد أرضهم، على إنابة اللام مناب المضاف إليه ، أى : في أدنى أرضهم إلى عدوّهم. قال مجاهد : هي أرض الجزيرة ، وهي أدنى أرض الروم إلى فارس. وعن ابن عباس رضى الله عنهما : الأردن وفلسطين. وقرئ : في أدانى الأرض. والبضع ما بين الثلاث إلى العشر عن الأصمعي. وقيل : احتربت الروم وفارس بين أذرعات وبصرى ، فغلبت فارس الروم ، فبلغ الخبر مكة فشق على النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين «1» ، لأن فارس مجوس لا كتاب لهم والروم أهل الكتاب ، وفرح المشركون وشمتوا وقالوا : أنتم والنصارى أهل الكتاب، ونحن وفارس أميون ، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم ، ولنظهرنّ نحن عليكم ، فنزلت. فقال لهم

(1). أخرجه سنيد بن أبى داود في تفسيره : حدثني حجاج هو ابن محمد الأعور عن أبى بكر بن عبد الله عن عكرمة قال «كانت في فارس امرأة لا تلد إلا الأبطال فدعاها كسرى فقال إنى أريد أن أبعث إلى الروم جيشا وأستعمل عليهم رجلا من بنيك فأشيرى علىّ : أيهم أستعمل؟ فأشارت عليه بولد لها يدعي شهرابرز. فاستعمله. قال أبو بكر بن عبد الله فحدثت هذا الحديث عطاء الخراساني فقال حدثني يحيى بن يعمر أن قيصر بعث رجلا يدعى قطمة بجيش من الروم فالتقيا بأذرعات وبصرى فغلبتهم فارس فذكر القصة قلت ولها طرق جمعتها في أول شرحي الكبير على البخاري ، وقصة أبى بكر في المراهنة رواها الترمذي وغيره من حديث نيار بن مكرم الأسلمي وسياقها مخالف لسياق هذه القصة.

أبو بكر رضى الله عنه : لا يقرّر الله أعينكم ، فو الله لتظهرنّ الروم على فارس بعد بضع سنين فقال له أبى بن خلف. كذبت يا أبا فصيل ، اجعل بيننا أجلا أنا حبك عليه. والمناحبة : المراهنة فناحبه على عشر قلائص من كل واحد منهما ، وجعلا الأجل ثلاث سنين ، فأخبر أبو بكر رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: البضع ما بين الثلاث إلى التسع ، فزايده في الخطر وماده في الأجل. فجعلاها مائة قلوص إلى تسع سنين. ومات أبىّ من جرح رسول الله ، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية ، وذلك عند رأس سبع سنين. وقيل : كان النصر يوم بدر للفريقين ، فأخذ أبو بكر الخطر من ذرية أبى ، وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : تصدّق به. وهذه الآية من الآيات البينة الشاهدة على صحة النبوّة ، وأن القرآن من عند الله لأنها إنباء عن علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله. وقرئ : غلبهم ، بسكون اللام. والغلب والغلب.

مصدران كالجلب والجلب ، والحلب والحلب. وقرئ : غلبت الروم ، بالفتح. وسيغلبون ، بالضم. ومعناه أن الروم غلبوا على ريف الشام وسيغلبهم المسلمون في بضع سنين. وعند انقضاء هذه المدّة أخذ المسلمون في جهاد الروم ، وإضافة غلبهم تختلف باختلاف القراءتين ، فهي في إحداهما إضافة المصدر إلى المفعول. وفي الثانية إضافته إلى الفاعل. ومثالهما مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْراجُهُمْ ، وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ. فإن قلت : كيف صحت المناحبة وإنما هي قمار؟ قلت : عن قتادة رحمه الله أنه كان ذلك قبل تحريم القمار. ومن مذهب أبى حنيفة ومحمد : أن العقود الفاسدة من عقود الربا وغيرها جائزة في دار الحرب بين المسلمين والكفار. وقد احتجا على صحة ذلك بما عقده أبو بكر بينه وبين أبىّ بن خلف مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ أى في أوّل الوقتين وفي آخرهما حين غلبوا وحين يغلبون ، كأنه قيل : من قبل كونهم غالبين ، وهو وقت كونهم مغلوبين. ومن بعد كونهم مغلوبين ، وهو وقت كونهم غالبين ، يعنى أن كونهم مغلوبين أوّلا وغالبين آخرا ليس إلا بأمر الله وقضائه وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ وقرئ : من قبل ومن بعد ، على الجرّ من غير تقدير مضاف إليه واقتطاعه. كأنه قيل : قبلا وبعدا ، بمعنى أوّلا وآخرا وَيَوْمَئِذٍ ويوم تغلب الروم على فارس ويحل ما وعده الله عزّ وجل من غلبتهم يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ وتغليبه من له كتاب على من لا كتاب له. وغيظ من شمت بهم من كفار مكة. وقيل :

نصر الله : هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين من غلبة الروم وقيل نصر الله. أنه ولى بعض الظالمين بعضا وفرق بين كلمهم ، حتى تفانوا وتناقصوا ، وفل «1» هؤلاء شوكة هؤلاء وفي ذلك قوّة للإسلام. وعن أبى سعيد الخدري : وافق ذلك يوم بدر ، وفي هذا اليوم نصر المؤمنون وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ينصر عليكم تارة وينصركم أخرى.

(1). قوله «و قل هؤلاء شوكة هؤلاء» أى كسرها. أفاده الصحاح. (ع) [.....]

[سورة الروم (30) : الآيات 6 إلى 7]

وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ (7)

وَعْدَ اللَّهِ مصدر مؤكد ، كقولك : لك علىّ ألف درهم عرفا ، لأنّ معناه : أعترف لك بها اعترافا ، ووعد الله ذلك وعدا ، لأنّ ما سبقه في معنى وعد. ذمّهم الله عزّ وجل بأنهم عقلاء في أمور الدنيا ، بله في أمر الدين ، وذلك أنهم كانوا أصحاب تجارات ومكاسب. وعن الحسن.

بلغ من حذق أحدهم أنه يأخذ الدرهم فينقره بإصبعه ، فيعلم أرديء هو أم جيد. وقوله يَعْلَمُونَ بدل من قوله لا يَعْلَمُونَ وفي هذا الإبدال من النكتة أنه أبدله منه ، وجعله بحيث يقوم مقامه ويسدّ مسدّه ، ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل ، وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا. وقوله ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا يفيد أن للدنيا ظاهرا وباطنا ، فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها والتنعم «1» بملاذها. وباطنها وحقيقتها أنها مجاز إلى الآخرة : يتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة. وفي تنكير الظاهر : أنهم لا يعلمون إلا ظاهرا واحدا من جملة الظواهر. و«هم» الثانية يجوز أن يكون مبتدأ. وغافِلُونَ خبره ، والجملة خبر «هم» الأولى ، وأن يكون تكريرا للأولى ، وغافلون خبر الأولى. وأية كانت فذكرها مناد على أنهم معدن الغفلة عن الآخرة ومقرّها ومعلمها ، وأنها منهم تنبع وإليهم ترجع.

[سورة الروم (30) : آية 8]

أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ (8)

فِي أَنْفُسِهِمْ يحتمل أن يكون ظرفا ، كأنه قيل : أو لم يحدثوا التفكر في أنفسهم ، أى : في قلوبهم الفارغة من الفكر ، والتفكر لا يكون إلا في القلوب ، ولكنه زيادة تصوير لحال المتفكرين ، كقولك : اعتقده في قلبك وأضمره في نفسك ، وأن يكون صلة للتفكر ، كقولك : تفكر في الأمر وأجال فيه فكره. وما خَلَقَ متعلق بالقول المحذوف ، معناه : أو لم يتفكروا فيقولوا هذا القول. وقيل : معناه : فيعلموا ، لأنّ في الكلام دليلا عليه إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى أى ما خلقها باطلا وعبثا بغير غرض صحيح وحكمة بالغة ،

(1). قال محمود : «يعلمون بدل من الأول ، وفي البدل نكتة وهي الاشعار بأنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل وبين العلم بظاهر الدنيا ، حتى كأنهما شيء واحد ، فأبدل أحدهما من الآخر. وفائدة تنكير الظاهر أنهم لا يعلمون إلا ظاهرا واحدا من جملة ظواهرها» قال أحمد : وفي التنكير تقليل لمعلومهم وتقليله يقربه من النفي حتى يطابق المبدل منه. وروى عن الحسن أنه قال في تلاوته هذه الآية : بلغ من صدق أحدهم في ظاهر الحياة الدنيا أنه ينقر الدينار بإصبعه فيعلم أجيد هو أم ردى.

ولا لتبقى خالدة : وإنما خلقها مقرونة بالحق مصحوبة بالحكمة ، وبتقدير أجل مسمى لا بد لها من أن تنتهي إليه ، وهو قيام الساعة ووقت الحساب والثواب والعقاب. ألا ترى إلى قوله تعالى أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ كيف سمى تركهم غير راجعين إليه عبثا. والباء في قوله إِلَّا بِالْحَقِّ مثلها في قولك : دخلت عليه بثياب السفر ، واشترى الفرس بسرجه ولجامه ، تريد : اشتراه وهو ملتبس بالسرج واللجام ، غير منفك عنهما. وكذلك المعنى ما خلقها إلا وهي ملتبسة بالحق مقترنة به ، فإن قلت : إذا جعلت فِي أَنْفُسِهِمْ صلة للتفكر ، فما معناه؟ قلت : معناه : أو لم يتفكروا في أنفسهم التي هي أقرب إليهم من غيرها من المخلوقات ، وهم أعلم وأخبر بأحوالها منهم بأحوال ما عداها ، فتدبروا ما أودعها الله ظاهرا وباطنا من غرائب الحكم الدالة على التدبير دون الإهمال وأنه لا بد لها من انتهاء إلى وقت يجازيها فيه الحكم الذي دبر أمرها على الإحسان إحسانا وعلى الإساءة مثلها ، حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق كذلك أمرها جار على الحكمة والتدبير وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى ذلك الوقت ، والمراد بلقاء ربهم : الأجل المسمى.

[سورة الروم (30) : آية 9]

أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (9)

أَوَ لَمْ يَسِيرُوا تقرير لسيرهم في البلاد ونظرهم إلى آثار المدمّرين من عاد وثمود وغيرهم من الأمم العاتية ، ثم أخذ يصف لهم أحوالهم وأنهم كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثارُوا الْأَرْضَ وحرثوها قال الله تعالى لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وقيل لبقر الحرث : المثيرة. وقالوا : سمى ثورا لإثارته الأرض وبقرة ، لأنها تبقرها أى تشقها وَعَمَرُوها يعنى أولئك المدمّرون أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها من عمارة أهل مكة. وأهل مكة : أهل واد غير ذى زرع ، ما لهم إثارة الأرض أصلا ، ولا عمارة لها رأسا فما هو إلا تهكم بهم ، وبضعف حالهم في دنياهم ، لأنّ معظم ما يستظهر به أهل الدنيا ويتباهون به أمر الدهقنة «1» ، وهم أيضا ضعاف القوى ، فقوله كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً أى عاد وثمود وأضرابهم من هذا القبيل ، كقوله أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وإن كان هذا أبلغ ، لأنه خالق القوى والقدر. فما كان تدميره إياهم ظلما لهم ، لأنّ حاله منافية للظلم ، ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث عملوا ما أوجب تدميرهم.

(1). قوله «أمر الدهقنة» أي الزراعة (ع)

[سورة الروم (30) : آية 10]

ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَكانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ (10)

قرئ عاقبة بالنصب والرفع. والسُّواى تأنيث الأسوأ وهو الأقبح ، كما أنّ الحسنى تأنيث الأحسن. والمعنى : أنهم عوقبوا في الدنيا بالدمار ، ثم كانت عاقبتهم سوأى إلا أنه وضع المظهر موضع المضمر ، أى : العقوبة التي هي أسوأ العقوبات في الآخرة ، وهي جهنم التي أعدّت للكافرين. وأَنْ كَذَّبُوا بمعنى لأن كذبوا. ويجوز أن يكون أن بمعنى : أى ، لأنه إذا كان تفسير الإساءة التكذيب والاستهزاء كانت في معنى القول ، نحو : نادى. وكتب ، وما أشبه ذلك. ووجه آخر : وهو أن يكون أَساؤُا السُّواى بمعنى اقترفوا الخطيئة التي هي أسوأ الخطايا ، وأَنْ كَذَّبُوا عطف بيان لها ، وخبر كان محذوف كما يحذف جواب لما ولو ، إرادة الإبهام.

[سورة الروم (30) : آية 11]

اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (11)

ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أى إلى ثوابه وعقابه. وقرئ بالتاء والياء.

[سورة الروم (30) : الآيات 12 إلى 13]

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (12) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكائِهِمْ شُفَعاءُ وَكانُوا بِشُرَكائِهِمْ كافِرِينَ (13)

الإبلاس : أى يبقى بائسا ساكنا متحيرا. يقال : ناظرته فأبلس ، إذا لم ينبس «1» وييس من أن يحتجّ. ومنه الناقة المبلاس : التي لا ترغو. وقرئ : يبلس ، بفتح اللام ، من أبلسه إذا أسكته مِنْ شُرَكائِهِمْ من الذين عبدوهم من دون الله وَكانُوا بِشُرَكائِهِمْ كافِرِينَ أى يكفرون بإلهيتهم ويجحدونها. أو وكانوا في الدنيا كافرين بسببهم. وكتب «شفعواء» في المصحف بواو قبل الألف ، كما كتب «علمؤا بنى إسرائيل» وكذلك كتبت «السوأى» بألف قبل الياء إثباتا للهمزة على صورة الحرف الذي منه حركتها.

[سورة الروم (30) : الآيات 14 إلى 16]

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (14) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (15) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقاءِ الْآخِرَةِ فَأُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ (16)

(1). قوله «إذا لم ينبس» أى لم يتكلم. أفاده الصحاح. (ع)

الضمير في يَتَفَرَّقُونَ للمسلمين والكافرين ، لدلالة ما بعده عليه. وعن الحسن رضى الله عنه : هو تفرّق المسلمين والكافرين : هؤلاء في عليين ، وهؤلاء في أسفل السافلين - وعن قتادة رضى الله عنه : فرقة لا اجتماع بعدها فِي رَوْضَةٍ في بستان ، وهي الجنة. والتنكير لإبهام أمرها وتفخيمه. والروضة عند العرب : كل أرض ذات نبات وماء. وفي أمثالهم : أحسن من بيضة في روضة ، يريدون : بيضة النعامة يُحْبَرُونَ يسرون. يقال : حبره إذا سرّه سرورا تهلل له وجهه وظهر فيه أثره. ثم اختلفت فيه الأقاويل لاحتماله وجوه جميع المسارّ، فعن مجاهد رضى الله عنه : يكرمون. وعن قتادة : ينعمون. وعن ابن كيسان : يحلون. وعن أبى بكر بن عياش : التيجان على رءوسهم. وعن وكيع : السماع في الجنة. وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم : أنه ذكر الجنة وما فيها من النعيم «1» ، وفي آخر القوم أعرابىّ فقال : يا رسول الله ، هل في الجنة من سماع؟

قال : «نعم يا أعرابى ، إنّ في الجنة لنهرا حافتاه الأبكار من كل بيضاء خوصانية ، يتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها قط ، فذلك أفضل نعيم الجنة» قال الراوي : فسألت أبا الدرداء ، بم يتغنين؟ قال : بالتسبيح. وروى «إنّ في الجنة لأشجارا عليها أجراس من فضة» فإذا أراد أهل الجنة السماع بعث الله ريحا من تحت العرش فتقع في تلك الأشجار ، فتحرّك تلك الأجراس بأصوات لو سمعها أهل الدنيا لماتوا طربا «2»» مُحْضَرُونَ لا يغيبون عنه ولا يخفف عنهم ، كقوله : وَما هُمْ بِخارِجِينَ مِنْها ، لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ.

[سورة الروم (30) : الآيات 17 إلى 19]

فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (18) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ (19)

لما ذكر الوعد والوعيد ، أتبعه ذكر ما يوصل إلى الوعد وينجى من الوعيد. والمراد بالتسبيح ظاهره الذي هو تنزيه الله من السوء والثناء عليه بالخير في هذه الأوقات لما يتجدّد فيها من نعمة الله الظاهرة. وقيل : الصلاة. وقيل لابن عباس رضى الله عنهما : هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال : نعم ، وتلا هذه الآية تُمْسُونَ صلاتا المغرب والعشاء تُصْبِحُونَ صلاة الفجر وَعَشِيًّا صلاة العصر.

(1). في طريق سليمان بن عطاء عن مسلمة بن عبد الله الجنبي عن عمه أبى مشجعة عن أبى الدرداء قال «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الناس فذكر الجنة وما فيها ... الحديث» وسليمان منكر الحديث.

(2). أخرجه الثعلبي من رواية عبد الله بن عرادة الشيباني أحد الضعفاء عن القاسم بن مطيب عن مغيرة عن إبراهيم بهذا. وروى إسحاق في مسنده من رواية مجاهد قيل لأبى هريرة «هل في الجنة من سماع؟ قال نعم شجرة أصلها من ذهب وأغصانها من الفضة وثمرها الياقوت والزبرجد يبعث لها ريح فيحرك بعضها بعضا. فما سمع شيء قط أحسن منه».

وتُظْهِرُونَ صلاة الظهر. وقوله وَعَشِيًّا متصل بقوله حِينَ تُمْسُونَ وقوله وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ اعتراض بينهما. ومعناه : إنّ على المميزين كلهم من أهل السماوات والأرض أن يحمدوه. فإن قلت : لم ذهب الحسن رحمه الله إلى أنّ هذه الآية مدنية؟ قلت : لأنه كان يقول : فرضت الصلوات الخمس بالمدينة وكان الواجب بمكة ركعتين في غير وقت معلوم. والقول الأكثر أنّ الخمس إنما فرضت بمكة. وعن عائشة رضى الله عنها : فرضت الصلاة ركعتين «1» فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أقرّت صلاة السفر ، وزيد في صلاة الحضر. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم «من سره أن يكال له بالقفيز الأوفى فليقل : فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ... الآية «2»» وعنه عليه السلام «من قال حين يصبح فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ - إلى قوله - وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ أدرك ما فاته في يومه. ومن قالها حين يمسى أدرك ما فاته في ليلته «3»» وفي قراءة عكرمة : حينا تمسون وحينا تصبحون. والمعنى : تمسون فيه وتصبحون فيه ، كقوله يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً بمعنى فيه الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ الطائر من البيضة ، والْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ البيضة من الطائر. وإحياء الأرض : إخراج النبات منها وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ ومثل ذلك الإخراج تخرجون من القبور وتبعثون. والمعنى : أنّ الإبداء والإعادة متساويان في قدرة من هو قادر على الطرد والعكس من إخراج الميت من الحىّ وإخراج الحي من الميت وإحياء الميت وإماتة الحي. وقرئ : الميت ، بالتشديد «4». وتخرجون ، بفتح التاء.

[سورة الروم (30) : الآيات 20 إلى 21]

وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20) وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21)

خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ لأنه خلق أصلهم منه. وإذا للمفاجأة. وتقديره : ثم فاجأتم وقت كونكم بشرا منتشرين في الأرض، كقوله وَبَثَّ مِنْهُما رِجالًا كَثِيراً وَنِساءً. مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لأن حوّاء خلقت من ضلع آدم عليه السلام ، والنساء بعدها خلقن من أصلاب الرجال. أو من شكل أنفسكم وجنسها ، لا من جنس آخر ، وذلك لما بين الاثنين من جنس واحد من الألف والسكون ،

(1). متفق عليه من حديث عائشة واللفظ لأحمد وسياقه أتم
(2). أخرجه الثعلبي من حديث أنس وفي إسناده بشر بن الحسين وهو ساقط.
(3). أخرجه أبو داود والعقيلي وابن عدى من حديث ابن عباس. وإسناده ضعيف. وقال البخاري : لا يصح.
(4). قوله «و قرئ الميت بالتشديد» يفيد أن القراءة المشهورة بالتخفيف. (ع)

وما بين الجنسين المختلفين من التنافر وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ التوادّ والتراحم بعصمة الزواج ، بعد أن لم تكن بينكم سابقة معرفة ، ولا لقاء ، ولا سبب يوجب التعاطف من قرابة أو رحم وعن الحسن رضى الله عنه : المودة كناية عن الجماع ، والرحمة عن الولد ، كما قال وَرَحْمَةً مِنَّا وقال : ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ. ويقال : سكن إليه ، إذا مال إليه ، كقولهم : انقطع إليه ، واطمأن إليه - ومنه السكن. وهو الإلف المسكون إليه. فعل بمعنى مفعول. وقيل : إن المودة والرحمة من قبل الله وإن الفرك من قبل الشيطان «1».

[سورة الروم (30) : آية 22]

وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوانِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ (22)

الألسنة : اللغات. أو أجناس النطق وأشكاله. خالف عزّ وعلا بين هذه الأشياء حتى لا تكاد تسمع منطقين متفقين في همس واحد ، ولا جهارة ، ولا حدّة ، ولا رخاوة ، ولا فصاحة ، ولا لكنة ، ولا نظم ، ولا أسلوب ، ولا غير ذلك من صفات النطق وأحواله ، وكذلك الصور وتخطيطها ، والألوان وتنويعها ، ولاختلاف ذلك وقع التعارف ، وإلا فلو اتفقت وتشاكلت وكانت ضربا واحدا لوقع التجاهل والالتباس ، ولتعطلت مصالح كثيرة ، وربما رأيت توأمين يشتبهان في الحلية ، فيعروك الخطأ في التمييز بينهما ، وتعرف حكمة الله في المخالفة بين الحلىّ وفي ذلك آية بينة حيث ولدوا من أب واحد ، وفرّعوا من أصل فذ ، وهم على الكثرة التي لا يعلمها إلا الله مختلفون متفاوتون. وقرئ : للعالمين بفتح اللام وكسرها ، ويشهد للكسر قوله تعالى وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ.

[سورة الروم (30) : آية 23]

وَمِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (23)

هذا من باب اللفّ وترتيبه : ومن آياته منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار ، إلا أنه فصل بين القرينين الأوّلين بالقرينين الآخرين. لأنهما زمانان. والزمان والواقع فيه كشيء واحد ، مع إعانة اللفّ على الاتحاد. ويجوز أن يراد : منامكم في الزمانين ، وابتغاءكم فيهما ، والظاهر هو الأول لتكرّره في القرآن ، وأسدّ المعاني ما دل عليه القرآن يسمعونه بالآذان الواعية.

(1). قوله «و إن الفرك من قبل الشيطان» في الصحاح «الفرك» بالكسر : البغض. (ع)

[سورة الروم (30) : آية 24]

وَمِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (24)

في يُرِيكُمُ وجهان : إضماران ، وإنزال الفعل منزلة المصدر ، وبهما فسر المثل : تسمع بالمعيدي خير من أن تراه. وقول القائل : وقالوا ما تشاء فقلت ألهو إلى الإصباح آثر ذى أثير «1»

خَوْفاً من الصاعقة أو من الإخلاف وَطَمَعاً في الغيث. وقيل : خوفا للمسافر ، وطمعا للحاضر ، وهما منصوبان على المفعول له. فإن قلت : من حق المفعول له أن يكون فعلا لفاعل الفعل المعلل ، والخوف والطمع ليسا كذلك. قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن المفعولين فاعلون في المعنى ، لأنهم راءون ، فكأنه قيل : يجعلكم رائين

(1) أرقت وصحبتي بمضيق عمق لبرق من تهامة مستطير
سقونى الخمر ثم تكنفوني عداة الله من كذب وزور
وقالوا ما تشاء فقلت ألهو إلى الإصباح آثر ذى أثير
لعروة بن الورد العبسي ، وأرقت : سهرت. والواو للمعية. والمضيق المكان الضيق. وعمق - بكسر فسكون - : شجر ببلاد الحجاز ، وبضم ففتح : موضع منخفض عند مكة ، ولعله سكن هنا للوزن ، ولبرق : متعلق بأرقت ، أى سهرت في هذا الموضع لأجل برق من تهامة جهة محبوبتى ، ويحتمل أن الواو حالية ، وصحبتي مبتدأ خبره بمضيق عمق ، وإذا كان أصحابه فيه فهو فيه ، فرجع إلى الأول ، ومستطير : منتشر. وروى : سقونى النسيء. ونسأت اللبن : خلطته بماء ، فالنسيء : هو اللبن المخلوط بماء ، وتكنفوني : أحاطوا بى ، وعداة : جمع عاد بمعنى عدو.
وقيل : جمع عدو ، أى : هم أعداء الله من أجل كذبهم وزورهم ، وهي جملة اعتراضية ، ويحتمل أن «عداة» بدل من ضمير الفاعل. أو فاعل على لغة من قال : أكلونى البراغيث ، أى : أحاطوا بى وقالوا : ما الذي تريده ، فقلت : ألهو ، أى : هو أن ألهو ، فأن : مقدرة معنى ، وإن لم ينصب الفعل لفظا. وقال الجوهري : يقال افعل هذا آثر ذى أثير ، أى : أول كل شيء ، فأشار إلى أن آثر : نصب على الظرفية المجازية أو الحالية ، أى افعله حال كونه أول كل شيء يؤثر ، فهو أفعل تفضيل بمعنى المفعول ، ونص ابن الحاجب على جواز ذلك وروده قليلا ، وأثره بقصر الهمزة ومدها : إذا قدمه على غيره ، وأثير : اسم مفعول بمعنى مأثور. أو حقيق بالتقدم ، فالمعنى : أول كل شيء صاحب شيء مأثور ، فيكون هو الأثير المقدم. أو التقدير : لهوى طول الليل هو المقدم عندي.
(2). قال محمود : فان قلت : أينصب خوفا وطمعا مفعولا لهما وليسا فعلى فاعل الفعل المعلل ، فما وجه ذلك؟ قلت : المفعولون هنا فاعلون لأنهم راءون ، فتقديره : يجعلكم رائين البرق خوفا وطمعا. أو على حذف مضاف ، تقديره : إرادة خوفكم وطمعكم» قال أحمد : الخوف والطمع من جملة مخلوقات الله تعالى وآثار قدرته ، وحينئذ يلزم اجتماع شرائط النصب فيهما وهي كونهما مصدرين ومقارنين في الوجود ، والفاعل الخالق واحد ، فلا بد من التنبيه على تخريج النصب على غير هذا الوجه ، فنقول : معنى قول النحاة في المفعول له لا بد وأن يكون فعل الفاعل ، أى : ولا بد أن يكون الفاعل متصفا به ، مثاله إذا قلت : جئتك إكراما لك ، فقد وصفت نفسك بالإكرام فقلت في المعنى : جئتك مكرما لك ، والله تعالى - وإن خلق الخوف والطمع لعباده - إلا أنه مقدس عن الاتصاف بهما ، فمن ثم احتيج إلى تأويل النصب على المذهبين جميعا. والله أعلم.

ويجوز أن يكونا حالين ، أى : خائفين وطامعين. وقرئ : ينزل بالتشديد «1».

[سورة الروم (30) : الآيات 25 إلى 26]

وَمِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (25) وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ (26)

وَمِنْ آياتِهِ قيام السماوات والأرض واستمساكهما بغير عمد بِأَمْرِهِ أى بقوله : كونا قائمتين. والمراد بإقامته لهما : إرادته لكونهما على صفة القيام دون الزوال. وقوله إِذا دَعاكُمْ بمنزلة قوله : يريكم ، في إيقاع الجملة موقع المفرد على المعنى ، كأنه قال : ومن آياته قيام السماوات والأرض ، ثم خروج الموتى من القبور إذا دعاهم دعوة واحدة : يا أهل القبور اخرجوا.

والمراد سرعة وجود ذلك من غير توقف ولا تلبث ، كما يجيب الداعي المطاع مدعوّه ، كما قال القائل : دعوت كليبا دعوة فكأنّما دعوت به ابن الطّود أو هو أسرع «2»

يريد بابن الطود : الصدى ، أو الحجر إذا تدهدى ، وإنما عطف هذا على قيام السماوات والأرض بثم ، بيانا لعظم ما يكون من ذلك الأمر واقتداره على مثله ، وهو أن يقول : يا أهل القبور ، قوموا ، فلا تبقى نسمة من الأوّلين والآخرين إلا قامت تنظر» كما قال تعالى ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ. قولك : دعوته من مكان كذا ، كما يجوز أن يكون مكانك يجوز أن يكون مكان صاحبك ، تقول : دعوت زيدا من أعلى الجبل فنزل علىّ ، ودعوته من أسفل

(1). قوله «و قرئ ينزل بالتشديد» يفيد أن المشهور بالتخفيف. (ع)
(2). يقول : دعوت كليبا. ويروى : خليدا ، دعوة واحدة فأجابني بسرعة كأنى دعوت به ابن الطود : وهو الجبل العظيم ، وابنه الصدى : الذي يحاكى صوت الصائح عقب صياحه. أو : الحجر إذا هوى منه متدحرجا متدحرجا إلى أسفل. وسمى ابنه على سبيل الاستعارة التصريحية ، لأنه ناشئ منه وملازم له ، ثم إن فيه تجريدا حيث انتزع من كليب أمرا آخر يشبه ابن الطود في السرعة ، والباء للملابسة ، أى كأنى دعوت ابن الطود ملابسا له. ويحتمل أنها للبدل ، أى : دعوت بدله ابن الطود. أو بمعنى من ، أى : دعوت منه ابن الطود. وقوله : أو هو ، أى : كليب أسرع من ابن الطود في الاجابة. [.....]

الوادي فطلع إليّ. فإن قلت : بم تعلق مِنَ الْأَرْضِ أبالفعل أم بالمصدر؟ قلت : هيهات ، إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل. فإن قلت : ما الفرق بين إذا وإذا؟ قلت : الأولى للشرط ، والثانية للمفاجأة ، وهي تنوب مناب الفاء في جواب الشرط. وقرئ : تخرجون ، بضم التاء وفتحها قانِتُونَ منقادون لوجود أفعاله فيهم لا يمتنعون عليه.

[سورة الروم (30) : آية 27]

وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(27)

وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ فيما يجب عندكم وينقاس على أصولكم ويقتضيه معقولكم ، لأنّ من أعاد منكم صنعة شيء كانت أسهل عليه وأهون من إنشائها ، وتعتذرون للصانع إذا خطئ في بعض ما ينشئه بقولكم : أوّل الغزو أخرق ، وتسمون الماهر في صناعته معاودا ، تعنون أنه عاودها كرّة بعد أخرى ، حتى مرن عليها وهانت عليه. فإن قلت : لم ذكر الضمير في قوله وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ والمراد به الإعادة؟ قلت : معناه : وأن يعيده أهون عليه. فإن قلت : لم أخرت الصلة في قوله وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وقدّمت في قوله هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ «1»؟ قلت : هناك قصد الاختصاص وهو محزه ، فقيل : هو عليّ هين ، وإن كان مستصعبا عندكم أن يولد بين هم «2» وعاقر ، وأما هاهنا فلا معنى للاختصاص ، كيف والأمر مبنى على ما يعقلون من أنّ الإعادة أسهل من الابتداء ، فلو قدمت الصلة لتغير المعنى. فإن قلت : ما بال الإعادة استعظمت في قوله ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ حتى كأنها فضلت على قيام السماوات والأرض بأمره «3» ، ثم هوّنت بعد ذلك؟ قلت :

---

(1). قال محمود : «إن قلت : لم أخرت الصلة هاهنا وقد قدمت في قوله تعالى هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ؟ قلت : لأن المقصود مما نحن فيه خلاف المقصد هناك ، فانه اختصاص الله تعالى بالقدرة على إيلاد الهم والعاقر ، وأما المقصد هنا فلا معنى للاختصاص فيه ، كيف والأمر مبنى على ما يعتقدونه في الشاهد من أن الاعادة أسهل من الابتداء ، فالاختصاص بغير المعنى» قال أحمد : كلام نفيس يستحق أن يكتب بذوب التبر لا بالحبر ، وإنما يلقى الاختصاص من تقديم ما حقه أن يؤخر ، وقد علمت مذهبه في مثل ذلك.

(2). قوله «أن يولد بين همّ وعاقر» في الصحاح «الهم» بالكسر. الشيخ الفاني. (ع)

(3). قال محمود : «إن قلت : ما بال الاعادة استعظمت في قوله ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ حتى كأنها فضلت على قيام السماوات والأرض؟ قلت : الاعادة في نفسها عظيمة ، ولكنها هونت بالنسبة إلى الإنشاء» قال أحمد : إنما يلقى في السؤال تعظيم الاعادة من عطفها بثم ، إيذانا بتغاير مرتبتها وعلو شأنها. وقوله في الجواب : إنها هونت بالنسبة إلى الإنشاء لا يخلص ، فان الاعادة ذكرت هاهنا عقيب قيام السماوات والأرض بأمره. وقيامهما ابتداء وإنشاء أعظم من الاعادة ، فيلزم تعظيم الاعادة بالنسبة إلى ما عطف عليه عن الإنشاء ويعود الاشكال ، والمخلص - والله أعلم - جعل ثم على بابها لتراخى الزمان لا لتراخي المراتب ، فعلى أن تكون مرتبة المعطوف عليه العليا ، ومرتبة المعطوف هي الدنيا. وذلك نادر في مجيئها لتراخى المراتب ، فان المعطوف حينئذ في أكثر المواضع أرفع درجة من المعطوف عليه ، والله أعلم.

الإعادة في نفسها عظيمة ، ولكنها هوّنت بالقياس إلى الإنشاء. وقيل الضمير في عليه للخلق.

ومعناه : أنّ البعث أهون على الخلق من الإنشاء ، لأن تكوينه في حدّ الاستحكام ، والتمام أهون عليه وأقل تعبا وكبدا ، من أن يتنقل في أحوال ويندرج فيها إلى أن يبلغ ذلك الحدّ. وقيل : الأهون بمعنى الهين. ووجه آخر : وهو أن الإنشاء من قبيل التفضل الذي يتخير فيه الفاعل بين أن يفعله وأن لا يفعله ، والإعادة من قبيل الواجب الذي لا بدّ له من فعله ، لأنها لجزاء الأعمال وجزاؤها واجب «1» ، والأفعال : إما محال والمحال ممتنع أصلا «2» خارج عن المقدور ، وأما ما يصرف الحكيم عن فعله صارف وهو القبيح ، وهو رديف المحال ، لأنّ الصارف يمنع وجود الفعل كما تمنعه الإحالة. وإما تفضل والتفضل حالة بين بين ، للفاعل أن يفعله وأن لا يفعله. وإما واجب لا بدّ من فعله ، ولا سبيل إلى الإخلال به ، فكان الواجب أبعد الأفعال من الامتناع وأقربها من الحصول. فلما كانت الإعادة من قبيل الواجب ، كانت أبعد الأفعال من الامتناع.

وإذا كانت أبعدها من الامتناع ، كانت أدخلها في التأنى والتسهل ، فكانت أهون منها «3». وإذا كانت أهون منها كانت أهون من الإنشاء وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى أى الوصف الأعلى الذي ليس لغيره مثله قد عرف به. ووصف في السماوات والأرض على ألسنة الخلائق وألسنة الدلائل ، وهو أنه القادر الذي لا يعجز عن شيء من إنشاء وإعادة وغيرهما من المقدورات ، ويدل عليه قوله تعالى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أى القاهر لكل مقدور ، الحكيم الذي يجرى كل فعل على قضايا حكمته وعلمه. وعن مجاهد : المثل الأعلى : قول لا إله إلا الله ، ومعناه : وله الوصف الأعلى الذي هو الوصف بالوحدانية. ويعضده قوله تعالى ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ وقال الزجاج : وله المثل الأعلى في السماوات والأرض ، أى : قوله تعالى وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ قد ضربه لكم مثلا فيما يصعب ويسهل. يريد : التفسير الأوّل.

(1). قوله «و جزاؤها واجب ... الخ» هذا عند المعتزلة ، ولا يجب على الله شيء عند أهل السنة كما تقدم في محله. (ع)
(2). عاد كلامه : قال في تقرير معنى قوله وهو أهون عليه : الأفعال إما ممتنع عقلا لذاته ، وإما ممتنع لصارف يصرف الحكيم عن فعله. وإما تفضل يتخير الحكيم فيه بين أن يفعل وأن لا. وإما واجب على الحكيم أن يفعله فالانشاء الأول من قبيل التفضل ، وأما الاعادة فواجبة على الله تعالى لأجل الجزاء ، فلما كانت واجبة كانت أبعد الأفعال عن الممتنع ، فلذلك وصفت بالتسهيل وكانت أهون من الإنشاء» قال أحمد : لقد ضل وصد عن السبيل ، فلا نوافقه ولا ترافقه ، والحق : أن لا واجب على الله تعالى ، وكل ما ذكره في هذا الفصل نزغات قدرية ، على أنها أيضا غير مستقيمة على أصولهم المجتثة ، فان مقتضاها وجوب الإنشاء في الحكمة ، إذ لولا مصلحة اقتضت الإنشاء لما وقع ، وتلك المصلحة توجب متعلقها ، فقد وضح أن المصنف لا إلى معالى السنة رقى ، ولا في حضيض الاعتزال بقي ، فللّه العصمة.
(3). قوله فكانت أهون منها» أى من بقية الأفعال. (ع)

[سورة الروم (30) : آية 28]

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (28)

فإن قلت : أى فرق بين الأولى والثانية والثالثة في قوله تعالى مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ ، مِنْ شُرَكاءَ؟ قلت: الأولى للابتداء ، كأنه قال : أخذ مثلا وانتزعه من أقرب.

شيء منكم وهي أنفسكم ولم يبعد ، والثانية للتبعيض ، والثالثة مزيدة لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النفي. ومعناه : هل ترضون لأنفسكم - وعبيدكم أمثالكم بشر كبشر وعبيد كعبيد - أن يشارككم بعضهم فِي ما رَزَقْناكُمْ من الأموال وغيرها تكونون أنتم وهم فيه على السواء ، من غير تفصلة بين حرّ وعبد : تهابون أن تستبدوا بتصرف دونهم ، وأن تفتاتوا بتدبير عليهم كما يهاب بعضكم بعضا من الأحرار ، فإذا لم ترضوا بذلك لأنفسكم ، فكيف ترضون لرب الأرباب ومالك الأحرار والعبيد أن تجعلوا بعض عبيده له شركاء؟ كَذلِكَ أى مثل هذا التفصيل نُفَصِّلُ الْآياتِ أى نبينها لأن التمثيل مما يكشف المعاني ويوضحها ، لأنه بمنزلة التصوير والتشكيل لها.

ألا ترى كيف صوّر الشرك بالصورة المشوّهة؟

[سورة الروم (30) : آية 29]

بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (29)

الَّذِينَ ظَلَمُوا أى أشركوا ، كقوله تعالى : إنّ الشرك لظلم عظيم بِغَيْرِ عِلْمٍ أى اتبعوا أهواءهم جاهلين ، لأنّ العالم إذا ركب هواه ربما ردعه علمه وكفه. وأما الجاهل فيهيم على وجهه كالبهيمة لا يكفه شيء مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ من خذله «1» ولم يلطف به ، لعلمه أنه ممن لا لطف له ، فمن يقدر على هداية مثله. وقوله وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ دليل على أن المراد بالإضلال الخذلان.

[سورة الروم (30) : الآيات 30 إلى 32]

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (30) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (32)

(1). قوله «من أضل الله : من خذله» تأويل الإضلال بذلك مبنى على أنه تعالى لا يخلق الشر ، وهو مذهب المعتزلة ، وذهب أهل السنة إلى أنه يخلق الشر كالخير ، فالآية على ظاهرها. (ع)

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ فقوّم وجهك له وعدّله ، غير ملتفت عنه يمينا ولا شمالا ، وهو تمثيل لإقباله على الدين ، واستقامته عليه ، وثباته ، واهتمامه بأسبابه ، فإنّ من اهتم بالشيء عقد عليه طرفه ، وسدّد إليه نظره ، وقوّم له وجهه ، مقبلا به عليه. وحَنِيفاً حال من المأمور. أو من الدين فِطْرَتَ اللَّهِ أى الزموا فطرة الله. أو عليكم فطرة الله. وإنما أضمرته على خطاب الجماعة لقوله مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ومنيبين : حال من الضمير في : الزموا. وقوله وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا ... وَلا تَكُونُوا معطوف على هذا المضمر. والفطرة : الخلقة. ألا ترى إلى قوله لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ

وقرئ : فرّقوا دينهم بالتشديد ، أى : جعلوه أديانا مختلفة لاختلاف أهوائهم وَكانُوا شِيَعاً فرقا ، كل واحدة تشايع إمامها الذي أضلها كُلُّ حِزْبٍ منهم فرح بمذهبه مسرور ، يحسب باطله حقا - ويجوز أن يكون مِنَ الَّذِينَ منقطعا مما قبله ، ومعناه : من المفارقين دينهم كل حزب فرحين بما لديهم ، ولكنه رفع فرحون على الوصف لكل ، كقوله : وكل خليل غير هاضم نفسه «4»

(1). قوله «فاجتالتهم الشياطين» أدارتهم. أفاده الصحاح. (ع)
(2). أخرجه مسلم من حديث عياض بن حمار به وأتم منه.
(3). متفق عليه من حديث أبى هريرة.
(4) وكل خليل غير هاضم نفسه فبالصد والاعراض عنه جدير
للشماخ. ويروى : بدل الشطر الثاني : بوصل خليل صارم أو مصادر. وغير هاضم - بالرفع - : صفة كل. أو بالجر : صفة خليل ، أى : من لم يخفض نفسه لصاحبه فهو حقيق بالصد والاعراض عنه لا بالمودة. وزادت الفاء ، لأن المبتدأ فيه معنى الشرط. والصارم: القاطع. والمصادر : المجانب ، أى : من لم يهضم نفسه لوصل خليله ، أدى به ذلك إلى القطيعة ، فان لم تكن فالى المجانبة ، فكأنه مقاطع ، أو مجانب بالفعل.

[سورة الروم (30) : الآيات 33 إلى 34]

وَإِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (33) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (34)

الضر : الشدّة من هزال أو مرض أو قحط أو غير ذلك. والرحمة : الخلاص من الشدّة.

واللام في لِيَكْفُرُوا مجاز مثلها في لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا. فَتَمَتَّعُوا نظير اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ وبال تمتعكم. وقرأ ابن مسعود : وليتمتعوا.

[سورة الروم (30) : آية 35]

أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (35)

السلطان : الحجة ، وتكلمه. مجاز ، كما تقول : كتابه ناطق بكذا ، وهذا مما نطق به القرآن.

ومعناه : الدلالة والشهادة ، كأنه قال : فهو يشهد بشركهم وبصحته. وما في بِما كانُوا مصدرية أى : بكونهم بالله يشركون. ويجوز أن تكون موصولة ويرجع الضمير إليها. ومعناه : فهو يتكلم بالأمر الذي يسببه يشركون. ويحتمل أن يكون المعنى : أم أنزلنا عليهم ذا سلطان ، أى : ملكا معه برهان فذلك الملك يتكلم بالبرهان الذي بسببه يشركون.

[سورة الروم (30) : آية 36]

وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِها وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ (36)

وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً أى نعمة من مطر أو سعة أو صحة فَرِحُوا بِها وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ أى بلاء من جدب أو ضيق أو مرض - والسبب فيها شؤم معاصيهم - قنطوا من الرحمة.

[سورة الروم (30) : آية 37]

أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (37)

ثم أنكر عليهم بأنهم قد علموا أنه هو الباسط القابض ، فما لهم يقنطون من رحمته ، وما لهم لا يرجعون إليه تائبين من المعاصي التي عوقبوا بالشدّة من أجلها ، حتى يعيد إليهم رحمته.

[سورة الروم (30) : آية 38]

فَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (38)

حق ذى القربى : صلة الرحم. وحق المسكين وابن السبيل : نصيبهما من الصدقة المسماة لهما.

وقد احتج أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية في وجوب النفقة للمحارم إذا كانوا محتاجين عاجزين عن الكسب. وعند الشافعي رحمه الله : لا نفقة بالقرابة إلا على الولد والوالدين : قاس سائر القرابات على ابن العم ، لأنه لا ولاد بينهم. فإن قلت : كيف تعلق قوله فَآتِ ذَا الْقُرْبى بما قبله حتى جيء بالفاء؟ قلت : لما ذكر أنّ السيئة أصابتهم بما قدّمت أيديهم ، أتبعه ذكر ما يجب أن يفعل وما يجب أن يترك يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ يحتمل أن يراد بوجهه ذاته أو جهته وجانبه ، أى : يقصدون بمعروفهم إياه خالصا وحقه ، كقوله تعالى إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى أو يقصدون جهة التقرّب إلى الله لا جهة أخرى ، والمعنيان متقاربان ، ولكن الطريقة مختلفة.

[سورة الروم (30) : آية 39]

وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (39)

هذه الآية في معنى قوله تعالى يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقاتِ سواء بسواء ، يريد : وما أعطيتم أكلة الربا مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أموالهم : ليزيد ويزكو في أموالهم ، فلا يزكو عند الله ولا يبارك فيه وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ أى صدقة تبتغون به وجهه خالصا ، لا تطلبون به مكافأة ولا رياء وسمعة فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ذوو الإضعاف من الحسنات. ونظير المضعف : المقوي والموسر ، لذي القوّة واليسار : وقرئ بفتح العين. وقيل : نزلت في ثقيف، وكانوا يربون. وقيل : المراد أن يهب الرجل للرجل أو يهدى له ، ليعوّضه أكثر مما وهب أو أهدى ، فليست تلك الزيادة بحرام ، ولكن المعوّض لا يثاب على تلك الزيادة. وقالوا : الربا ربوان : فالحرام : كل قرض يؤخذ فيه أكثر منه : أو يجرّ منفعة. والذي ليس بحرام : أن يستدعى بهبته أو بهديته أكثر منها. وفي الحديث «المستغزر يثاب من هبته» «1» وقرئ : وما أتيتم من ربا ، بمعنى : وما غشيتموه أو رهقتموه من إعطاء ربا. وقرئ : لتربوا ، أى : لتزيدوا في أموالهم ، كقوله تعالى وَيُرْبِي الصَّدَقاتِ أى يزيدها. وقوله تعالى فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ التفات حسن ، كأنه قال لملائكته وخواص خلقه : فأولئك الذين يريدون وجه الله بصدقاتهم : هم المضعفون. فهو أمدح لهم من أن يقول : فأنتم المضعفون. والمعنى : المضعفون به ، لأنه لا بد من ضمير يرجع إلى ما ، ووجه آخر : وهو أن يكون تقديره : فمؤتوه أولئك هم المضعفون.

والحذف لما في الكلام من الدليل عليه ، وهذا أسهل مأخذا ، والأوّل أملأ بالفائدة.

[سورة الروم (30) : آية 40]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (40)

(1). أخرجه ابن أبى شيبة وعبد الرزاق من وجهين عن ابن سيرين عن شريح بهذا موقوفا.

اللَّهُ مبتدأ وخبره الَّذِي خَلَقَكُمْ أى الله هو فاعل هذه الأفعال الخاصة التي لا يقدر على شيء منها أحد غيره ، ثم قال هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ الذين اتخذتموهم أندادا له من الأصنام وغيرها مَنْ يَفْعَلُ شيئا قط من تلك الأفعال ، حتى يصح ما ذهبتم إليه ، ثم استبعد حاله من حال شركائهم. ويجوز أن يكون الَّذِي خَلَقَكُمْ صفة للمبتدإ ، والخبر : هل

[سورة الروم (30) : آية 41]

ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (41)

الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ نحو : الجدب ، والقحط ، وقلة الريع في الزراعات والريح في التجارات ، ووقوع الموتان في الناس والدواب ، وكثرة الحرق والغرق ، وإخفاق الصيادين «1» والغاصة ، ومحق البركات من كل شيء ، وقلة المنافع في الجملة وكثرة المضارّ. وعن ابن عباس : أجدبت الأرض وانقطعت مادّة البحر. وقالوا : إذا انقطع القطر عميت دواب البحر. وعن الحسن أنّ المراد بالبحر : مدن البحر وقراه التي على شاطئه. وعن عكرمة : العرب تسمى الأمصار البحار. وقرئ في البر والبحور بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ بسبب معاصيهم وذنوبهم ، كقوله تعالى وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وعن ابن عباس ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ بقتل ابن آدم أخاه. وفي البحر بأن جلندى كان يأخذ كل سفينة غصبا : وعن قتادة : كان ذلك قبل البعث ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع راجعون عن الضلال والظلم. ويجوز أن يريد ظهور الشر والمعاصي بكسب الناس ذلك. فإن قلت : ما معنى قوله لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ؟ قلت أمّا على التفسير الأول فظاهر ، وهو أنّ الله قد أفسد أسباب دنياهم ومحقها ، ليذيقهم وبال بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة ، لعلهم يرجعون عما هم عليه. وأمّا على الثاني فاللام مجاز ، على معنى أنّ ظهور الشرور بسببهم مما استوجبوا به أن يذيقهم الله وبال أعمالهم إرادة الرجوع ، فكأنهم إنما أفسدوا وتسببوا لفشوّ المعاصي في الأرض لأجل ذلك. وقرئ : لنذيقهم ، بالنون.

(1). قوله «و إخفاق الصيادين» في الصحاح : أخفق الصائد ، إذا رجع ولم يصطد. (ع)

[سورة الروم (30) : آية 42]

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (42)

ثم أكد تسبب المعاصي لغضب الله ونكاله : حيث أمرهم بأن يسيروا في الأرض فينظروا كيف أهلك الله الأمم وأذاقهم سوء العاقبة لمعاصيهم ، ودل بقوله كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ على أنّ الشرك وحده لم يكن سبب تدميرهم ، وأنّ ما دونه من المعاصي يكون سببا لذلك.

[سورة الروم (30) : آية 43]

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (43)

القيم : البليغ الاستقامة «الذي لا يتأتى فيه عوج مِنَ اللَّهِ إمّا أن يتعلق بيأتى ، فيكون المعنى : من قبل أن يأتى من الله يوم لا يردّه أحد ، كقوله تعالى فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّها أو بمردّ ، على معنى : لا يردّه هو بعد أن يجيء به، ولا ردّ له من جهته. والمردّ : مصدر بمعنى الردّ يَصَّدَّعُونَ يتصدّعون : أى : يتفرّقون ، كقوله تعالى : وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ.

[سورة الروم (30) : الآيات 44 إلى 45]

مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ (45)

فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ كلمة جامعة لما لا غاية وراءه من المضارّ ، لأنّ من كان ضاره كفره ، فقد أحاطت به كلّ مضرّة فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ أى يسوّون لأنفسهم ما يسوّيه لنفسه الذي يمهد فراشه ويوطئه ، لئلا يصيبه في مضجعه ما ينبيه عليه وينغض عليه مرقده : من نتوء أو قضض «1» أو بعض ما يؤذى الراقد. ويجوز أن يريد : فعلى أنفسهم يشفقون ، من قولهم في المشفق : أمّ فرشت فأنامت. وتقديم الظرف في الموضعين للدلالة على أنّ ضرر الكفر لا يعود إلا على الكافر لا يتعدّاه. ومنفعة الإيمان والعمل الصالح : ترجع إلى المؤمن لا تتجاوزه لِيَجْزِيَ

(1). قوله «من نتوء أو قضض» النتوء : الارتفاع. والقضض : صغار الحصى. أفاده الصحاح. (ع) [.....]

[سورة الروم (30) : آية 46]

وَمِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (46)

الرِّياحَ هي الجنوب والشمال والصبا ، وهي رياح الرحمة. وأما الدبور ، فريح العذاب.

ومنه قوله صلى اللّه عليه وسلم «اللهمّ اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا «1»» وقد عدد الأغراض في إرسالها ، وأنه أرسلها للبشارة بالغيث ولإذاقة الرحمة ، وهي نزول المطر وحصول الخصب الذي يتبعه ، والروح الذي مع هبوب الريح وزكاء الأرض. قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «إذا كثرت المؤتفكات زكت الأرض «2»» وإزالة العفونة من الهواء ، وتذرية الحبوب ، وغير ذلك وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ في البحر عند هبوبها. وإنما زاد بِأَمْرِهِ لأن الريح قد تهب ولا تكون مؤاتية «3» ، فلا بد من إرساء السفن والاحتيال لحبسها ، وربما عصفت فأغرقتها وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ يريد تجارة البحر ، ولتشكروا نعمة اللّه فيها. فإن قلت : بم يتعلق وليذيقكم؟ قلت : فيه وجهان : أن يكون معطوفا على مبشرات على المعنى ، كأنه قيل : ليبشركم وليذيقكم. وأن يتعلق بمحذوف تقديره : وليذيقكم ، وليكون كذا وكذا : أرسلناها.

[سورة الروم (30) : آية 47]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ(47)

اختصر الطريق إلى الغرض بأن أدرج تحت ذكر الانتصار والنصر ذكر الفريقين ، وقد أخلى الكلام أوّلا عن ذكرهما. وقوله كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ تعظيم للمؤمنين ، ورفع من شأنهم ، وتأهيل لكرامة سنية ، وإظهار لفضل سابقة ومزية ، حيث جعلهم مستحقين على اللّه أن ينصرهم ، مستوجبين عليه أن يظهرهم ويظفرهم ، وقد يوقف على حَقًّا . ومعناه : وكان الانتقام منهم حقا ، ثم يبتدأ : عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ .

وعن النبىّ صلى اللّه عليه وسلم «ما من امرئ مسلم يردّ عن عرض أخيه إلا كان حقا على اللّه أن يردّ عنه نار جهنم يوم القيامة «4»». ثم تلا قوله تعالى كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ.

(1). أخرجه الشافعي : أخبرنى من لا أنهم عن العلاء بن راشد عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعا نحوه ، ومن طريقه. أخرجه في المعرفة وفي الدعوات. وهذا المبهم : هو إبراهيم بن أبى يحيى وهو ضعيف. وله طريق أخرى عند أبى يعلى والطبراني وابن عدى من رواية حسين بن قيس عن عكرمة به وحسين ضعيف أيضا
(2). لم أجده.
(3). قوله «و لا تكون مؤاتية» في الصحاح : آتيته على ذلك الأمر مؤاتاة ، إذا وافقته. والعامة تقول : وأتيته. (ع)
(4). أخرجه الترمذي وأحمد والطبراني من حديث أبى الدرداء وقال حسن. ورواه إسحاق والطبراني وأبو يعلى وابن عدى من طريق شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد مرفوعا نحوه وإسناده ضعيف. واختلف فيه على شهر ابن حوشب : فقال العلاج عنه هكذا ، وقال ليث بن أبى سليم عنه عن أبى هريرة ، أخرجه ابن مردويه.

[سورة الروم (30) : الآيات 48 إلى 49]

اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذا أَصابَ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (48) وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (49)
فَيَبْسُطُهُ متصلا تارة وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً أى قطعا تارة فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ في التارتين جميعا. والمراد بالسماء. سمت السماء وشقها ، كقوله تعالى وَفَرْعُها فِي السَّماءِ ، وبإصابة العباد : إصابة بلادهم وأراضيهم مِنْ

[سورة الروم (30) : آية 50]

فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (50)
قرئ : أثر وآثار ، على الوحدة والجمع. وقرأ أبو حيوة وغيره : كيف تحيى ، أى : الرحمة إِنَّ ذلِكَ يعنى إنّ ذلك القادر الذي يحيى الأرض بعد موتها ، هو الذي يحيى الناس بعد موتهم وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ من المقدورات قادر ، وهذا من جملة المقدورات بدليل الإنشاء.

[سورة الروم (30) : الآيات 51 إلى 53]

وَلَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (51) فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (52) وَما أَنْتَ بِهادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (53)

فَرَأَوْهُ فرأوا أثر رحمة الله. لأنّ رحمة الله هي الغيث ، وأثرها : النبات. ومن قرأ بالجمع : رجع الضمير إلى معناه لأنّ معنى آثار الرحمة النبات ، واسم النبات يقع على القليل والكثير ، لأنه مصدر سمى به ما ينبت. ولئن: هي اللام الموطئة للقسم ، دخلت على حرف الشرط ، ولَظَلُّوا جواب القسم سدّ مسدّ الجوابين ، أعنى : جواب القسم وجواب الشرط ، ومعناه : ليظلنّ ذمّهم الله تعالى بأنه إذا حبس عنهم القطر قنطوا من رحمته وضربوا أذقانهم على صدورهم مبلسين ،

(1). قوله «إبلاسهم» الإبلاس : اليأس من الخير ، والسكوت ، والانكسار غما وحزنا. أفاده الصحاح. (ع)

فإذا أصابهم برحمته ورزقهم المطر : استبشروا وابتهجوا ، فإذا أرسل ريحا فضرب زروعهم بالصفار ، ضجوا وكفروا بنعمة الله. فهم في جمع هذه الأحوال على الصفة المذمومة ، كان عليهم أن يتوكلوا على الله وفضله ، فقنطوا. وأن يشكروا نعمته ويحمدوه عليها ، فلم يزيدوا على الفرح والاستبشار. وأن يصبروا على بلائه ، فكفروا. والريح التي اصفرّ لها النبات : يجوز أن تكون حرورا وحرجفا ، فكلتاهما مما يصوح «1» له النبات ويصبح هشيما. وقال : مصفرّا : لأنّ تلك صفرة حادثة. وقيل : فرأوا السحاب مصفرا ، لأنه إذا كان كذلك لم يمطر.

[سورة الروم (30) : آية 54]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (54)

قرئ : بفتح الضاد وضمها ، وهما لغتان ، والضم أقوى في القراءة ، لما روى ابن عمر رضى الله عنهما : قال: قرأتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم من ضعف ، فأقرأنى من ضعف «2».

قوله خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ كقوله خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ يعنى أنّ أساس أمركم وما عليه؟؟؟ بلتكم وبنيتكم الضعف وَخُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً أى ابتدأناكم في أوّل الأمر ضعافا ، وذلك حال الطفولة والنشء حتى بلغتم وقت الاحتلام والشبيبة ، وتلك حال القوّة إلى الاكتهال وبلوغ الاشدّ ، ثم رددتم إلى أصل حالكم وهو الضعف بالشيخوخة والهرم. وقيل : من ضعف من؟؟؟ النطف ، كقوله تعالى مِنْ ماءٍ مَهِينٍ وهذا الترديد في الأحوال المختلفة ، والتغيير من هيئة إلى؟؟؟ الهيئة وصفة إلى صفة : أظهر دليل وأعدل شاهد على الصانع العليم القادر.

[سورة الروم (30) : آية 55]

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ (55)

السَّاعَةُ القيامة ، سميت بذلك لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا. أو لأنها تقع؟؟؟ بغتة وبديهة. كما تقول: «في ساعة» لمن تستعجله ، وجرت علما لها كالنجم للثريا ، والكوكب للزهرة. وأرادوا : لبثهم في الدنيا ، أو في القبور ، أو فيما بين فناء الدنيا إلى البعث. وفي الحديث :

(1). قوله «و حرجفا ... الخ» في الصحاح «الحرجف» : الريح الباردة. وفيه أيضا «صوحته الريح» : أيبسته. (ع)
(2). أخرجه أبو داود والترمذي وإسحاق والبزار من حديث عطية عن ابن عمر دون التفسير ورواه ابن مردويه من رواية أبى عمرو بن العلاء عن نافع عن ابن عمر لكن في إسناده سلام بن سليمان.

«ما بين فناء الدنيا إلى وقت البعث أربعون» «1» قالوا : لا نعلم أهى أربعون سنة أم أربعون ألف سنة؟ وذلك وقت يفنون فيه وينقطع عذابهم ، وإنما يقدّرون وقت لبثهم بذلك على وجه استقصارهم له. أو ينسون أو يكذبون أو يخمنون كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ أى مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون عن الصدق والتحقيق في الدنيا ، وهكذا كانوا يبنون أمرهم على خلاف الحق. أو مثل ذلك الإفك كانوا يؤفكون في الاغترار بما تبين لهم الآن أنه ما كان إلا ساعة.

[سورة الروم (30) : الآيات 56 إلى 57]

وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ(56) فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (57)

القائلون : هم الملائكة ، والأنبياء ، والمؤمنون فِي كِتابِ اللَّهِ في اللوح. أو في علم اللّه وقضائه. أو فيما كتبه ، أى: أوجبه بحكمته. ردّوا ما قالوه وحلفوا عليه ، وأطلعوهم على الحقيقة ثم وصلوا ذلك بتقريعهم على إنكار البعث بقولهم فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ أنه حق لتفريطكم في طلب الحق واتباعه. فإن قلت : ما هذه الفاء؟ وما حقيقتها؟ قلت : هي التي في قوله : فقد جئنا خراسانا «2»

وحقيقتها : أنها جواب شرط يدل عليه الكلام ، كأنه قال : إن صح ما قلتم من أن خراسان أقصى ما يراد بنا فقد جئنا خراسان ، وآن لنا أن نخلص ، وكذلك إن كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث ، أى فقد تبين بطلان قولكم. وقرأ الحسن يوم البعث ، بالتحريك لا يَنْفَعُ قرئ بالياء والتاء يُسْتَعْتَبُونَ من قولك : استعتبني فلان فأعتبته. أى : استرضانى فأرضيته ، وذلك إذا كنت جانيا عليه. وحقيقة أعتبته : أزلت عتبه. ألا ترى إلى قوله : غضبت تميم أن تقتّل عامر يوم النّسار فأعتبوا بالصّيلم «3»

(1). لم أجده هكذا. وفي الصحيحين عن أبى هريرة مرفوعا «ما بين النفختين» أربعون قالوا : يا أبا هريرة أربعون سنة؟ قال : أبيت ، قالوا : أربعون شهرا؟ قال : أبيت قالوا : أربعون يوما؟ قال : أبيت».
(2). تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة 271 فراجعه إن شئت اه مصححه.
(3). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 105 فراجعه إن شئت اه مصححه.

كيف جعلهم غضابا ، ثم قال : فأعتبوا ، أى : أزيل غضبهم. والغضب في معنى العتب. والمعنى : لا يقال لهم أرضوا ربكم بتوبة وطاعة ، ومثله قوله تعالى لا يُخْرَجُونَ مِنْها ، وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ.

فإن قلت : كيف جعلوا غير مستعتبين في بعض الآيات ، وغير معتبين في بعضها ، وهو قوله وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ؟ قلت : أما كونهم غير مستعتبين : فهذا معناه. وأما كونهم غير معتبين ، فمعناه : أنهم غير راضين بما هم فيه ، فشبهت حالهم بحال قوم جنى عليهم ، فهم عاتبون على الجاني غير راضين عنه ، فإن يستعتبوا اللّه : أى يسألوه إزالة ما هم فيه ، فما هم من المجابين إلى إزالته.

[سورة الروم (30) : الآيات 58 إلى 60]

وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ (58) كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (59) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (60)

وَلَقَدْ وصفنا لهم كل صفة كأنها مثل في غرابتها ، وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن ، كصفة المبعوثين يوم القيامة ، وقصتهم ، وما يقولون وما يقال لهم ، وما لا ينفع من اعتذارهم ولا يسمع من استعتابهم ، ولكنهم - لقسوة قلوبهم ومج أسماعهم حديث الآخرة - إذا جئتهم بآية من آيات القرآن ، قالوا : جئتنا بزور وباطل ، ثم

(1). قوله «و معنى طبع اللّه منع الألطاف» أوله بذلك بناء على أنه تعالى لا يخلق الشر وهو مذهب المعتزلة.
وذهب أهل السنة إلى أنه يخلقه كالخير ، فالآية على ظاهرها. (ع)
(2). قوله «و هم أعرق خلق اللّه» في الصحاح : أعرق الرجل ، أى : صار عريقا ، وهو الذي له عرق في الكرم. (ع)

وقرأ ابن أبى إسحاق ويعقوب : ولا يستحقنك ، أى : لا يفتننك فيملكوك ويكونوا أحق بك من المؤمنين.
عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «من قرأ سورة الروم كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل ملك سبح اللّه بين السماء والأرض وأدرك ما ضيع في يومه وليلته» «1».

سورة لقمان

مكية [إلا الآيات 72 و28 و29 فمدنية] وآياتها 34 وقيل 33 [نزلت بعد الصافات]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة لقمان (31) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (1) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ (2) هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (3) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5)

الْكِتابِ الْحَكِيمِ ذى الحكمة. أو وصف بصفة اللّه تعالى على الإسناد المجازى. ويجوز أن يكون الأصل : الحكيم قائله ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، فبانقلابه مرفوعا بعد الجر استكن في الصفة المشبهة هُدىً وَرَحْمَةً بالنصب على الحال عن الآيات ، والعامل فيها : ما في تلك من معنى الإشارة. وبالرفع على أنه خبر بعد خبر ، أو خبر مبتدإ محذوف لِلْمُحْسِنِينَ للذين يعملون الحسنات وهي التي ذكرها : من إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والإيقان بالآخرة ونظيره قول أوس : الألمعى الّذى يظن بك الظّنّ كأن قد رأى وقد سمعا «2»

(1). أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبى بن كعب.
(2) أيتها النفس احملي جزعا إن الذي تحذرين قد وقعا
إن الذي جمع السماحة والنجدة والبر والتقى جمعا
الألمعى الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا
أودى فلا تنفع الاشاحة من أمر لمن يحاول البدعا
لأوس بن حجر ، يرثى فضالة بن كلدة. يقول : يا نفس احتملي جزعا عظيما ، إن الذي تخافين منه قد حصل ، وبينه بقوله : إن الذي جمع المكارم كلها أودى ، أى : هلك. وجمع - بالضم - : توكيد للصفات قبله. والألمعى : نصب على الصفة للذي ، وفسره بأنه الذي يظن بك ، يعنى كل مخاطب ، أى : يظن الظن الحق ، كأنه قد رأى وسمع ما ظنه أو يظن الظن فيصيب ، كأنه قد رآه إن كان فعلا ، أو سمعه إن كان قولا. وفيه نوع من البديع يسمى التفسير ، وهو أن يؤتى بمعنى لا يستقل الفهم بمعرفته بدون تفسيره ، ذكره السيوطي في شرح عقود الجمان. والاشاحة : الشجاعة والجد في القتال. وضمن «تنفع» معنى «تحفظ» فعداه بمن ، أى : فلا تحفظ الشجاعة من مكروه أحدا. وعداه باللام ، نظرا للفظه. والأقرب أن من واللام زائدتان لتوكيد الكلام ، أى : فلا تنفع الاشاحة شيئا من النفع أحدا من الناس يحاول ويطلب بدائع الأمور وعظائمها ، يعنى : أن فضالة كان كذلك فمات ، وفيه نوع تسل. [.....]

حكى عن الأصمعى : أنه سئل عن الألمعى فأنشده ولم يزد. أو للذين يعملون جميع ما يحسن من الأعمال ، ثم خص منهم القائمين بهذه الثلاث بفضل اعتداد بها.

[سورة لقمان (31) : الآيات 6 إلى 7]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (6) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (7)

اللهو كل باطل ألهى عن الخير وعما يعنى وَلَهْوَ الْحَدِيثِ نحو السمر بالأساطير والأحاديث التي لا أصل لها ، والتحدث بالخرافات والمضاحيك وفضول الكلام ، وما لا ينبغي من كان وكان ، ونحو الغناء وتعلم الموسيقار «1» ، وما أشبه ذلك. وقيل : نزلت في النضر بن الحرث ، وكان يتجر إلى فارس ، فيشترى كتب الأعاجم فيحدث بها قريشا ويقول : إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بأحاديث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة ، فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن. وقيل : كان يشترى المغنيات ، فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته فيقول : أطعميه واسقيه وغنيه ، ويقول : هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه. وفي حديث النبي صلى اللّه عليه وسلم «لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن ولا التجارة فيهنّ ولا أثمانهنّ «2» »

(1). قوله «و تعلم الموسيقار» يونانية. ومعناه : علم الغناء ، وبغير راء : ذات الغناء ، كذا قيل. (ع)
(2). أخرجه الطبري وابن أبى حاتم وغيرهما من رواية عبيد اللّه بن زحر عن على بن يزيد عن القاسم عن أبى أمامة بهذا. وهو عند أحمد وابن أبى شيبة والترمذي وأبى يعلى من هذا الوجه وهو ضعيف ، ورواه الطبراني من طريق يحيى بن الحارث عن القاسم

وفيه الحارث بن نهان وهو ضعيف ، وعن عائشة أخرجه البيهقي وفيه ليث بن أبى سليم وهو ضعيف.

و عنه صلى اللّه عليه وسلم «ما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث اللّه عليه شيطانين : أحدهما على هذا المنكب والآخر على هذا المنكب ، فلا يزالان يضربانه بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت «1» «و قيل : الغناء منفدة للمال ، مسخطة للرب ، مفسدة للقلب. فإن قلت : ما معنى إضافة اللهو إلى الحديث؟ قلت : معناها التبيين ، وهي الإضافة بمعنى من ، وأن يضاف الشيء إلى ما هو منه ، كقولك : صفة خز ، وباب ساج «2». والمعنى : من يشترى اللهو من الحديث ، لأن اللهو يكون من الحديث ومن غيره ، فبين بالحديث. والمراد بالحديث. الحديث المنكر ، كما جاء في الحديث : «الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش «3»» ويجوز أن تكون الإضافة بمعنى «من» التبعيضية ، كأنه قيل : ومن الناس من يشترى بعض الحديث الذي هو اللهو منه. وقوله يَشْتَرِي إما من الشراء ، على ما روى عن النضر : من شراء كتب الأعاجم أو من شراء القيان. وإما من قوله اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمانِ أى استبدلوه منه واختاروه عليه. وعن قتادة : اشتراؤه : استحبابه ، يختار حديث الباطل على حديث الحق. وقرئ : لِيُضِلَّ بضم الياء وفتحها.

وسَبِيلِ اللَّهِ دين الإسلام أو القرآن. فإن قلت : القراءة بالضم بينة ، لأن النضر كان غرضه باشتراء اللهو : أن يصدّ الناس عن الدخول في الإسلام واستماع القرآن ويضلهم عنه ، فما معنى القراءة بالفتح؟ قلت : فيه معنيان ، أحدهما : ليثبت على ضلاله الذي كان عليه ، ولا يصدف عنه ، ويزيد فيه ويمدّه ، فإن المخذول كان شديد الشكيمة في عداوة الدين وصدّ الناس عنه.

والثاني : أن يوضع ليضل موضع ليضل ، من قبل أن من أضل كان ضالا لا محالة ، فدل بالرديف على المردوف. فإن قلت : ما معنى قوله بِغَيْرِ عِلْمٍ؟ قلت : لما جعله مشتريا لهو الحديث بالقرآن قال : يشترى بغير علم بالتجارة وبغير بصيرة بها ، حيث يستبدل الضلال بالهدى والباطل بالحق.

ونحوه قوله تعالى فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَما كانُوا مُهْتَدِينَ أى : وما كانوا مهتدين للتجارة بصراء بها : وقرئ وَيَتَّخِذَها بالنصب والرفع عطفا على يشترى. أو ليضل ، والضمير للسبيل ، لأنها مؤنثة ، كقوله تعالى وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَها عِوَجاً.

---

(1). أخرجه أبو يعلى وإسحاق والحارث من طريق أبى أمامة وهو عند الطبراني من رواية يحيى بن الحارث عن القاسم في الحديث الذي قبله.

(2). قوله «كقولك صفة خز وباب ساج» لعله محرف. وأصله جبة خز ، ثم رأيت في الصحاح : صفة الدار والسرج : واحدة الصفف اه ، فلعل صفة السرج تكون من خز. (ع)

(3). تقدم في براءة.

وَلَّى مُسْتَكْبِراً زاما «1» لا يعبأ بها ولا يرفع بها رأسا : تشبه حاله في ذلك حال من لم يسمعها وهو سامع كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً أى ثقلا ولا وقر فيهما ، وقرئ : بسكون الذال. فإن قلت : ما محل الجملتين المصدرتين بكأن؟ قلت : الأولى حال من مستكبرا والثانية من لم يسمعها : ويجوز أن تكونا استئنافين ، والأصل في كأن المخففة : كأنه ، والضمير : ضمير الشأن.

[سورة لقمان (31) : الآيات 8 إلى 11]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (8) خالِدِينَ فِيها وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9) خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (10) هذا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (11)

وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا مصدران مؤكدان ، الأوّل : مؤكد لنفسه والثاني مؤكد لغيره ، لأن قوله لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ في معنى : وعدهم اللّه جنات النعيم ، فأكد معنى الوعد بالوعد. وأما حَقًّا فدال على معنى الثبات : أكد به معنى الوعد ، ومؤكدهما جميعا قوله لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الذي لا يغلبه شيء ولا يعجزه ، يقدر على الشيء وضده ، فيعطى النعيم من شاء والبؤس من شاء ، وهو الْحَكِيمُ لا يشاء إلا ما توجبه الحكمة والعدل تَرَوْنَها الضمير فيه

[سورة لقمان (31) : آية 12]

وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (12)

هو لقمان بن باعورا : ابن أخت أيوب أو ابن خالته. وقيل : كان من أولاد آزر ، وعاش ألف سنة ،

(1). قوله «زاما لا يعبأ بها» في الصحاح : زم بأنفه ، أي : تكبر ، فهو زام. (ع)

وأدرك داود عليه السلام وأخذ منه العلم ، وكان يفتي قبل مبعث داود عليه السلام ، فلما بعث قطع الفتوى ، فقيل له؟ فقال : ألا أكتفى إذا كفيت؟ وقيل : كان قاضيا في بنى إسرائيل ، وأكثر الأقاويل أنه كان حكيما ولم يكن نبيا، وعن ابن عباس رضى الله عنهما : لقمان لم يكن نبيا ولا ملكا. ولكن كان راعيا أسود ، فرزقه الله العتق ، ورضى قوله ووصيته ، فقص أمره في القرآن لتمسكوا بوصيته. وقال عكرمة والشعبي : كان نبيا. وقيل : خير بين النبوّة والحكمة فاختار الحكمة «1». وعن ابن المسيب : كان أسود من سودان مصر خياطا ، وعن مجاهد: كان عبدا أسود غليظ الشفتين متشقق «2» القدمين. وقيل : كان نجارا. وقيل : كان راعيا وقيل : كان يحتطب لمولاه كل يوم حزمة. وعنه أنه قال لرجل ينظر إليه : إن كنت تراني غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق ، وإن كنت تراني أسود فقلبي أبيض. وروى أن رجلا وقف عليه في مجلسه فقال : ألست الذي ترعى معى في مكان كذا؟ قال : بلى. قال ما بلغ بك ما أرى؟

قال : صدق الحديث والصمت عما لا يعنيني. وروى أنه دخل على داود عليه السلام وهو يسرد الدرع وقد لين الله له الحديد كالطين ، فأراد أن يسأله فأدركته الحكمة فسكت ، فلما أتمها لبسها وقال : نعم لبوس الحرب أنت. فقال : الصمت حكمة وقليل فاعله ، فقال له داود : بحق ما سميت حكيما. وروى أن مولاه أمره بذبح شاة وبأن يخرج منها أطيب مضغتين ، فأخرج اللسان والقلب ، ثم أمره بمثل ذلك بعد أيام وأن يخرج أخبث مضغتين فأخرج اللسان والقلب ، فسأله عن ذلك؟ فقال : هما أطيب ما فيها إذا طابا ، وأخبث ما فيها إذا خبثا. وعن سعيد بن المسيب أنه قال لأسود : لا تحزن ، فإنه كان من خير الناس ثلاثة من السودان : بلال ، ومهجع مولى عمر ، ولقمان. أَنِ هي المفسرة ، لأنّ إيتاء الحكمة في معنى القول ، وقد نبه الله سبحانه على أنّ الحكمة الأصلية والعلم الحقيقي : هو العمل بهما وعبادة الله والشكر له ، حيث فسر إيتاء الحكمة بالبعث على الشكر غَنِيٌّ غير محتاج إلى الشكر حَمِيدٌ حقيق بأن يحمد وإن لم يحمده أحد.

[سورة لقمان (31) : آية 13]

وَإِذْ قالَ لُقْمانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13)

قيل : كان اسم ابنه «أنعم» وقال الكلبي : «أشكم» وقيل : كان ابنه وامرأته كافرين ، فما زال بهما حتى أسلما لَظُلْمٌ عَظِيمٌ لأنّ التسوية بين من لا نعمة إلا هي منه ، ومن لا نعمة منه البتة ولا يتصوّر أن تكون منه - : ظلم لا يكتنه عظمه.

(1). ذكر محمود في ذلك اختلاف العلماء في نبوته ، وذكر أثناء ذلك أنه خير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة. قال أحمد : وفي هذا بعد بين ، وذلك أن الحكمة داخلة في النبوة ، وقطرة من بحرها ، وأعلى درجات الحكماء تنحط عن أدنى درجات الأنبياء بما لا يقدر قدره. وليس من الحكمة اختيار الحكمة المجردة من النبوة ،

(2). قوله «متشقق» في الصحاح : «الشفق» : الرديء من الأشياء. يقال : غطاء مشفق ، أى : مقلل اه والظاهر أنه متشقق بقافين. (ع)

[سورة لقمان (31) : الآيات 14 إلى 15]

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14) وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (15)

أى حَمَلَتْهُ تهن وَهْناً عَلى وَهْنٍ كقولك رجع عودا على بدء ، بمعنى ، يعود عودا على بدء ، وهو في موضع الحال. والمعنى : أنها تضعف ضعفا فوق ضعف ، أى : يتزايد ضعفها ويتضاعف ، لأنّ الحمل كلما ازداد وعظم ، ازدادت ثقلا وضعفا. وقرئ : وهنا على وهن ، بالتحريك عن أبى عمرو. يقال : وهن يوهن. ووهن يهن. وقرئ : وفصله أَنِ اشْكُرْ تفسير لوصينا ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ أراد بنفي العلم به نفيه ، أى : لا تشرك بى ما ليس بشيء «1» ، يريد الأصنام ، كقوله تعالى ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْ ءٍ. مَعْرُوفاً صحابا ، أو مصاحبا معروفا حسنا بخلق جميل وحلم واحتمال وبر وصلة ، وما يقتضيه الكرم والمروءة وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ يريد : واتبع سبيل المؤمنين في دينك ولا تتبع سبيلهما فيه - وإن كنت مأمورا بحسن مصاحبتهما في الدنيا - ثم إلىّ مرجعك ومرجعهما ، فأجازيك على إيمانك وأجازيهما على كفرهما ، علم بذلك حكم الدنيا وما يجب على الإنسان في صحبتهما ومعاشرتهما : من مراعاة حق الأبوة وتعظيمه ، وما لهما من المواجب التي لا يسوغ الإخلال بها ، ثم بين حكمهما وحالهما في الآخرة. وروى : أنها نزلت في سعد بن أبى وقاص وأمّه. وفي القصة: أنها مكثت ثلاثا لا تطعم ولا تشرب حتى شجروا فاها «2» بعود. وروى أنه قال : لو كانت لها سبعون نفسا فخرجت ، لما ارتددت إلى الكفر. فإن قلت : هذا الكلام كيف وقع في أثناء وصية لقمان؟ قلت : هو كلام اعترض به على سبيل الاستطراد ، تأكيدا لما في وصية لقمان من النهى عن الشرك. فإن قلت : فقوله حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ كيف اعترض به بين المفسر والمفسر؟

(1). قال محمود : «معناه : ما ليس بشيء ، وعبر بنفي العلم عن نفى المعلوم» قال أحمد : هو من باب قوله :
على لا حب لا يهتدى بمناره
أى : ما ليس باله فيكون لك علم بالالهية ، وليس كما ذكره في قول فرعون ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي وقد مر معناه فيما تقدم.
(2). قوله «حتى شجروا فاها بعود» في الصحاح : شجرة بالرمح ، أى : طعنه. (ع)

قلت : لما وصى بالوالدين : ذكر ما تكابده الأمّ وتعانيه من المشاق والمتاعب في حمله وفصاله هذه المدّة المتطاولة ، إيجابا للتوصية بالوالدة خصوصا «1». وتذكيرا بحقها العظيم مفردا ، ومن ثمّ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن قال له : من أبر؟ «أمّك ثم أمّك ثم أمّك» ثم قال بعد ذلك «ثم أباك «2»». وعن بعض العرب أنه حمل أمه إلى الحج على ظهره وهو يقول في حدائه بنفسه : أحمل أمّى وهي الحمّاله ترضعنى الدرّة والعلالة ولا يجازى والد فعاله «3»

فإن قلت : ما معنى توقيت الفصال بالعامين؟ قلت المعنى في توقيته بهذه المدة أنها الغاية التي لا تتجاوز ، والأمر فيما دون العامين موكول إلى اجتهاد الأم : إن علمت أنه يقوى على الفطام فلها أن تفطمه. ويدل عليه قوله تعالى وَالْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ وبه استشهد الشافعي رضى الله عنه على أن مدة الرضاع سنتان ، لا تثبت حرمة الرضاع بعد انقضائهما ، وهو مذهب أبى يوسف ومحمد. وأما عند أبى حنيفة رضى الله عنه.

فمدة الرضاع ثلاثون شهرا. وعن أبى حنيفة : إن فطمته قبل العامين فاستغنى بالطعام ثم أرضعته ، لم يكن رضاعا. وإن أكل أكلا ضعيفا لم يستغن به عن الرضاع ثم أرضعته ، فهو رضاع محرم.

[سورة لقمان (31) : آية 16]

يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (16)

قرئ مِثْقالَ حَبَّةٍ بالنصب والرفع ، فمن نصب كان الضمير للهنة «4» من الإساءة أو الإحسان ،

(1). قال محمود : «فيه تخصيص حق الأم ، وهو مطابق لبدايته ، فذكرها في وجوب البر في الحديث المأثور» قال أحمد : وهذا من قبيل ما يقوله الفقهاء : إن اللأم من عمل الولد قبل الحلم جله ، وهو مما يفيد تأكيد حقها ، والله أعلم.
(2). أخرجه أبو داود والترمذي من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال «قلت يا رسول الله من أبر؟

الحديث» وله شاهد في الصحيحين من حديث أبى زرعة عن أبى هريرة قال «جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : من أحق بصحابتى؟ - الحديث»
(3). لعربي يحمل أمه إلى الحج ، وهي الحمالة : جملة حالية ، أى : كثيرة الحمل بحسب ما كان. أو من عادتها ذلك ، وترضع : حال متداخلة ، والدرة - بالضم : كثرة اللبن وسيلانه ، والمراد بها : اللبن الكثير. والعلالة - بالضم - :
بقية اللبن ، والحلبة بين الحلبتين ، وتطلق على بقية جرى الفرس. والعلل : الشرب الثاني ، والشرب الأول النهل :
وروى ترضعنى الدرة. والفعال - بالفتح - : فعل الخير وأراد بالوالد : الأم ، أو ما يشمل الأب والأم.
(4). قوله «للهنة من الاساءة» في الصحاح «هن» : على وزن أخ : كلمة كناية. ومعناه : شيء ، ومؤنثه :
هنة. والقماءة : الصغر والحقارة. كذا في الصحاح (ع) [.....]

أى : إن كانت مثلا في الصغر والقماءة كحبة الخردل ، فكانت مع صغرها في أخفى موضع وأحرزه كجوف الصخرة «1» أو حيث كانت في العالم العلوي أو السفلى يَأْتِ بِهَا اللَّهُ يوم القيامة فيحاسب بها عاملها إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ يتوصل علمه إلى كل خفى خَبِيرٌ عالم بكنهه.

وعن قتادة : لطيف باستخراجها ، خبير بمستقرّها. ومن قرأ بالرفع : كان ضمير القصة ، وإنما أنث المثقال لإضافته إلى الحبة ، كما قال : كما شرقت صدر القناة من الدّم «2»

وروى أنّ ابن لقمان قال له : أرأيت الحبة تكون في مقل البحر - أى : في مغاصه - يعلمها الله؟ فقال : إنّ الله يعلم أصغر الأشياء في أخفى الأمكنة ، لأنّ الحبة في الصخرة أخفى منها في الماء.

وقيل : الصخرة هي التي تحت الأرض ، وهي السجين يكتب فيها أعمال الكفار. وقرئ : فتكن ، بكسر الكاف. من وكن الطائر يكن : إذا استقر في وكنته ، وهي مقره ليلا.

[سورة لقمان (31) : آية 17]

يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (17)

وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ يجوز أن يكون عاما في كل ما يصيبه من المحن ، وأن يكون خاصا بما يصيبه فيما أمر به من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : من أذى من يبعثهم على الخير وينكر عليهم الشر إِنَّ ذلِكَ مما عزمه الله من الأمور ، أى : قطعه قطع إيجاب والزام. ومنه الحديث «لا صيام لمن لم يعزم الصيام من الليل «3»» أى لم يقطعه بالنية : ألا ترى إلى قوله عليه السلام «لمن لم يبيت السيام» «4» ومنه «إنّ الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه» «5»

(1). قال محمود : «هذا من البديع الذي يسمى التتميم» قال أحمد : يعنى أنه تمم خلفاءها في نفسها بخفاء مكانها من الصخرة ، وهو من وادى قولها كأنه علم في رأسه نار.
(2). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 395 فراجعه إن شئت اه مصححه.
(3). تقدم في البقرة.
(4). تقدم أيضا.
(5). أخرجه ابن أبى شيبة وابن عدى من طريق أبى سلمة عن أبى هريرة «أن رجلا قال يا رسول الله ، أقصر الصلاة في سفري؟ قال : نعم ، إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بفريضته» وفيه عمر بن عبد الله بن أبى خشعم اليمامي وهو منكر الحديث : قاله ابن عدى ، وأخرجه أيضا من طريق سعد بن سعيد بن أبى سعيد ، حدثني أخى عبد الله عن أبيه. أن أبي هريرة مرفوعا نحوه ، ورواه ابن حبان وأحمد والبزار ، وأبو يعلى من رواية حرب ابن قيس عن نافع عن ابن عمر بلفظ «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه» وفي الباب عن ابن عباس. أخرجه ابن حبان والطبراني وأبو نعيم في الحلية من رواية هشام بن حسان عن عكرمة عنه بلفظ ابن عمر وعن ابن مسعود أخرجه الطبراني والعقيلي وأبو نعيم من رواية معمر بن عبد الله الأنصارى عن شعبة عن الحكم عن إبراهيم عن علقمة عنه تفرد برفعه معمر ، ووقفه غندر وروح بن عبادة وغيرهما عن شعبة. أخرجه ابن أبى شيبة وغيره. وعن عائشة : أخرجه ابن عدى من رواية الحكم بن عبد الله الأيلى عن القاسم عن عائشة ومن رواية عمر بن عبيد البصري عن هشام عن أبيه عنها والحكم وعمر ضعيفان. وأخرجه الطبراني في الأوسط من طريق إسماعيل بن عيسى العطار ، حدثنا عمر بن عبد الجبار ، حدثنا عبد الله بن زيد بن آدم عن أبى الدرداء وأبى أمامة وواثلة وأنس به وقال : لا يروى إلا بهذا الاسناد تفرد به إسماعيل. قلت : والاسناد مجهول. قوله «و قولهم عزمة من عزمات ربنا» هذا طرف من حديث أخرجه أبو داود والنسائي وأحمد والحاكم والبيهقي من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده ، في أثناء حديثه قال فيه «و من منعها يعنى الزكاة فانا آخذوها وشطر ماله عزمة من عزمات ربنا ليس لآل محمد منها شيء وإسناده حسن.

وقولهم : عزمة من عزمات ربنا. ومنه : عزمات الملوك. وذلك أن يقول الملك لبعض من تحت يده : عزمت عليك إلا فعلت كذا ، إذا قال ذلك لم يكن للمعزوم عليه بدّ من فعله ولا مندوحة في تركه.

وحقيقته : أنه من تسمية المفعول بالمصدر ، وأصله من معزومات الأمور ، أى : مقطوعاتها ومفروضاتها. ويجوز أن يكون مصدرا في معنى الفاعل. أصله : من عازمات الأمور ، من قوله تعالى فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ كقولك: جد الأمر ، وصدق القتال. وناهيك بهذه الآية مؤذنة بقدم هذه الطاعات ، وأنها كانت مأمورا بها في سائر الأمم، وأنّ الصلاة لم تزل عظيمة الشأن ، سابقة القدم على ما سواها ، موصى بها في الأديان كلها.

[سورة لقمان (31) : الآيات 18 إلى 19]

وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ (18) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (19)

تصاعر ، وتصعر : بالتشديد والتخفيف. يقال : أصعر خدّه ، وصعره ، وصاعره : كقولك أعلاه وعلاه وعالاه : بمعنى. والصعر والصيد : داء يصيب البعير يلوى منه عنقه. والمعنى : أقبل على الناس بوجهك تواضعا ، ولا تولهم شق وجهك وصفحته ، كما يفعل المتكبرون. أراد : وَلا تَمْشِ تمرح مَرَحاً أو أوقع المصدر موقع الحال بمعنى مرحا. ويجوز أن يريد : ولا تمش لأجل المرح والأشر ، أى لا يكن غرضك في المشي البطالة والأشر كما يمشى كثير من الناس لذلك ، لا لكفاية مهم دينى أو دنيوى. ونحوه قوله تعالى وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بَطَراً وَرِئاءَ النَّاسِ. والمختال : مقابل للماشي مرحا ، وكذلك الفخور للمصعر خدّه كبرا وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ واعدل فيه حتى يكون مشيا بين مشيين : لا تدب دبيب المتماوتين ، ولا تثب وثيب الشطار. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن» «1»

(1). جاء من حديث أبى هريرة وأبى سعيد وابن عمر ، وأخرجه ابن عدى من رواية عمار بن مطرد وهو لتروك ، وقد تابعه الوليد بن سلمة وهو أو هي منه ، لكنه قال : عن ابن أبى ذئب عن المغيرة عن أبى سعيد والوليد بن سلمة. وفيه إسناد آخر أخرجه ابن عدى من روايته عن عمرو بن صهبان عن نافع عن ابن عمر ، وأخرجه أبو نعيم في الحلية من طريق أبى معشر عن سعيد عن أبى هريرة وإسناده ضعيف أيضا

وأما قول عائشة في عمر رضى الله عنهما «كان إذا مشى أسرع» «1» فإنما أرادت السرعة المرتفعة عن دبيب المتماوت. وقرئ : وأقصد ، بقطع الهمزة ، أى : سدّد في مشيك من أقصد الرامي إذا سدّد سهمه نحو الرمية وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ وانقص منه واقصر ، من قولك : فلان يغض من فلان إذا قصر به ووضع منه أَنْكَرَ الْأَصْواتِ أوحشها ، من قولك : شيء نكر ، إذا أنكرته النفوس واستوحشت منه ونفرت. والحمار مثل في الذم البليغ والشتيمة ، وكذلك نهاقه. ومن استفحاشهم لذكره مجردا وتفاديهم من اسمه : أنهم يكنون عنه ويرغبون عن التصريح به ، فيقولون : الطويل الأذنين ، كما يكنى عن الأشياء المستقذرة : وقد عدّ في مساوي الآداب : أن يجرى ذكر الحمار في مجلس قوم من أولى المروءة. ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافا وإن بلغت منه الرجلة «2» ، فتشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير ، وتمثيل أصواتهم بالنهاق ، ثم إخلاء الكلام من لفظ التشبيه وإخراجه مخرج الاستعارة - وإن جعلوا حميرا وصوتهم نهاقا - ومبالغة شديدة في الذم والتهجين وإفراط في التثبيط عن رفع الصوت والترغيب عنه. وتنبيه على أنه من كراهة الله بمكان. فإن قلت : لم وحد صوت الحمير ولم يجمع؟ قلت : ليس المراد أن يذكر صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع ، وإنما المراد أن كل جنس من الحيوان الناطق له صوت ، وأنكر أصوات هذه الأجناس صوت هذا الجنس ، فوجب توحيده.

[سورة لقمان (31) : آية 20]

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَباطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ (20)

ما فِي السَّماواتِ الشمس والقمر والنجوم والسحاب وغير ذلك وَما فِي الْأَرْضِ البحار والأنهار والمعادن والدواب وما لا يحصى وَأَسْبَغَ وقرئ بالسين والصاد ، وهكذا كل سين اجتمع معه الغين والخاء والقاف ، تقول في سلخ ، صلخ ، وفي سقر : صقر ، وفي سالغ : صالغ «3»،

(1). ذكره ابن الأثير في النهاية ، قلت : لعله أخذه عن الفائق ، وفي الطبقات لابن سعد من رواية سليمان ابن أبى حثمة قال قالت الشفاء بنت عبد الله ، وهي أم سليمان : كان عمر إذا مشى ... فذكره.

(2). قوله «منه الرجلة» أى : المشي برجله ، يعنى : وإن أتعبه المشي وعدم الركوب. وفي الصحاح «الرجل» بالتحريك : مصدر قولك : رجل - بالكسر - أى : بقي راجلا. (ع)

(3). قوله «و في سالغ صالغ» في الصحاح : سلغت البقرة والشاة ، إذا أسقطت السن التي خلفت السديس والسلوغ في ذوات الأظلاف : بمنزلة البزول في ذوات الأخفاف. (ع)

وقرئ : نعمه ، ونعمة ، ونعمته. فإن قلت : ما النعمة؟ قلت : كل نفع قصد به الإحسان ، واللّه تعالى خلق العالم كله نعمة ، لأنه إما حيوان ، وإما غير حيوان. فما ليس بحيوان نعمة على الحيوان ، والحيوان نعمة من حيث أنّ إيجاده حيا نعمة عليه. لأنه لولا إيجاده حيا لما صح منه الانتفاع ، وكل ما أدى إلى الانتفاع وصححه فهو نعمة. فإن قلت : لم كان خلق العالم مقصودا به الإحسان؟ قلت : لأنه لا يخلقه إلا لغرض ، وإلا كان عبثا ، والعبث لا يجوز عليه ولا يجوز أن يكون لغرض راجع إليه من نفع ، لأنه غنى غير محتاج إلى المنافع ، فلم يبق إلا أن يكون لغرض يرجع إلى الحيوان وهو نفعه. فإن قلت : فما معنى الظاهرة والباطنة؟ قلت : الظاهرة كل ما يعلم بالمشاهدة ، والباطنة ما لا يعلم إلا بدليل ، أو لا يعلم أصلا ، فكم في بدن الإنسان من نعمة لا يعلمها ولا يهتدى إلى العلم بها ، وقد أكثروا في ذلك : فعن مجاهد : الظاهرة ظهور الإسلام والنصرة على الأعداء ، والباطنة : الأمداد من الملائكة. وعن الحسن رضى اللّه عنه : الظاهرة : الإسلام. والباطنة الستر. وعن الضحاك : الظاهرة: حسن الصورة ، وامتداد القامة. وتسوية الأعضاء. والباطنة : المعرفة. وقيل : الظاهرة البصر ، والسمع ، واللسان ، وسائر الجوارح الظاهرة. والباطنة : القلب ، والعقل ، والفهم ، وما أشبه ذلك. ويروى في دعاء موسى عليه السلام : إلهى ، دلني على أخفى نعمتك على عبادك ، فقال : أخفى نعمتي عليهم النفس. ويروى : أن أيسر ما يعذب به أهل النار : الأخذ بالأنفاس «1».

[سورة لقمان (31) : آية 21]

وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَوَ لَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ(21)

معناه أيتبعونهم وَلَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ أى في حال دعاء الشيطان إياهم إلى العذاب.

[سورة لقمان (31) : آية 22]

وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى وَإِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ (22)

قرأ على بن أبى طالب رضى اللّه عنه : ومن يسلم بالتشديد ، يقال : أسلم أمرك وسلم أمرك إلى اللّه. فإن قلت : ماله عدّى بإلى ، وقد عدّى باللام في قوله بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ؟ قلت : معناه مع اللام : أنه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالما للّه. أى خالصا له. ومعناه - مع إلى - :

---

(1). لم أجده.

أنه سلم إليه نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه. والمراد : التوكل عليه والتفويض إليه فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى من باب التمثيل : مثلت حال المتوكل بحال من أراد أن يتدلى من شاهق ، فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين مأمون انقطاعه وَإِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ أى هي صائرة إليه.

[سورة لقمان (31) : الآيات 23 إلى 24]

وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (23) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ (24)

قرئ : يحزنك ، ويحزنك : من حزن ، وأحزن. والذي عليه الاستعمال المستفيض : أحزنه ويحزنه. والمعنى : لا يهمنك كفر من كفر وكيده للإسلام ، فإن اللّه عزّ وجلّ دافع كيده في نحره ، ومنتقم منه ، ومعاقبه على عمله إِنَّ اللَّهَ يعلم ما في صدور عباده ، فيفعل بهم على حسبه نُمَتِّعُهُمْ زمانا قَلِيلًا بدنياهم ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ شبه إلزامهم التعذيب وإرهاقهم إياه باضطرار المضطرّ إلى الشيء الذي لا يقدر على الانفكاك «1» منه. والغلظ : مستعار من الأجرام الغليظة. والمراد الشدّة والثقل على المعذب.

[سورة لقمان (31) : الآيات 25 إلى 27]

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (25) لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (26) وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (27)

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ إلزام لهم على إقرارهم بأنّ الذي خلق السماوات والأرض هو الله وحده ، وأنه يجب أن يكون له الحمد والشكر. وأن لا يعبد معه غيره ، ثم قال بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ أنّ ذلك يلزمهم ، وإذا نبهوا عليه لم ينتبهوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ عن حمد الحامدين المستحق للحمد ، وإن لم يحمدوه.

(1). قال محمود : «شبه إلزامهم التعذيب باضطرار المضطر إلى الشيء الذي لا يقدر على الانفكاك منه» قال أحمد : وتفسير هذا الاضطرار في الحديث في أنهم لشدة ما يكابدون من النار يطلبون البرد ، فيرسل الله عليهم الزمهرير. فيكون عليهم كشدة اللهب ، فيتمنون عود اللهب اضطرارا ، فهو إخبار عن اضطرار. وبأذيال هذه البلاغة تعلق الكندي حيث يقول :
يرون الموت قداما وخلفا فيختارون والموت اضطرار

قرئ : والبحر ، بالنصب عطفا على اسم إنّ ، وبالرفع عطفا على محل إن ، ومعمولها على.

ولو ثبت «1» كون الأشجار أقلاما ، وثبت البحر ممدودا بسبعة أبحر. أو على الابتداء والواو للحال ، على معنى. ولو أنّ الأشجار أقلام في حال كون البحر ممدودا ، وفي قراءة ابن مسعود : وبحر يمدّه على التنكير ، ويجب أن يحمل هذا على الوجه الأوّل. وقرئ : يمدّه ، ويمدّه. وبالتاء والياء. فإن قلت : كان مقتضى الكلام أن يقال : ولو أنّ الشجر أقلام ، والبحر مداد. قلت : أغنى عن ذكر المداد قوله : يمدّه ، لأنه من قولك : مدّ الدواة وأمدّها ، جعل البحر الأعظم بمنزلة الدواة ، وجعل الأبحر السبعة مملوءة مدادا ، فهي تصب فيه مدادها أبدا صبا لا ينقطع. والمعنى : ولو أنّ أشجار الأرض أقلام ، والبحر ممدود بسبعة أبحر. وكتبت بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات الله ، لما نفدت كلماته ونفدت الأقلام والمداد ، كقوله تعالى قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي. فإن قلت : زعمت أنّ قوله وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ حال في أحد وجهى الرفع ، وليس فيه ضمير راجع إلى ذى الحال. قلت : هو كقوله : وقد اغتدى والطّير في وكناتها «2»

و: جئت والجيش مصطف ، وما أشبه ذلك من الأحوال التي حكمها حكم الظروف. ويجوز أن يكون المعنى : وبحرها ، والضمير للأرض. فإن قلت : لم قيل مِنْ شَجَرَةٍ على التوحيد دون اسم الجنس الذي هو شجر؟ قلت : أريد تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة ، حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدة إلا قد بريت أقلاما. فإن قلت : الكلمات جمع قلة ، والموضع موضع التكثير لا التقليل. فهلا قيل : كلم الله؟ قلت : معناه أنّ كلماته لا تفي بكتبتها البحار ، فكيف بكلمة؟

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أنها نزلت جوابا لليهود لما قالوا «قد أوتينا التوراة وفيها كل الحكمة» وقيل: إن المشركين قالوا : إنّ هذا يعنون الوحى - كلام سينفد ، فأعلم الله أن كلامه لا ينفد. وهذه الآية عند بعضهم مدنية ، وأنها نزلت بعد الهجرة ، وقيل هي مكية ، وإنما أمر اليهود وفد قريش أن يقولوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ألست تتلو فيما أنزل عليك : أنا قد أوتينا التوراة وفيها علم كل شيء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ لا يعجزه شيء حَكِيمٌ لا يخرج من علمه وحكمته شيء ، ومثله لا تنفد كلماته وحكمه.

(1). قوله «و معمولها على : ولو ثبت» لعله : على معنى ولو ... الخ. (ع)
(2) وقد اغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل
لامرئ القيس من معلقته. وقد : للتكثير. والوكنات : جمع وكنة بضمتين ، وبتثليث أوله وسكون ثانيه : موضع الطير الذي يبيت فيه ، والباء للملابسة ، والمجرد : دقيق الشعر قصيره. أو سريع الجري. وشبه الفرس بالقيد تشبيها بليغا : أى : لا تنفك منه الأوابد : وهي الوحوش ، ولا تفوته هيكل : عظيم الجسم.

[سورة لقمان (31) : آية 28]

ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ واحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (28)

إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ إلا كخلقها وبعثها ، أى : سواء في قدرته القليل والكثير ، والواحد والجمع ، لا يتفاوت ، وذلك أنه إنما كانت تفاوت النفس الواحدة والنفوس الكثيرة العدد : أن لو شغله شأن عن شأن وفعل عن فعل ، وقد

[سورة لقمان (31) : الآيات 29 إلى 30]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (29) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (30)
كل واحد من الشمس والقمر يجرى في فلكه ، ويقطعه إلى وقت معلوم : الشمس إلى آخر السنة ، والقمر إلى آخر الشهر. وعن الحسن : الأجل المسمى : يوم القيامة. لأنه لا ينقطع جريهما إلا حينئذ. دلّ أيضا بالليل والنهار وتعاقبهما وزيادتهما ونقصانهما وجرى النيرين في فلكيهما كل ذلك على تقدير وحساب ، وبإحاطته بجميع أعمال الخلق : على عظم قدرته وحكمته. فإن قلت : يجرى لأجل مسمى ، ويجرى إلى أجل مسمى : أهو من تعاقب الحرفين؟ قلت : كلا ، ولا يسلك هذه الطريقة إلا بليد الطبع ضيق العطن «1». ولكن المعنيين. أعنى الانتهاء والاختصاص كل واحد منهما ملائم لصحة الغرض لأنّ قولك يجرى إلى أجل مسمى : معناه يبلغه وينتهى كل واحد منهما ملائم لصحة الغرض ، لأنّ قولك يجرى إلى أجل مسمى : معناه يبلغه وينتهى إليه. وقولك : يجرى لأجل مسمى : تريد يجرى لإدراك أجل مسمى ، تجعل الجري مختصا بإدراك أجل مسمى. ألا ترى أن جرى الشمس مختص بآخر السنة ، وجرى القمر مختص بآخر الشهر ، فكلا المعنيين غير ناب به موضعه ذلِكَ الذي وصف من عجائب قدرته وحكمته التي يعجز عنها الأحياء القادرون العالمون. فكيف بالجماد الذي تدعونه من دون الله ، إنما هو بسبب أنه هو الحق الثابت إلهيته. وأنّ من دونه باطل الإلهية وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الشأن الْكَبِيرُ السلطان. أو ذلك الذي أوحى إليك من هذه الآيات بسبب بيان أنّ الله هو الحق ، وأنّ إلها غيره باطل ، وأنّ الله هو العلىّ الكبير عن أن يشرك به.

(1). قوله «إلا بليد الطبع ضيق العطن» في الصحاح : أنه مبرك الإبل عند الماء ، لتشرب عللا بعد نهل. (ع) [.....]

[سورة لقمان (31) : آية 31]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (31)

قرئ : الفلك ، بضم اللام. وكل فعل : يجوز فيه فعل ، كما يجوز في كل فعل فعل ، على مذهب التعويض. وبنعمات الله : بسكون العين. وعين فعلات يجوز فيها الفتح والكسر والسكون بِنِعْمَتِ اللَّهِ بإحسانه ورحمته صَبَّارٍ على بلائه شَكُورٍ لنعمائه ، وهما صفتا المؤمن ، فكأنه قال : إنّ في ذلك لآيات لكل مؤمن.

[سورة لقمان (31) : آية 32]

وَإِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (32)

يرتفع الموج ويتراكب ، فيعود مثل الظلل ، والظلة : كل ما أظلك من جبل أو سحاب أو غيرهما وقرئ : كالظلال ، جمع ظلة ، كقلة وقلال فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ متوسط في الكفر والظلم ، خفض من غلوائه ، وانزجر بعض الانزجار. أو مقتصد في الإخلاص الذي كان عليه في البحر ، يعنى أنّ ذلك الإخلاص الحادث عند الخوف ، لا يبقى لأحد قط ، والمقتصد قليل نادر. وقيل : مؤمن قد ثبت على ما عاهد عليه الله في البحر. والختر : أشدّ الغدر. ومنه قولهم : إنك لا تمدّ لنا شبرا من غدر إلا مددنا لك باعا من ختر ، قال : وإنّك لو رأيت أبا عمير ملأت يديك من غدر وختر «1»

[سورة لقمان (31) : آية 33]

يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (33)

لا يَجْزِي لا يقضى عنه شيئا. ومنه قيل للمتقاضى : المتجازى. وفي الحديث في جذعة

(1). الغدر : أشد الختر. وروى : أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم رأى رجلا عد بأصابع يده اليمنى : سبحان اللَّه والحمد للَّه ولا إله إلا اللَّه واللَّه أكبر ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العلى العظيم ، وبأصابع اليسرى : اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني واجبرني ، فقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : ملأت يديك خيرا ، شبه المعقول بالمحسوس على سبيل المكنية. وملء اليدين : تخييل ، وذكرهما لأن الرجل عد بهما ، فضربه الشاعر مثلا لحال أبى عمير ومن يراه على سبيل الاستعارة التمثيلية التهكمية ، فان من رآه وعد معايبه ، كأنه ملأ يديه شرا لا خيرا ، وحذف العد إشارة إلى أنه بمجرد الرؤية يحصل ذلك.

ابن نيار : تجزى عنك ولا تجزى عن أحد بعدك «1». وقرئ : لا يجزئ : لا يغنى «2». يقال : أجزأت عنك مجزأ فلان. والمعنى : لا يجزى فيه ، فحذف الْغَرُورُ الشيطان. وقيل : الدنيا وقيل : تمنيكم في المعصية المغفرة. وعن سعيد بن جبير رضى اللَّه عنه : الغرّة باللَّه : أن يتمادى الرجل في المعصية ويتمنى على اللَّه المغفرة. وقيل : ذكرك لحسناتك ونسيانك لسيئاتك غرّة.

وقرئ بضم الغين وهو مصدر غره غرورا ، وجعل الغرور غارّا ، كما قيل : جدّ جدّه ، أو أريد زينة الدنيا لأنها غرور. فإن قلت : قوله وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً وارد على طريق من التوكيد لم يرد عليه ما هو معطوف «3» عليه. قلت : الأمر كذلك ، لأنّ الجملة الاسمية آكد من الفعلية ، وقد انضم إلى ذلك قوله هُوَ وقوله مَوْلُودٌ والسبب في مجيئه على هذا السنن : أنّ الخطاب للمؤمنين وعليتهم «4» : قبض آباؤهم على الكفر وعلى الدين الجاهلى ، فأريد حسم أطماعهم وأطماع الناس فيهم : أن ينفعوا آباءهم في الآخرة ، وأن يشفعوا لهم ، وأن يغنوا عنهم من اللَّه شيئا ، فلذلك جيء به على الطريق الآكد. ومعنى التوكيد في لفظ المولود : أن الواحد منهم لو شفع للأب الأدنى الذي ولد منه ، لم تقبل شفاعته ، فضلا أن يشفع لمن فوقه من أجداده ، لأنّ الولد يقع على الولد وولد الولد ، بخلاف المولود فإنه لمن ولد منك.

[سورة لقمان (31) : آية 34]

إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ وَما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (34)

روى أنّ رجلا من محارب وهو الحرث بن عمرو بن حارثة أتى النبي صلى اللَّه عليه وسلم فقال : يا رسول اللَّه، أخبرنى عن الساعة متى قيامها ، وإنى قد ألقيت حباتى في الأرض وقد أبطأت عنا السماء ، فمتى تمطر؟ وأخبرنى عن امرأتى فقد اشتملت ما في بطنها ، أذكر أم أنثى؟

(1). تقدم في أوائل البقرة.
(2). قوله «و قرئ لا يجزئ لا يغنى» لعله : أى لا يغنى. (ع)
(3). قال محمود : «إن قلت : لم أكد الجملة الثانية دون الأولى؟ قلت : لأن أكثر المسلمين كان آباؤهم قد ماتوا على الكفر ، فلما كان إغناء الكافر عن المسلم بعيدا لم يحتج تأكيدا ، ولما كان إغناء المسلم عن الكافر قد يقع في الأوهام وكد نفيه» قال أحمد : وهذا الجواب تتوقف صحته على أن هذا الخطاب كان خاصا بالموجودين حينئذ ، والصحيح أنه عام لهم ولكل من ينطلق عليه اسم الناس ، فالجواب المعتبر - واللَّه أعلم - أن اللَّه تعالى لما أكد الوصية على الآباء ، وقرن شكرهم بوجوب شكره عز وجل ، وأوجب على الولد أن يكتفى والده ما يسوءه بحسب نهاية إمكانه قطع هاهنا وهم الوالد في ان يكون الولد في القيامة مجزيه بحقه عليه ، ويكفيه ما يلقاه من أهوال القيامة كما أوجب اللَّه عليه في الدنيا ذلك في حقه ، فلما كان إجزاء الولد عن الوالد مظنون الوقوع - لأن اللَّه حضه عليه في الدنيا - كان جديرا بتأكيد النفي لازالة هذا الوهم ، ولا كذلك العكس ، فهذا جواب كاف شاف للعليل ، إن شاء اللَّه تعالى.
(4). قوله «و عليتهم» أى أشرافهم وعظماؤهم. (ع)

وإنى علمت ما علمت أمس ، فما أعمل غدا؟ وهذا مولدي قد عرفته ، فأين أموت «1»؟ فنزلت وعن النبي صلى اللَّه عليه وسلم : «مفاتح الغيب خمس» «2» وتلا هذه الآية. وعن ابن عباس رضى اللَّه عنهما : من ادعى علم هذه الخمسة فقد كذب ، إياكم والكهانة فإن الكهانة تدعو إلى الشرك والشرك وأهله في النار. وعن المنصور أنه أهمه معرفة مدّة عمره ، فرأى في منامه كأن خيالا أخرج يده من البحر وأشار إليه بالأصابع الخمس ، فاستفتى العلماء في ذلك ، فتأوّلوها بخمس سنين ، وبخمسة أشهر ، وبغير ذلك ، حتى قال أبو حنيفة رحمه اللَّه : تأويلها أنّ مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا اللَّه ، وأن ما طلبت معرفته لا سبيل لك إليه عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ أيان مرساها وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ في إبانه من غير تقديم ولا تأخير ، وفي بلد لا يتجاوزه به وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ أذكر أم أنثى ، أتام أم ناقص ، وكذلك ما سوى ذلك من الأحوال وَما تَدْرِي نَفْسٌ برّة أو فاجرة ما ذا تَكْسِبُ غَداً من خير أو شر ، وربما كانت عازمة على خير فعملت شرا ، وعازمة على شر فعملت خيرا وَما تَدْرِي نَفْسٌ أين تموت ، وربما أقامت بأرض وضربت أوتادها وقالت : لا أبرحها وأقبر فيها ، فترمى بها مرامي القدر حتى تموت في مكان لم يخطر ببالها ، ولا حدّثتها به ظنونها. وروى أنّ ملك الموت مرّ على سليمان فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه ، فقال الرجل من هذا؟ قال : ملك الموت ، فقال : كأنه

والمعنى : أنها لا تعرف - وإن أعملت حيلها - ما يلصق بها ويختص ولا يتخطاها ، ولا شيء أخص بالإنسان من كسبه وعاقبته ، فإذا لم يكن له طريق إلى معرفتهما ، كان من معرفة ما عداهما أبعد. وقرئ : بأية أرض. وشبه سيبويه تأنيث «أىّ» بتأنيث «كل» في قولهم : كلتهنّ.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «من قرأ سورة لقمان كان له لقمان رفيقا يوم القيامة وأعطى من الحسنات عشرا عشرا بعدد من عمل بالمعروف ونهى عن المنكر «4».

(1). هكذا ذكره الواحدي والثعلبي بغير سند. وأخرجه الطبري وابن أبى حاتم من طريق ابن أبى نجيح عن مجاهد ، قال «جاء رجل من أهل البادية فقال يا محمد إن امرأتى حبلى فأخبرنى متى تلد؟ فذكره»
(2). أخرجه البخاري من حديث ابن عمر
(3). موقوف. رواه أحمد في الزهد وابن أبى شيبة قالا حدثنا عبد اللّه بن نمير عن الأعمش عن خيثمة عن شهر بن حوشب قال «دخل ملك الموت ، فذكره»
(4). أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم عن أبى بن كعب.

سورة السجدة

مكية [إلا من آية 16 إلى غاية آية 20 فمدنية] وآياتها 30 وقيل 29 [نزلت بعد المؤمنون]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة السجده (32) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (1) تَنْزِيلُ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (2) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (3)

الم على أنها اسم السورة مبتدأ خبره تَنْزِيلُ الْكِتابِ وإن جعلتها تعديدا للحروف ارتفع تَنْزِيلُ الْكِتابِ بأنه خبر مبتدإ محذوف : أو هو مبتدأ خبره لا رَيْبَ فِيهِ والوجه أن يرتفع بالابتداء ، وخبره مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ ولا رَيْبَ فِيهِ: اعتراض لا محل له. والضمير في فِيهِ راجع إلى مضمون الجملة ، كأنه قيل : لا ريب في ذلك ، أى في كونه منزلا من رب العالمين ويشهد لوجاهته قوله أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ لأنّ قولهم : هذا مفترى ، إنكار لأن يكون من رب العالمين ، وكذلك قوله بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وما فيه من تقدير أنه من الله ، وهذا أسلوب صحيح محكم: أثبت أوّلا أن تنزيله من رب العالمين ، وأن ذلك ما لا ريب فيه ، ثم أضرب عن ذلك إلى قوله أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ لأن «أم» هي المنقطعة الكائنة بمعنى : بل والهمزة ، إنكارا لقولهم وتعجيبا منه لظهور أمره : في عجز بلغائهم عن مثل ثلاث آيات منه ، ثم أضرب عن الإنكار إلى إثبات أنه الحق من ربك. ونظيره أن يعلل العالم في المسألة بعلة صحيحة جامعة ، قد احترز فيها أنواع الاحتراز ، كقول المتكلمين : النظر أوّل الأفعال الواجبة على الإطلاق التي لا يعرى عن وجوبها مكلف ، ثم يعترض عليه فيها ببعض ما وقع احترازه منه ، فيرده بتلخيص أنه احترز من ذلك ، ثم يعود إلى تقرير كلامه وتمشيته. فإن قلت : كيف نفى أن يرتاب في أنه من الله، وقد أثبت ما هو أطم من الريب ، وهو قولهم افْتَراهُ؟ قلت : معنى لا رَيْبَ فِيهِ أن لا مدخل للريب في أنه تنزيل الله ، لأن نافى الريب ومميطه معه لا ينفك عنه وهو كونه معجزا للبشر ، ومثله أبعد شيء من الريب. وأما قولهم افْتَراهُ فإما قول متعنت مع علمه أنه من الله لظهور الإعجاز له ، أو جاهل يقوله قبل التأمل والنظر لأنه سمع الناس يقولونه ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ كقوله : ما أنذر آباؤهم ، وذلك أن قريشا لم يبعث الله إليهم رسولا «1» قبل محمد صلى الله عليه وسلّم. فإن قلت : فإذا لم يأتهم نذير لم تقم عليهم حجة. قلت : أما قيام الحجة بالشرائع التي لا يدرك علمها إلا بالرسل فلا ، وأما قيامها بمعرفة الله وتوحيده وحكمته فنعم ، لأن أدلة العقل الموصلة إلى ذلك معهم في كل زمان لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ فيه وجهان : أن يكون على الترجي من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ على الترجي من موسى وهرون عليهما السلام ، وأن يستعار لفظ الترجي للإرادة.

[سورة السجده (32) : آية 4]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (4)

فإن قلت : ما معنى قوله ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ؟ قلت : هو على معنيين ، أحدهما : أنكم إذا جاوزتم رضاه لم تجدوا لأنفسكم وليا ، أى : ناصرا ينصركم ولا شفيعا يشفع لكم. والثاني : أن الله وليكم الذي يتولى مصالحكم ، وشفيعكم أى ناصركم على سبيل المجاز ، لأن الشفيع ينصر المشفوع له ، فهو كقوله تعالى وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ فإذا خذلكم لم يبق لكم ولىّ ولا نصير.

[سورة السجده (32) : آية 5]

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (5)

الْأَمْرَ المأمور به من الطاعات والأعمال الصالحة ينزله مدبرا مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثم لا يعمل به ولا يصعد إليه ذلك المأمور به خالصا كما يريده ويرتضيه إلا في مدة متطاولة ، لقلة عمال الله والخلص من عباده وقلة الأعمال الصاعدة ، لأنه لا يوصف بالصعود إلا الخالص،

(1). قال محمود : «يعنى قريشا لأنها لم يبعث لها نبى قط. فان قلت : إن لم يتقدم بعث نبى إليهم فيما قامت عليهم الحجة. قلت : قيام الحجة بالشرائع التي لا يدرك علمها إلا بالرسل لا سبيل إليه. وأما قيامها بمعرفة الله تعالى وتوحيده وحكمته فنعم ، لأن أدلة العقل معهم في كل زمان» قال أحمد : مذهب أهل السنة : أنه لا يدرك علم شيء من أحكام الله تعالى التكليفية إلا بالشرع وما ذكره الزمخشري تفريع على قاعدة التحسين والتقبيح بالعقل ، وقد مجها السمع فلم يبح بها القلم ، فأعرض عنه حتى يخوض في حديث غيره. وإنما قامت الحجة على العرب يمن تقدم من الرسل إليهم كأبيهم إسماعيل وغيره ، والمراد بقوله تعالى ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ يعنى ذرية العرب في زمانه عليه الصلاة والسلام ، إذ لم يبعث إليهم نذير معاصر ، فلطف الله تعالى بهم وبعث فيهم رسولا منهم.

ودل عليه قوله على أثره قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ أو يدبر أمر الدنيا كلها من السماء إلى الأرض : لكل يوم من أيام الله وهو ألف سنة ، كما قال وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ، ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ أى يصير إليه ، ويثبت عنده ، ويكتب في صحف ملائكته كل وقت من أوقات هذه المدّة : ما يرتفع من ذلك الأمر ويدخل تحت الوجود إلى أن تبلغ المدة آخرها ، ثم يدبر أيضا ليوم آخر ، وهلم جرا إلى أن تقوم الساعة. وقيل : ينزل الوحى مع جبريل عليه السلام من السماء إلى الأرض ، ثم يرجع إليه ما كان من قبول الوحى أو ردّه مع جبريل ، وذلك في وقت هو في الحقيقة ألف سنة ، لأن المسافة مسيرة ألف سنة في الهبوط والصعود ، لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة ، وهو يوم من أيامكم لسرعة جبريل ، لأنه يقطع مسيرة ألف سنة في يوم واحد. وقيل : يدبر أمر الدنيا من السماء إلى الأرض إلى أن تقوم الساعة ، ثم يعرج إليه ذلك الأمر كله ، أى يصير إليه ليحكم فيه فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ وهو يوم القيامة. وقرأ ابن أبى عبلة : يعرج ، على البناء للمفعول. وقرئ : يعدون ، بالتّاء والياء.

[سورة السجده (32) : الآيات 6 إلى 9]

ذلِكَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (6) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ (8) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (9)

أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ حسنه ، لأنه ما من شيء خلقه إلا وهو مرتب على ما اقتضته الحكمة وأوجبته المصلحة ، فجميع المخلوقات حسنة وإن تفاوتت إلى حسن وأحسن ، كما قال لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ وقيل : علم كيف يخلقه من قوله : قيمة المرء ما يحسن. وحقيقته ، يحسن معرفته أى يعرفه معرفة حسنة بتحقيق وإتقان. وقرئ : خلقه : على البدل ، أى : أحسن ، فقد خلق كل شيء «1» وخلقه : على الوصف ، أى : كل شيء خلقه فقد أحسنه. سميت الذرية نسلا لأنها تنسل منه ، أى : تنفصل منه وتخرج من صلبه «2» ونحوه قولهم للولد : سليل ونجل ، وسَوَّاهُ قوّمه ،

(1). قوله «أى أحسن فقد خلق كل شي ء» لعل لفظ «فقد» مزيدة من قلم الناسخ. وعبارة النسفي : على البدل ، أى : أحسن خلق كل شيء ويمكن أنه ليس مزيدا ، بل هذا حاصل المعنى على البدل ، كما أن عكسه الآتي هو حاصل المعنى على الوصف. (ع)
(2). قوله «و تخرج من صلبه» لعل قبله سقطا تقديره : كما سميت النطفة سلالة ، لأنها تسل منه. وفي الصحاح «النجل» : النسل. ونجله أبوه ، أى : ولده. (ع)

كقوله تعالى فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ودل بإضافة الروح إلى ذاته على أنه خلق عجيب لا يعلم كنهه إلا هو ، كقوله وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ... الآيَةَ كأنه قال : ونفخ فيه من الشيء الذي اختص هو به وبمعرفته.

[سورة السجده (32) : الآيات 10 إلى 11]

وَقالُوا أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ (10) قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (11)

وَقالُوا قيل القائل أبى بن خلف ، ولرضاهم بقوله أسند إليهم جميعا. وقرئ : أئنا.

وأنا ، على الاستفهام وتركه ضَلَلْنا صرنا ترابا ، وذهبنا مختلطين بتراب الأرض ، لا نتميز منه ، كما يضل الماء في اللبن أو غبنا فِي الْأَرْضِ بالدفن فيها ، من قوله : وآب مضلّوه بعين جليّة «1»

وقرأ علي وابن عباس رضى الله عنهما : ضللنا ، بكسر اللام. يقال : ضل يضل وضل يضل. وقرأ الحسن رضى الله عنه : صللنا ، من صلّ اللحم وأصلّ : إذا أنتن. وقيل : صرنا من جنس الصلة وهي الأرض. فإن قلت : بم انتصب الظرف في أَإِذا ضَلَلْنا؟ قلت : بما يدل عليه إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ وهو نبعث. أو يجدد خلقنا. لقاء ربهم : هو الوصول إلى العاقبة ، من تلقى ملك الموت وما وراءه ، فلما ذكر كفرهم بالإنشاء ، أضرب عنه إلى ما هو أبلغ في الكفر ، وهو أنهم كافرون بجميع ما يكون في العاقبة ، لا بالإنشاء وحده : ألا ترى كيف خوطبوا بتوفي ملك الموت وبالرجوع إلى ربهم بعد ذلك مبعوثين للحساب والجزاء ، وهذا معنى لقاء الله على ما ذكرنا والتوفي : استيفاء النفس وهي الروح. قال الله تعالى اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ وقال : أخرجوا أنفسكم ، وهو أن يقبض كلها لا يترك منها شيء. من قولك : توفيت حقي من فلان ، واستوفينه إذا أخذته وافيا كاملا من غير نقصان. والتفعل والاستفعال : يلتقيان في مواضع : منها : تقصيته واستقصيته ، وتعجلته واستعجلته. وعن مجاهد رضى الله عنه : حويت لملك الموت الأرض ، وجعلت له مثل الطست ، يتناول منها حيث يشاء. وعن قتادة : يتوفاهم ومعه أعوان من الملائكة.

وقيل : ملك الموت : يدعو الأرواح فتجيبه ، ثم يأمر أعوانه بقبضها.

(1) وآب مضلوه بعين جلية وغودر بالجولان حزم ونائل

يرثى ميتا. والإياب : الرجوع. والإضلال : الدفق والتغيب. وجولان : جبل بالشام. والنائل : العطاء يعنى : بترك ذلك الموصوف بالحزم والكرم ، فقد ترك الوصفات هناك.

[سورة السجده (32) : الآيات 12 إلى 14]

وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ (12) وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها وَلكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (13) فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا إِنَّا نَسِيناكُمْ وَذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (14)

وَلَوْ تَرى يجوز أن يكون خطابا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيه وجهان : أن يراد به التمني ، كأنه قال : وليتك ترى ، كقوله صلى الله عليه وسلم للمغيرة : «لو نظرت إليها» «1» والتمني لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما كان الترجي له في لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ لأنه تجرع منهم الغصص ومن عداوتهم وضرارهم ، فجعل الله له تمنى أن يراهم على تلك الصفة الفظيعة من الحياء والخزي والغم ليشمت بهم ، وأن تكون لو الامتناعية قد حذف جوابها ، وهو : لرأيت أمرا فظيعا. أو : لرأيت أسوأ حال ترى. ويجوز : أن يخاطب به كل أحد ، كما تقول : فلان لئيم ، إن أكرمته أهانك ، وإن أحسنت إليه أساء إليك ، فلا تريد به مخاطبا بعينه ، فكأنك قلت : إن أكرم وإن أحسن إليه ، ولو وإذ : كلاهما للمضى ، وإنما جاز ذلك ، لأن المترقب من الله بمنزلة الموجود المقطوع به في تحققه ، ولا يقدر لترى ما يتناوله ، كأنه قيل : ولو تكون منك الرؤية ، وإذ ظرف له. يستغيثون بقولهم رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فلا يغاثون ، يعنى : أبصرنا صدق وعدك ووعيدك وسمعنا منك تصديق رسلك. أو كنا عميا وصما فأبصرنا وسمعنا فَارْجِعْنا هي الرجعة إلى الدنيا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها على طريق الإلجاء والقسر ، ولكننا بنينا الأمر على الاختيار «2» دون الاضطرار ، فاستحبوا العمى على الهدى ، فحقت كلمة العذاب على أهل العمى دون البصراء. ألا ترى إلى ما عقبه به من قوله فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ فجعل ذوق العذاب نتيجة فعلهم : من نسيان العاقبة ،

(1). هذا طرف من حديث أخرجه الترمذي ، والنسائي وابن ماجة وابن أبى شيبة وابن حبان. والحاكم.

وأحمد والبزار. وغيرهم من حديث المغيرة «أنه خطب امرأة فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم انظر إليها فانه أحرى أن يؤدم بينكما» ورواه أبو عبيد في الغريب بلفظ أنه قال للمغيرة وقد خطب امرأة «لو نظرت إليها» الحديث. [.....]

(2). قوله «و لكننا بنينا الأمر على الاختيار» لما أوجب المعتزلة على الله الصلاح قالوا : إنه قد شاء الهدى للكل ، ولكن مشيئة تخيير ، لا مشيئة إجبار ، فلذا لم يهتد الكل بل البعض ، ولو شاء مشيئة قسر لاهتدى الكل.

وأهل السنة لم يوجبوا على الله شيئا ، وقالوا : كل ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، خيرا كان أو شرا. واستلزام الارادة لوقوع المراد لا يستلزم القسر والإجبار للعباد ، لما لهم من الكسب في أفعالهم ، وإن كانت في الحقيقة مخلوقة لله تعالى ، كما تقرر في علم التوحيد. (ع)

وقلة الفكر فيها ، وترك الاستعداد لها. والمراد بالنسيان : خلاف التذكر ، يعنى : أن الانهماك في الشهوات أذهلكم وألهاكم عن تذكر العاقبة وسلط عليكم نسيانها ، ثم قال إِنَّا نَسِيناكُمْ على المقابلة ، أى : جازيناكم جزاء نسيانكم. وقيل : هو بمعنى الترك ، أى : تركتم الفكر في العاقبة ، فتركناكم من الرحمة. وفي استئناف قوله إنا نسيناكم وبناء الفعل على إن واسمها تشديد في الانتقام منهم والمعنى فذوقوا هذا أى ما أنتم فيه من نكس

[سورة السجده (32) : الآيات 15 إلى 17]

إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنَا الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (15) تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (16) فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (17)

إِذا ذُكِّرُوا بِها أى وعظوا : سجدوا تواضعا للّه وخشوعا ، وشكرا على ما رزقهم من الإسلام وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ونزهوا اللّه من نسبة القبائح إليه ، وأثنوا عليه حامدين له وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ كما يفعل من يصر مستكبرا كأن لم يسمعها ، ومثله قوله تعالى إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ سُجَّداً وَيَقُولُونَ سُبْحانَ رَبِّنا : تَتَجافى ترتفع وتتنحى عَنِ الْمَضاجِعِ عن الفرش ومواضع النوم ، داعين ربهم عابدين له ، لأجل خوفهم من سخطه وطمعهم في رحمته ، وهم المتهجدون. وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في تفسيرها «قيام العبد من الليل» «3» وعن الحسن رضى اللّه عنه : أنه التهجد. وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «إذا جمع اللّه الأولين والآخرين يوم القيامة جاء مناد ينادى بصوت يسمع الخلائق كلهم : سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم. ثم يرجع فينادى : ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، فيقومون وهم قليل. ثم يرجع فينادى : ليقم الذين كانوا يحمدون اللّه في البأساء والضراء ،

(1). قال محمود : «معناه بما كنتم تعملون من الكفر والكبائر الموبقة» قال أحمد : قد تمهد من مذاهب أهل السنة أن المقتضى لاستحقاق الخلود في العذاب هو الكفر خاصة. وأما ما دونه من الكبائر فلا يوجب خلودا ، والمسألة سمعية ، وأدلتها من الكتاب والسنة قطعية ، خلافا للقدرية.
(2). قوله «و الكبائر الموبقة» أى : المهلكة. (ع)
(3). أخرجه أحمد وابن أبى شيبة وإسحاق والحاكم من رواية أبى وائل عن معاذ في أثناء حديث مرفوع قال «و صلاة الرجل في جوف الليل ثم قرأ : تتجافى جنوبهم عن المضاجع»

فيقومون وهم قليل ، فيسرحون جميعا إلى الجنة. ثم يحاسب سائر الناس» «1». وعن أنس بن مالك رضى اللّه عنه : كان أناس من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يصلون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء الآخرة ، فنزلت فيهم «2». وقيل : هم الذين يصلون صلاة العتمة لا ينامون عنها ما أُخْفِيَ لَهُمْ على البناء للمفعول. ما أخفى لهم على البناء للفاعل ، وهو اللّه سبحانه. وما أخفى لهم. وما نخفى لهم. وما أخفيت لهم : الثلاثة للمتكلم ، وهو اللّه سبحانه. وما : بمعنى الذي ، أو بمعنى أى «3». وقرئ : من قرّة أعين. وقرات أعين. والمعنى : لا تعلم النفوس - كلهنّ ولا نفس واحدة منهنّ لا ملك مقرب ولا نبىّ مرسل - أىّ نوع عظيم من الثواب ادخر اللّه لأولئك وأخفاه من جميع خلائقه ، لا يعلمه إلا هو مما تقر به عيونهم ، ولا مزيد على هذه العدة ولا مطمح وراءها ، ثم قال جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ فحسم أطماع المتمنين «4» : وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «يقول اللّه تعالى : أعددت لعبادي الصالحين «5» ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ،

(1). أخرجه إسحاق وأبو يعلى من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد مطولا وهو عند الحاكم باختصار
(2). أخرجه ابن مردويه من رواية الحرث بن رحبة عن مالك بن دينار «سألت أنس بن مالك عن قوله تعالى تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ - الآية فقال : كان ناس - فذكره» ورواه أبو داود من حديث سعيد عن قتادة عن أنس نحوه ، قال : وكان الحسن يقول «هو قيام الليل» والبزار من طريق زيد بن أسلم عن أبيه. قال قال بلال «كنا نجلس وناس من أصحاب النبي صلى اللّه عليه وسلم يصلون بعد المغرب إلى العشاء فنزلت هذه الآية» قال : ولا نعلم له طريقا إلا هذه. ولا روى أسلم عن بلال غيره
(3). قوله «أو بمعنى أى» لعله : أى شيء (ع)
(4). قال محمود : «هذا حسم لأطماع المتمنين» قال أحمد : يشير إلى أهل السنة لاعتقادهم أن المؤمن العاصي موعود بالجنة ، ولا بد من دخوله إياها وفاء بالوعد الصادق ، وأن أحدا لا يستحق على اللّه بعمله شيئا ، فلما وجد قوله تعالى جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ اغتنم الفرصة في الاستشهاد على معتقد القدرية في أن الأعمال أسباب موجبة للجزاء ، ولا دليل في ذلك لمعتقدهم مع قوله صلى اللّه عليه وسلم «لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله ، قيل : ولا أنت يا رسول اللّه؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني اللّه بفضل منه ورحمة» فهذا الحديث يوجب حمل الآية على وجه يجمع بينها وبينه ، وذلك إما أن تحمل الآية على أن المراد منها قسمة المنازل بينهم في الجنة فانه على حسب الأعمال ، وليس بذاك فان المذكور في الآية مجرد دخول الجنة لا اقتسام درجاتها. وإما أن تحمل - وهو الظاهر ، واللّه أعلم - على أن اللّه تعالى لما وعد المؤمن جنته - ووعده يجب أن يكون حقا وصدقا ، تعالى وتقدس - صارت الأعمال بالوعد كأنها أسباب موجبات ، فعوملت في هذه العبارة معاملتها ، والمقصود من ذلك : تأكيد صدق الوعد في النفوس ، وتصوره بصورة المستحق بالعمل ، كالأجرة المستحقة شاهدا على العمل من باب مجاز التشبيه ، واللّه أعلم. وذكر الزمخشري الحديث المشهور وهو «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، اقرؤا إن شئتم فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين» وكان جدي رحمه اللّه يستحسن أن تقرأ الآية تلو الحديث المذكور بسكون الياء من أخفى ، ورده إلى المتكلم ، وهي من القراآت

(5). متفق عليه من طريق أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رضى اللّه عنه.

بله «1» ما أطلعتهم عليه ، اقرؤا إن شئتم : فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين» وعن الحسن رضى اللّه عنه : أخفى القوم أعمالا في الدنيا ، فأخفى اللّه لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

[سورة السجده (32) : الآيات 18 إلى 21]

أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ (18) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى نُزُلاً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (19) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْواهُمُ النَّارُ كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (20) وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21)

كانَ مُؤْمِناً وكانَ فاسِقاً محمولان على لفظ من ، ولا يَسْتَوُونَ محمول على المعنى ، بدليل قوله تعالى أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا ... وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا ونحوه قوله تعالى وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ. وجَنَّاتُ الْمَأْوى نوع من الجنان : قال اللّه تعالى وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى سميت بذلك لما روى عن ابن عباس رضى اللّه عنه قال : تأوى إليها أرواح الشهداء. وقيل : هي عن يمين العرش. وقرئ : جنة المأوى ، على التوحيد نُزُلًا عطاء بأعمالهم. والنزل : عطاء النازل ، ثم صار عاما فَمَأْواهُمُ النَّارُ أى ملجؤهم ومنزلهم. ويجوز أن يراد : فجنة مأواهم النار ، أى النار لهم ، مكان جنة المأوى للمؤمنين : كقوله فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ ، الْعَذابِ الْأَدْنى عذاب الدنيا من القتل والأسر ، وما محنوا به من السنة «2» سبع سنين. وعن مجاهد رضى اللّه عنه : عذاب القبر. والْعَذابِ الْأَكْبَرِ عذاب الآخرة ، أى : نذيقهم عذاب الدنيا قبل أن يصلوا إلى الآخرة لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ أى يتوبون «3» عن الكفر ، أو لعلهم يريدون الرجوع ويطلبونه ، كقوله تعالى فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً وسميت إرادة الرجوع رجوعا ،

(1). قوله «بله ما أطلعتهم عليه» في الصحاح «بله» : كلمة مبنية على الفتح مثل كيف ، ومعناها : دع ، كما أجازه ، الأخفش في قول كعب بن مالك :
تذر الجماجم ضاحيا هاماتها بله الأكف كأنها لم تخلق
ويقال : معناها سوى. وفي الحديث : «أعددت لعبادي ... الخ». (ع)
(2). قوله «و ما محنوا به من السنة» أى المجدبة. أو المراد بها الجدب ، كما يؤخذ من الصحاح. (ع)
(3). قال محمود : «معناه لعلهم يتوبون. فان قلت : من أين صح تفسير الرجوع بالتوبة ولعل من اللّه إرادة ، وإذا أراد اللّه شيئا كان ، وتوبتهم مما لا يكون ، لأنهم لو تابوا لم يكونوا ذائقين العذاب الأكبر. قلت : إرادة اللّه تعالى تتعلق بأفعاله وأفعال عباده فإذا أراد شيئا من أفعاله كان ولم يمتنع ، للاقتدار وخلوص الداعي. وأما أفعال عباده فاما أن يريدها وهم مختارون لها ، أو مضطرون إليها بقسره ، فان أرادها وقد قسرهم عليها فحكمها حكم أفعاله ، وإن أرادها على أن يختاروها وهو عالم أنهم لا يختارونها لم يقدح ذلك في اقتداره ، كما لا يقدح في اقتدارك :
إرادتك أن يختار عبدك الطاعة لك وهو لا يختارها ، لأن اختيارها لا يتعلق بقدرتك فلا يكون فقده عجزا منك» قال أحمد : هذا الفصل ردىء جدا مفرع على الإشراك الجلى لا على الاشراك الخفي ، فاعتصم بدليل الوحدانية على رده واجتنابه من أصله ، واللّه المستعان. وإنما جره في تفسير لعل إلى الارادة ، والحق في تفسيرها أنها لترجى المخاطبين امتناع الترجي على اللّه تعالى ، كذا فسرها سيبويه فيما تقدم ، واللّه أعلم.

كما سميت إرادة القيام قياما في قوله تعالى إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ ويدل عليه قراءة من قرأ : يرجعون ، على البناء للمفعول. فإن قلت : من أين صح تفسير الرجوع بالتوبة؟ و«لعل» من اللّه إرادة ، وإذا أراد اللّه شيئا كان ولم يمتنع ، وتوبتهم مما لا يكون ، ألا ترى أنها لو كانت مما يكون لم يكونوا ذائقين العذاب الأكبر؟ قلت : إرادة اللّه تتعلق بأفعاله وأفعال عباده ، فإذا أراد شيئا من أفعاله كان ولم يمتنع ، للاقتدار وخلوص الداعي. وأما أفعال عباده : فإما أن يريدها وهم مختارون لها ، أو مضطرون إليها بقسره وإلجائه ، فإن أرادها وقد قسرهم عليها فحكمها حكم أفعاله ، وإن أرادها على أن يختاروها وهو عالم أنهم لا يختارونها لم يقدح ذلك في اقتداره «1» ، كما لا يقدح في اقتدارك إرادتك أن يختار عبدك طاعتك وهو لا يختارها ، لأنّ اختياره لا يتعلق بقدرتك ، وإذا لم يتعلق بقدرتك لم يكن فقده دالا على عجزك. وروى في نزولها : أنه شجر بين على بن أبى طالب رضى اللّه عنه والوليد بن عقبة بن أبى معيط يوم بدر كلام ، فقال له الوليد : اسكت فإنك صبىّ : أنا أشبّ منك شبابا ، وأجلد منك جلدا ، وأذرب منك لسانا ، وأحدّ منك سنانا ، وأشجع منك جنانا ، وأملأ منك حشوا في الكتيبة. فقال له على رضى اللّه عنه : اسكت ، فإنك فاسق «2» ، فنزلت عامّة للمؤمنين والفاسقين ، فتناولتهما وكل من كان في مثل حالهما «3». وعن الحسن بن على رضى اللّه عنهما : أنه قال للوليد : كيف تشتم عليا وقد سماه اللّه مؤمنا في عشر آيات ، وسماك فاسقا؟

(1). قوله «لم يقدح ذلك في اقتداره» أى عدم وقوعها وعدم اختيارهم إياها ، فهذا على مذهب المعتزلة : من أنه قد يريد الشيء ولا يكون ، ومذهب أهل السنة : أن كل ما أراده اللَّه كان. (ع)
(2). أخرجه ابن مردويه والواحدي من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال الوليد بن عقبة بن أبى معيط لعلى : أنا أحد منك سنانا وأبسط منك لسانا وأملأ منك للكتيبة. فقال له على : اسكت يا فاسق ، فإنما أنت فاسق.
فنزلت» وله طريق أخرى عند ابن مردويه من رواية الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس رضى اللَّه عنهما «تنبيه» قوله : أن ذلك شجر بينهما يوم بدر ، غلط فاحش. فما كان الوليد حينئذ رجلا [.....]
(3). قال محمود : «سبب نزولها أنه شجر بين على بن أبى طالب كرم اللَّه وجهه والوليد ابن عقبة يوم بدر كلام فقال له الوليد اسكت فإنك صبى أنا أشب منك شبابا وأجلد جلدا وأذرب لسانا وأحد منك سنانا وأشجع جنانا وأملأ حشوا في الكتيبة ، فقال له على : اسكت فإنك فاسق. قال الزمخشري : فنزلت عامة للمؤمنين والكافرين تتناولهما معا» قال أحمد : ذكر للسبب المحقق : لأن المراد بالفاسق وبالذين فسقوا : الذين كفروا ، لأنها نزلت في الوليد وهو كافر حينئذ ، ثم أدرج فيه المؤمن تعصبا لمذهبه في وجوب خلود فساق المؤمنين كفساق الكافرين.
فلم يزل يورد هذه العقائد الفواسد ، ولقد اتسع الخرق على الراقع.

[سورة السجده (32) : آية 22]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (22)

ثم في قوله ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها للاستبعاد. والمعنى : أنّ الإعراض عن مثل آيات اللَّه في وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السبيل والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد في العقل والعدل ، كما تقول لصاحبك : وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها استبعادا لتركه الانتهاز. ومنه ثم في بيت الحماسة : لا يكشف الغمّاء إلا ابن حرّة يرى غمرات الموت ثمّ يزورها «1»

استبعد أن يزور غمرات الموت بعد أن رآها واستيقنها واطلع على شدّتها. فإن قلت : هلا قيل : إنا منه منتقمون؟ قلت : لما جعله أظلم كل ظالم ثم توعد المجرمين عامة بالانتقام منهم ، فقد دلّ على إصابة الأظلم النصيب الأوفر من الانتقام ، ولو قاله بالضمير لم يفد هذه الفائدة.

[سورة السجده (32) : الآيات 23 إلى 25]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ (23) وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَكانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ (24) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (25)

(1) ولا يكشف الغماء إلا ابن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها
نقاسمهم أسيافنا شر قسمة ففينا غواشيها وفيهم صدورها
لجعفر بن علبة الحارثي ، شبه الداهية الغماء بأمر محسوس يغشى الناس ويغطيهم على طريق المكنية ، والكشف تخييل وقال «ابن حرة» أى كريم ، ليكون تهييجا للسامع وبعثا له على الهيجاء. والغمرة : الشدة. وغمرات الموت : شدائده وأهواله ، كأحوال المعركة الشديدة. وقوله «ثم يزورها» أى يلاقيها برغبة ، كلقاء المحبوب ، وعطفه بثم ، لأن بين رؤية الأهوال المفزعة ، وبين الانحدار إليها برغبة بون بعيد في العادة والتعقل. وشبه السيوف ممتدة متوسطة بينهم بشيء تجرى فيه المقاسمة ، وتقاسمهم تخييل لذلك ، ثم فرع على تلك المقاسمة أن لهم غواشيها ، أى ما يغشاهم منها وهي مقابضها. أو لأنها زائدة على النصل فهي غاشية له ولأعدائه «صدورها» أى أطرافها المتقدمة منها. وصدر كل شيء : مقدمه. وعبر بفي دون اللام ، لأن «في» تفيد مجرد اشتمال الأعداء على الصدور لدخولها في أجسامهم ، واللام تفيد التملك وليس مرادا ، وإن كان مقتضى القسمة ، فلعله دفع توهمه بالعدول إلى «في» وذكرها أولا تمهيدا للثانية.

الْكِتابَ للجنس والضمير في لِقائِهِ له. ومعناه : إنا آتينا موسى عليه السلام مثل ما آتيناك من الكتاب ، ولقيناه مثل ما لقيناك من الوحى ، فلا تكن في شك من أنك لقيت مثله ولقيت نظيره كقوله تعالى : فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ ونحو قوله مِنْ لِقائِهِ قوله وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ وقوله وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً. وجعلنا الكتاب المنزل على موسى عليه السلام هُدىً لقومه وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ الناس ويدعونهم إلى ما في التوراة من دين اللَّه وشرائعه ، لصبرهم وإيقانهم بالآيات. وكذلك لنجعلنّ الكتاب المنزل إليك هدى ونورا ، ولنجعلنّ من أمّتك أئمة يهدون مثل تلك الهداية لما صبروا عليه من نصرة الدين وثبتوا عليه من اليقين.

وقيل : من لقائك موسى عليه السلام ليلة الإسراء أو يوم القيامة وقيل : من لقاء موسى عليه السلام الكتاب ، أى: من تلقيه له بالرضا والقبول. وقرئ : لما صبروا ، ولما صبروا ، أى لصبرهم. وعن الحسن رضى اللَّه عنه :

[سورة السجده (32) : آية 26]

أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ (26)

الواو في أَوَ لَمْ يَهْدِ للعطف على معطوف عليه منوي من جنس المعطوف ، والضمير في لَهُمْ لأهل مكة. وقرئ بالنون والياء ، والفاعل ما دلّ عليه كَمْ أَهْلَكْنا لأنّ كم لا تقع فاعلة ، لا يقال : جاءني كم رجل ، تقديره : أو لم يهد لهم كثرة إهلاكنا القرون. أو هذا الكلام كما هو بمضمونه ومعناه ، كقولك : يعصم لا إله إلا الله الدماء والأموال. ويجوز أن يكون فيه ضمير الله بدلالة القراءة بالنون. والْقُرُونِ عاد وثمود وقوم لوط يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ يعنى أهل مكة ، يمرون في متاجرهم على ديارهم وبلادهم. وقرئ : يمشون : بالتشديد.

[سورة السجده (32) : آية 27]

أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ (27)

الْجُرُزِ الأرض التي جرز نباتها أى قطع ، إمّا لعدم الماء ، وإمّا لأنه رعى وأزيل ، ولا يقال للتي لا تنبت كالسباخ : جرز. ويدل عليه قوله فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً وعن ابن عباس رضى الله عنه : إنها أرض اليمن. وعن مجاهد رضى الله عنه : هي أبين«1». بِهِ بالماء تَأْكُلُ من الزرع أَنْعامُهُمْ من عصفه وَأَنْفُسُهُمْ من حبه. وقرئ : يأكل ، بالياء.

[سورة السجده (32) : الآيات 28 إلى 30]

وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (28) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (29) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (30)

الفتح : النصر ، أو الفصل بالحكومة ، من قوله رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وكان المسلمون يقولون إنّ الله سيفتح لنا على المشركين. ويفتح بيننا وبينهم ، فإذا سمع المشركون قالوا مَتى هذَا الْفَتْحُ أى في أىّ وقت يكون إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ في أنه كائن. ويَوْمَ الْفَتْحِ يوم القيامة وهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم ، ويوم نصرهم عليهم. وقيل : هو يوم بدر. وعن مجاهد والحسن رضى الله عنهما : يوم فتح مكة. فإن قلت : قد سألوا عن وقت الفتح ، فكيف ينطبق هذا الكلام جوابا على سؤالهم. قلت : كان غرضهم في السؤال عن وقت الفتح ، استعجالا منهم عن وجه التكذيب والاستهزاء ، فأجيبوا على حسب ما عرف من غرضهم في سؤالهم فقيل لهم : لا تستعجلوا به ولا تستهزؤا ، فكأنى بكم وقد حصلتم في ذلك اليوم ، وآمنتم فلم ينفعكم الإيمان ، واستنظرتم في إدراك العذاب فلم تنظروا. فإن قلت : فمن فسره بيوم الفتح أو بيوم بدر كيف يستقيم على تفسيره أن لا ينفعهم الإيمان ، وقد نفع الطلقاء يوم فتح مكة وناسا يوم بدر. قلت : المراد أنّ المقتولين منهم لا ينفعهم إيمانهم في حال القتل ، كما لم ينفع فرعون إيمانه عند إدراك الغرق وَانْتَظِرْ النصرة عليهم وهلاكهم إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ الغلبة عليكم وهلاككم ، كقوله تعالى فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ وقرأ ابن السميقع رحمه الله : منتظرون ، بفتح الظاء. ومعناه : وانتظر هلاكهم فإنهم أحقاء بأن ينتظر هلاكهم ، يعنى أنهم هالكون لا محالة. أو وانتظر ذلك ، فإن الملائكة في السماء ينتظرونه.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ الم تنزيل وتبارك الذي بيده الملك ، أعطى من الأجر كأنما أحيا ليلة القدر «2»» وقال : «من قرأ الم تنزيل في بيته لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام» «3».

(1). قوله «هي أبين» في الصحاح «أبين» : اسم رجل نسب إليه عدن ، فيقال : عدن أبين. اه فتدبر. (ع)
(2). أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبى وله طريق أخرى عند الثعلبي من رواية أبى عصمة عن زيد العمي عن أبى بصرة عن ابن عباس عن أبى. وعند ابن مردويه مزوجه آخر عن نافع عن ابن عمر. وفي إسناده داود بن معاذ : وهو ساقط.
(3). لم أجده.

سورة الأحزاب

مدنية ، وهي ثلاث وسبعون آية [نزلت بعد آل عمران]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الأحزاب (33) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً (1) وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (2) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلاً (3)

عن زرّ قال : قال لي أبىّ بن كعب رضى الله عنه : كم تعدّون سورة الأحزاب؟ قلت : ثلاثا وسبعين آية. قال : فو الذي يحلف به أبىّ بن كعب ، إن كانت لتعدل سورة البقرة أو أطول.

ولقد قرأنا منها آية الرجم : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم «1». أراد أبىّ رضى الله عنه أنّ ذلك من جملة ما نسخ من القرآن. وأمّا ما يحكى : أن تلك الزيادة كانت في صحيفة في بيت عائشة رضى الله عنها فأكلتها الداجن فمن تأليفات الملاحدة والروافض «2». جعل نداءه بالنبىّ والرسول في قوله يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ. يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وترك نداءه باسمه كما قال : يا آدم. يا موسى ، يا عيسى.

يا داود : كرامة له وتشريفا ، وربئا بمحله وتنويها بفضله. فإن قلت : إن لم يوقع اسمه في النداء فقد أوقعه في الإخبار في قوله مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ. قلت : ذاك لتعليم الناس بأنه رسول الله وتلقين لهم أن يسموه بذلك ويدعوه به ، فلا تفاوت بين النداء والإخبار ،

(1). أخرجه النسائي وابن حبان والحاكم والطبراني في الأوسط وابن مردويه كلهم من هذا الوجه.
(2). قلت : بل راويها ثقة غير متهم. قال إبراهيم الحربي في الغريب : حدثنا هرون بن عبد الله أن الرجم أنزل في سورة الأحزاب مكتوبا في خوصة في بيت عائشة. فأكلتها شاتها» وروى أبو يعلى والدارقطني والبزار والطبراني في الأوسط والبيهقي في المعرفة ، كلهم من طريق محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبى بكر عن عائشة وعن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة انتهى. وكأن المصنف فهم أن ثبوت هذه الزيادة يقتضى ما تدعيه الروافض :
أن القرآن ذهب منه أشياء. وليس ذلك بلازم ، بل هذا مما نسخت تلاوته وبقي حكمه. وأكل الدواجن لها وقع بعد النسخ

ألا ترى إلى ما لم يقصد به التعليم والتلقين من الأخبار كيف ذكره بنحو ما ذكره في النداء لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، وَقالَ الرَّسُولُ يا رَبِّ ، لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ، النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، وَلَوْ كانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ. اتق الله : واظب على ما أنت عليه من التقوى ، واثبت عليه ، وازدد منه ، وذلك لأن التقوى باب لا يبلغ آخره وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ لا تساعدهم على شيء. ولا تقبل لهم رأيا ولا مشورة ، وجانبهم واحترس منهم ، فإنهم أعداء الله وأعداء المؤمنين ، لا يريدون إلا المضارّة والمضادّة. وروى أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة وكان يحب إسلام اليهود قريظة والنضير وبنى قينقاع وقد بايعه ناس منهم على النفاق فكان يلين لهم جانبه ويكرم صغيرهم وكبيرهم. وإذا أتى منهم قبيح تجاوز عنه ، وكان يسمع منهم «1» فنزلت. وروى أن أبا سفيان بن حرب وعكرمة بن أبى جهل وأبا الأعور السلمى قدموا عليه في الموادعة التي كانت بينه وبينهم ، وقام معهم عبد الله بن أبىّ ومعتب بن قشير والجد بن قيس ، فقالوا للنبىّ صلى الله عليه وسلم : ارفض ذكر آلهتنا وقل إنها تشفع وتنفع وندعك وربك ، فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين وهموا بقتلهم «2» ، فنزلت : أى اتق الله في نقض العهد ونبذ الموادعة ، ولا تطع الكافرين من أهل مكة والمنافقين من أهل المدينة فيما طلبوا إليك. وروى أنّ أهل مكة دعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يرجع عن دينه ويعطوه شطر أموالهم ، وأن يزوجه شيبة بن ربيعة بنته ، وخوفه منافقو المدينة أنهم يقتلونه إن لم يرجع.

فنزلت إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً بالصواب من الخطإ ، والمصلحة من المفسدة حَكِيماً لا يفعل شيئا ولا يأمر به إلا بداعي الحكمة وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ في ترك طاعة الكافرين والمنافقين وغير ذلك إِنَّ اللَّهَ الذي يوحى إليك خبير بما

[سورة الأحزاب (33) : الآيات 4 إلى 5]

ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللاَّئِي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (4) ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (5)

---

(1). لم أجده.
(2). هكذا ذكره الثعلبي والواحدي بغير سند.

ما جمع الله قلبين في جوف ، ولا زوجية وأمومة في امرأة ، ولا بنوّة ودعوة في رجل.

والمعنى : أن الله سبحانه كما لم ير في حكمته أن يجعل للإنسان قلبين - لأنه لا يخلو إما أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر من أفعال القلوب فأحدهما فضلة غير محتاج إليها ، وإما أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذاك ، فذلك يؤدى إلى اتصاف الجملة بكونه مريدا كارها. عالما ظانا ، موقنا شاكا في حالة واحدة - لم ير أيضا أن تكون المرأة الواحدة أمّا لرجل زوجا له ، لأن الأم مخدومة مخفوض لها جناح الذل ، والزوجة مستخدمة متصرف فيها بالاستفراش وغيره كالمملوكة وهما حالتان متنافيتان ، وأن يكون الرجل الواحد دعيا لرجل وابنا له لأنّ النبوّة. أصالة في النسب وعراقة فيه ، والدعوة : إلصاق عارض بالتسمية «1» لا غير ، ولا يجتمع في الشيء الواحد أن يكون أصيلا غير أصيل ، وهذا مثل ضربه الله في زيد بن حارثة وهو رجل من كلب سبى صغيرا ، وكانت العرب في جاهليتها يتغاورون ويتسابون. فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة ، فلما تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبته له ، وطلبه أبوه وعمه ، فخير فاختار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعتقه ، وكانوا يقولون : زيد بن محمد «2» ، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية ، وقوله ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وقيل : كان أبو معمر رجلا من أحفظ العرب وأرواهم ، فقيل له : ذو القلبين. وقيل : هو جميل بن أسد الفهري ، وكان يقول : إن لي قلبين ، أفهم بأحدهما أكثر مما يفهم محمد ، فروى أنه انهزم يوم بدر ، فمرّ بأبى سفيان وهو معلق إحدى نعليه بيده والأخرى في رجله ، فقال له : ما فعل الناس؟ فقال : هم ما بين مقتول وهارب ، فقال له: ما بال إحدى نعليك في رجلك والأخرى في يدك؟ فقال : ما ظننت إلا أنهما في رجلىّ ،

---

(1). قال محمود : «أسد ما ذكر فيه من التأويلات أنهم كانوا يدعون لابن خطل قلبين ، فنفى الله صحة ذلك وقرنه بما كانوا يقولونه من الأقاويل المتناقضة ، كجعل الأدعياء أبناء والزوجات أمهات. قال : وهذه الأمور الثلاثة متنافية : أما الأول فلأنه يلزم من اجتماع القلبين قيام أحد المعنيين بأحدهما وضده في الآخر ، وذلك كالعلم والجهل والأمن والخوف وغير ذلك. وأما الثاني فلأن الزوجة في مقام الامتهان والأم في محل الإكرام ، فنافى أن تكون الزوجة أما. وأما الثالث فلأن النبوة أصالة وعراقة ، والدعوة لاصقة عارضة ، فهما متنافيان ، وذكر الجوف ليصور به صورة اجتماع القلبين فيه حتى يبادره السامع بالإنكار.
(2). هكذا ذكره ابن إسحاق وابن أبى خيثمة من طريقه. وزاد في آخره «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكبر منه بعشر سنين فتبناه» وعن سالم عن أبيه قال «ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى أنزل الله ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ انتهى. وهذه الزيادة في الصحيحين عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه «ما كنا ندعو زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ - الآية

فأكذب الله قوله وقولهم ، وضربه مثلا في الظهار والتبني. وعن ابن عباس رضى الله عنهما : كان المنافقون يقولون : لمحمد قلبان فأكذبهم الله. وقيل : سها في صلاته ، فقالت اليهود : له قلبان : قلب مع أصحابه ، وقلب معكم. وعن الحسن : نزلت في أن الواحد يقول : نفس تأمرنى ونفس تنهاني. والتنكير في رجل ، وإدخال من الاستغراقية على قلبين تأكيدان لما قصد من المعنى ، كأنه قال : ما جعل الله لأمة الرجال ولا لواحد منهم قلبين البتة في جوفه.

فإن قلت : أى فائدة في ذكر الجوف؟ قلت : الفائدة فيه كالفائدة في قوله الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ وذلك ما يحصل للسامع من زيادة التصوّر التجلي المدلول عليه ، لأنه إذا سمع به صور لنفسه جوفا يشتمل على قلبين ، فكان أسرع إلى الإنكار. وقرئ : اللايئ «1» ، بياء وهمزة مكسورتين. واللائي. بيا. ساكنة بعد الهمزة : وتظاهرون: من ظاهر. وتظاهرون.

من اظاهر ، بمعنى تظاهر. وتظهرون : من أظهر ، بمعنى تظهر. وتظهرون : من ظهر ، بمعنى ظاهر كعقد بمعنى عاقد. وتظهرون : من ظهر ، بلفظ فعل من الظهور. ومعنى ظاهر من امرأته : قال لها : أنت علىّ كظهر أمى. ونحوه في العبارة عن اللفظ : لبى المحرم ، إذا قال لبيك. وأفف الرجل : إذا قال : أف وأخوات لهنّ. فإن قلت : فما وجه تعديته وأخواته بمن؟ قلت : كان الظهار طلاقا عند أهل الجاهلية. فكانوا يتجنبون المرأة المظاهر منها كما يتجنبون المطلقة ، فكان قولهم : تظاهر منها تباعد منها بجهة الظهار ، وتظهر منها : تحرز منها. وظاهر منها : حاذر منها ، وظهر منها : وحش منها «2». وظهر منها : خلص منها. ونظيره : آلى من امرأته ، لما ضمن معنى التباعد منها عدّى بمن ، وإلا فآلى في أصله الذي هو بمعنى : حلف وأقسم ، ليس هذا بحكمه.

فإن قلت : ما معنى قولهم : أنت علىّ كظهر أمى؟ قلت : أرادوا أن يقولوا : أنت علىّ حرام كبطن أمى ، فكنوا عن البطن بالظهر ، لئلا يذكروا البطن الذي ذكره يقارب ذكر الفرج ، وإنما جعلوا الكناية عن البطن بالظهر لأنه عمود البطن. ومنه حديث عمر رضى اللّه عنه : يجيء به أحدهم على عمود بطنه : أراد على ظهره. ووجه آخر : وهو أن إتيان المرأة وظهرها إلى السماء كان محرّما عندهم محظورا ، وكان أهل المدينة يقولون : إذا أتيت المرأة ووجهها إلى الأرض جاء الولد أحول ، فلقصد المطلق منهم إلى التغليظ في تحريم امرأته عليه ، شبهها بالظهر ثم لم يقنع بذلك حتى جعله ظهر أمّه فلم يترك.

(1). قوله «و قرئ اللايئ بياء وهمزة مكسورتين» لعل مراد ، قراءتان إحداهما بياء مكسورة والأخرى بهمزة مكسورة ، لكن الياء ليست ياء صرفة ، بل هي همزة مسهلة ينطق بها بين الهمزة والياء والحاصل : أنه قرئ اللائي بياء ساكنة بعد الهمزة. وقرئ اللاء بهمزة مكسورة من غير ياء. وقرئ : اللايي بشبه الياء مكسورة وهي الهمزة التي ينطق بها بين بين. وقرئ : اللاى بياء ساكنة بعد الألف من غير همز ، فهذه أربع قراآت في لفظ اللائي أينما كان في القرآن ، كما في شرح الشاطبية. (ع)
(2). قوله «وحش منها» أى خلا منها أفاده الصحاح. (ع)

فإن قلت : الدعىّ فعيل بمعنى مفعول ، وهو الذي يدعى ولدا فما له جمع على افعلاء ، وبابه : ما كان منه بمعنى فاعل ، كتقى وأتقياء ، وشقىّ وأشقياء ، ولا يكون ذلك في نحو رمى وسمى. قلت : إن شذوذه عن القياس كشذوذ قتلاء وأسراء ، والطريق في مثل ذلك التشبيه اللفظي ذٰلِكُمْ النسب هو قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ هذا ابني لا غير من غير أن يواطئه اعتقاد لصحته وكونه حقا. واللّه عز وجل لا يقول إلا ما هو حق ظاهره وباطنه ، ولا يهدى إلا سبيل الحق. ثم قال ما هو الحق وهدى إلى ما هو سبيل الحق ، وهو قوله ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ وبين أن دعاءهم لآبائهم هو أدخل الأمرين في القسط والعدل ، وفي فصل هذه الجمل ووصلها «1» : من الحسن والفصاحة ما لا يغبى على عالم بطرق النظم. وقرأ قتادة : وهو الذي يهدى السبيل. وقيل : كان الرجل في الجاهلية إذا أعجبه جلد الرجل وظرفه : ضمه إلى نفسه وجعل له مثل نصيب الذكر من أولاده من ميراثه ، وكان ينسب إليه فيقال: فلان ابن فلان فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا لهم آباء تنسبونهم إليهم «فهم» فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وأولياؤكم في الدين فقولوا : هذا أخى وهذا مولاي ، ويا أخى ، ويا مولاي : يريد الأخوّة في الدين والولاية فيه ما تَعَمَّدَتْ في محل الجرّ عطفا على ما أخطأتم. ويجوز أن يكون مرتفعا على الابتداء ، والخبر محذوف تقديره : ولكن ما تعمدت قلوبكم فيه الجناح. والمعنى : لا إثم عليكم فيما فعلتموه من ذلك مخطئين جاهلين قبل ورود النهى ، ولكن الإثم فيما تعمدتموه بعد النهى.

أو لا إثم عليكم إذا قلتم لولد غيركم يا بنىّ على سبيل الخطإ وسبق اللسان ، ولكن إذا قلتموه متعمدين. ويجوز أن يراد العفو عن الخطإ دون العمد على طريق العموم ، كقوله عليه الصلاة والسلام «ما أخشى عليكم الخطأ ولكن أخشى عليكم العمد» «2» وقوله عليه الصلاة والسلام وضع عن أمّتى الخطأ والنسيان وما أكرهوا عليه «3»» ثم تناول لعمومه خطأ التبني وعمده.

فإن قلت : فإذا وجد التبني فما حكمه؟ قلت : إذا كان المتبنى مجهول النسب وأصغر سنا من المتبنى ثبت نسبه منه ، وإن كان عبدا له عتق مع ثبوت النسب ، وإن كان لا يولد مثله لمثله لم يثبت النسب ،

(1). قوله «و في فصل هذه الجمل ووصلها» أى : فصل ما فصل منها ووصل ما وصل. (ع) [.....]
(2). أخرجه ابن حبان والحاكم والبيهقي في الشعب من طريق جعفر بن برقان عن يزيد بن الأصم عن أبى هريرة مرفوعا أتم منه. وأخرجه الطبراني في الأوسط وفي مسند الشاميين من رواية ثابت بن عجلان حدثني عطاء عن عائشة رضى اللّه عنها.
(3). أخرجه ابن عدى من رواية حسن بن برقة حدثني أبى عن الحسن عن أبى بكرة رفعه «رفع اللّه عن هذه الأمة ثلاثا : الخطأ والنسيان والأمر المكرهون عليه» هذه من منكرات جعفر. وأخرجه ابن ماجة وابن حبان من حديث ابن عباس. فأما ابن حبان فقال : عن عطاء عن عبيد بن عمير عنه ، بلفظ «إن اللّه تجاوز» وأما ابن ماجة فقال عن الأوزاعى «إن اللّه وضع»

ولكنه يعتق عند أبى حنيفة رحمه الله تعالى ، وعند صاحبيه لا يعتق. وأما المعروف النسب فلا يثبت نسبه بالتبني وإن كان عبدا عتق وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً لعفوه عن الخطأ وعن العمد إذا تاب العامد «1».

[سورة الأحزاب (33) : آية 6]

النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهاجِرِينَ إِلاَّ أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً (6)

النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ في كل شيء من أمور الدين والدنيا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ولهذا أطلق ولم يقيد ، فيجب عليهم أن يكون أحبّ إليهم من أنفسهم ، وحكمه أنفذ عليهم من حكمها ، وحقه آثر لديهم من حقوقها ، وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها ، وأن يبدلوها دونه ويجعلوها فداءه إذا أعضل خطب ، ووقاءه إذا لقحت حرب ، وأن لا يتبعوا ما تدعوهم إليه نفوسهم ولا ما تصرفهم عنه ، ويتبعوا كل ما دعاهم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصرفهم عنه ، لأنّ كل ما دعا إليه فهو إرشاد لهم إلى نيل النجاة والظفر بسعادة الدارين وما صرفهم عنه ، فأخذ بحجزهم «2» لئلا يتهافتوا فيما يرمى بهم إلى الشقاوة وعذاب النار. أو هو أولى بهم ، على معنى أنه أرأف بهم وأعطف عليهم وأنفع لهم ، كقوله تعالى بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ وعن النبي صلى الله عليه وسلم «ما من مؤمن إلا أنا أولى به في الدنيا والآخرة ، اقرؤا إن شئتم النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ فأيما مؤمن هلك وترك مالا فليرثه عصبته من كانوا ، وإن ترك دينا أو ضياعا فإلىّ» «3» وفي قراءة ابن مسعود : النبىّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وهو أب لهم. وقال مجاهد : كل نبىّ فهو أبو أمّته. ولذلك صار المؤمنون إخوة لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم أبوهم في الدين وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ تشبيه لهنّ بالأمهات في بعض الأحكام ، وهو وجوب تعظيمهنّ واحترامهن ، وتحريم نكاحهن : قال الله تعالى وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً وهن فيما وراء ذلك بمنزلة الأجنبيات ، ولذلك قالت عائشة رضى الله عنها : لسنا أمهات النساء «4». تعنى أنهنّ إنما كنّ أمّهات الرجال ، لكونهنّ محرّمات عليهم كتحريم أمّهاتهم.

(1). قوله «و عن العمد إذا تاب العامد» هذا عند المعتزلة ، وقد يغفر بمجرد الفضل عند أهل السنة. (ع)
(2). قوله «فأخذ بحجزهم» في الصحاح «حجزة الإزار» : معقده. وحجزة السراويل : التي فيها التكة. (ع)
(3). أخرجه البخاري من طريق عبد الرحمن بن أبى عمرة عن أبى هريرة رضى الله عنه بمعناه.
(4). أخرجه الدارقطني من رواية مضر الأعتق حدثني حرفاء قالت : قلت لعائشة «يا أم. فقالت : لست أم النساء ، إنما أنا أم الرجال» وفي الطبقات من طريق مسروق قال «قالت امرأة لعائشة : يا أم. فقالت عائشة إنى لست بأمك إنما أنا أم الرجال».

والدليل على ذلك : أنّ هذا التحريم لم يتعد إلى بناتهنّ ، وكذلك لم يثبت لهنّ سائر أحكام الأمهات. كان المسلمون في صدر الإسلام يتوارثون بالولاية في الدين وبالهجرة لا بالقرابة ، كما كانت تتألف قلوب قوم بإسهام لهم في الصدقات ، ثم نسخ ذلك لما دجا الإسلام «1» وعزّ أهله ، وجعل التوارث بحق القرابة فِي كِتابِ اللَّهِ في اللوح. أو فيما أوحى الله إلى نبيه وهو هذه الآية. أو في آية المواريث. أو فيما فرض الله كقوله كِتابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ.

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهاجِرِينَ يجوز أن يكون بيانا لأولى الأرحام ، أى : الأقرباء من هؤلاء بعضهم أولى بأن يرث بعضا من الأجانب. ويجوز أن يكون لابتداء الغاية ، أى : أولو الأرحام بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين بحق الولاية في الدين ، ومن المهاجرين بحق الهجرة.

فإن قلت : مم استثنى أَنْ تَفْعَلُوا؟ قلت : من أعم العام في معنى النفع والإحسان ، كما تقول : القريب أولى من الأجنبى إلا في الوصية ، تريد : أنه أحق منه في كل نفع من ميراث وهبة وهدية وصدقة وغير ذلك ، إلا في الوصية. والمراد بفعل المعروف : التوصية لأنه لا وصية لوارث وعدى تفعلوا بإلى ، لأنه في معنى : تسدوا وتزلوا «2» والمراد بالأولياء : المؤمنون والمهاجرون للولاية في الدين ذلِكَ إشارة إلى ما ذكر في الآيتين جميعا. وتفسير الكتاب : ما مر آنفا ، والجملة مستأنفة كالخاتمة لما ذكر من الأحكام.

[سورة الأحزاب (33) : الآيات 7 إلى 8]

وَإِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً (7) لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً (8)

وَاذكر حين أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ جميعا مِيثاقَهُمْ بتبليغ الرسالة والدعاء إلى الدين القيم وَمِنْكَ خصوصا وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسَى وإنما فعلنا ذلك لِيَسْئَلَ الله يوم القيامة عند تواقف الأشهاد المؤمنين الذين صدقوا

(1). قوله «دجا الإسلام» في الصحاح : دجا الإسلام ، أى : قوى وألبس كل شيء. (ع)
(2). قوله «لأنه في معنى تسدوا وتزلوا» في الصحاح : أزلت إليه نعمة ، أى : أسديتها. وفي الحديث : «من أزلت إليه نعمة فليشكرها» اه. (ع)

فإن قلت : لم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم على نوح فمن بعده «1» قلت : هذا العطف لبيان فضيلة الأنبياء الذين هم مشاهيرهم وذراريهم «2» ، فلما كان محمد صلى الله عليه وسلم أفضل هؤلاء المفضلين : قدم عليهم لبيان أنه أفضلهم ، ولولا ذلك لقدم من قدمه زمانه. فإن قلت : فقد قدم عليه نوح عليه السلام في الآية التي هي أخت هذه الآية ، وهي قوله شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ثم قدم على غيره. قلت : مورد هذه الآية على طريقة خلاف طريقة تلك ، وذلك أنّ الله تعالى إنما أوردها لوصف دين الإسلام بالأصالة والاستقامة فكأنه قال : شرع لكم الدين الأصيل الذي بعث عليه نوح في العهد القديم ، وبعث عليه محمد خاتم الأنبياء في العهد الحديث ، وبعث عليه من توسط بينهما من الأنبياء المشاهير. فإن قلت : فما ذا أراد بالميثاق الغليظ؟ قلت : أراد به ذلك الميثاق بعينه. معناه : وأخذنا منهم بذلك الميثاق ميثاقا غليظا. والغلظ : استعارة من وصف الأجرام ، والمراد : عظم الميثاق وجلالة شأنه في بابه. وقيل الميثاق الغليظ : اليمين بالله على الوفاء بما حملوا. فإن قلت : علام عطف قوله وَأَعَدَّ لِلْكافِرِينَ؟ قلت : على أخذنا من النبيين ، لأن المعنى أن الله أكد على الأنبياء الدعوة إلى دينه لأجل إثابة المؤمنين ، وأعد للكافرين عذابا أليما. أو على ما دل عليه لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ كأنه قال : فأثاب المؤمنين وأعدّ للكافرين.

[سورة الأحزاب (33) : الآيات 9 إلى 11]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَكانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً (9) إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10) هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيداً (11)

(1). قال محمود : «قدم النبي صلى الله عليه وسلم على نوح لأنهم ذكروا تخصيصا بعد التعميم تفضيلا لهم فقدم أفضل المخصوصين» قال أحمد : وليس التقديم في الذكر بمقتض لذلك. ألا ترى إلى قوله :
بها ليل منهم جعفر وابن أمه على ومنهم أحمد المتخير
فأخر ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ليختم به تشريفا له ، وإذا ثبت أن التفضيل ليس من لوازمه التقديم ، فيظهر والله أعلم في سر تقديمه عليه الصلاة والسلام على نوح ومن بعده في الذكر : أنه هو المخاطب من بينهم ، والمنزل عليه هذا المتلو ، فكان تقديمه لذلك، ثم لما قدم ذكره عليه الصلاة والسلام : جرى ذكر الأنبياء صلوات الله عليهم بعده على ترتيب أزمنة وجودهم ، والله أعلم.
(2). قوله «هم مشاهيرهم وذراريهم» لعله «دراريهم» بالدال المهملة ، والدراري : الكواكب العظام ، كما أفاده الصحاح. (ع)

اذْكُرُوا ما أنعم الله به عليكم يوم الأحزاب وهو يوم الخندق إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ وهم الأحزاب ، فأرسل الله عليهم ريح الصبا. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور «1» وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها وهم الملائكة وكانوا ألفا : بعث الله عليهم صبا باردة في ليلة شاتية ، فأخصرتهم «2» وسفت التراب في وجوههم ، وأمر الملائكة فقلعت الأوتاد ، وقطعت الأطناب ، وأطفأت النيران ، وأكفأت القدور ، وما جت الخيل بعضها في بعض ، وقذف في قلوبهم الرعب ، وكبرت الملائكة في جوانب عسكرهم ، فقال طليحة بن خويلد الأسدى : أما محمد فقد بدأكم بالسحر ، فالنجاء النجاء ، فانهزموا من غير قتال ، وحين سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بإقبالهم ضرب الخندق على المدينة ، أشار عليه بذلك سلمان الفارسي رضى الله عنه ، ثم خرج في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب معسكره والخندق بينه وبين القوم ، وأمر بالذراري والنساء فرفعوا في الآطام «3» واشتدّ الخوف ، وظن المؤمنون كل ظن ، ونجم النفاق من المنافقين حتى قال معتب بن قشير : كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر لا نقدر أن نذهب إلى الغائط. وكانت قريش قد أقبلت في عشرة آلاف من الأحابيش وبنى كنانة وأهل تهامة وقائدهم أبو سفيان ، وخرج غطفان في ألف ومن تابعهم من أهل نجد وقائدهم عيينة بن حصن ، وعامر بن الطفيل في هوازن ، وضامتهم اليهود من قريظة والنضير ، ومضى على الفريقين قريب من شهر لا حرب بينهم إلا الترامي بالنبل والحجارة ، حتى أنزل الله النصر «4» تَعْمَلُونَ قرئ بالتاء والياء مِنْ فَوْقِكُمْ من أعلى الوادي من قبل المشرق : بنو غطفان وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ من أسفل الوادي من قبل المغرب : قريش تحزبوا وقالوا : سنكون جملة واحدة حتى نستأصل محمدا زاغَتِ الْأَبْصارُ مالت عن سننها ومستوى نظرها حيرة وشخوصا.

وقيل : عدلت عن كل شيء فلم تلتفت إلا إلى عدوّها لشدة الروع. الحنجرة : رأس الغلصمة وهي منتهى الحلقوم. والحلقوم : مدخل الطعام والشراب ، قالوا : إذا انتفخت الرئة من شدة الفزع أو الغضب أو الغمّ الشديد : ربت وارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة ، ومن ثمة قيل للجبان : انتفخ سحره. ويجوز أن يكون ذلك مثلا في اضطراب القلوب ووجيبها وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا خطاب للذين آمنوا. ومنهم الثبت القلوب والأقدام ،

(1). متفق عليه من حديث ابن عباس رضى الله عنهما.
(2). قوله «فأخصرتهم» في الصحاح «الخصر» بالتحريك : البرد. وقد خصر الرجل : إذا آلمه البرد في أطرافه اه ، فأخصرتهم : أوقعتهم في الخصر أى البرد. (ع)
(3). قوله «فرفعوا في الآطام» أى الحصون ، وهو جمع أطم كعنق. (ع)
(4). أخرجه ابن إسحاق في المغازي. ومن طريقه الطبري عن زيد بن رومان عن عروة عن عبد الله بن أبى بكر ومحمد بن كعب وغيرهم من علمائنا ، فذكر القصة بطولها وأتم مما هاهنا. وهو في السيرة لابن هشام من قول إسحاق. [.....]

والضعاف القلوب : الذين هم على حرف ، والمنافقون : الذين لم يوجد منهم الإيمان إلا بألسنتهم فظن الأولون بالله أنه يبتليهم ويفتنهم فخافوا الزلل وضعف الاحتمال ، وأمّا الآخرون فظنوا بالله ما حكى عنهم. وعن الحسن : ظنوا ظنونا مختلفة : ظن المنافقون أنّ المسلمين يستأصلون ، وظنّ المؤمنون أنهم يبتلون. وقرئ : الظنون ، بغير ألف في الوصل والوقف وهو القياس ، وبزيادة ألف في الوقف زادوها في الفاصلة ، كما زادها في القافية من قال : أقلّى اللّوم عاذل والعتابا «1»

وكذلك الرسولا والسبيلا. وقرئ بزيادتها في الوصل أيضا ، إجراء له مجرى الوقف. قال أبو عبيد : وهنّ كلهنّ في الإمام بألف. وعن أبى عمرو إشمام زاى زلزلوا. وقرئ زلزالا بالفتح. والمعنى : أنّ الخوف أزعجهم أشد الإزعاج

[سورة الأحزاب (33) : الآيات 12 إلى 14]

وَإِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً (12) وَإِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِراراً (13) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْها وَما تَلَبَّثُوا بِها إِلاَّ يَسِيراً (14)

إِلَّا غُرُوراً قيل قائله : معتب بن قشير حين رأى الأحزاب قال : يعدنا محمد فتح فارس والروم ، وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فرقا «2» ، ما هذا إلا وعد غرور طائِفَةٌ مِنْهُمْ هم أوس بن قيظى ومن وافقه على رأيه. وعن السدى عبد الله بن أبىّ وأصحابه. ويثرب : اسم المدينة.

(1) أقلى اللوم عاذل والعتابا وقولي إن أصبت لقد أصابا
إذا غضبت على بنو تميم وجدت الناس كلهم غضابا
لجرير ، وزاد الألف في القافية للإطلاق ، وبنو تميم ينشدون مثل ذلك بتنوين الترنم بدل حرف الإطلاق. قال الزمخشري : إذا وصل المنشد ولم يقف ، وظاهر كلام النحويين : أنه إنما يجيء في الوقف. وعاذل : منادى ، مرخم عاذلة. يقول : اتركي ملامى وعتابى ، وإن فعلت صوابا فاعترفى به ، ويروى بكسر التاء ، فالمعنى : أن لومك خطأ فإذا أردت الصواب فقولي : لقد أصاب ، وجعل غضب بنى تميم غضب كل الناس ، لأن ما عداهم تبع. أو كالمعدوم.
ويروى : إذا غضبت عليك ، والخطاب لكل سامع.
(2). قوله «فرقا» أى خوفا. (ع)

وقيل : أرض وقعت المدينة في ناحية منها لا مُقامَ لَكُمْ قرئ بضم الميم وفتحها ، أى لا قرار لكم هاهنا ، ولا مكان تقيمون فيه أو تقومون فَارْجِعُوا إلى المدينة : أمروهم بالهرب من عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل : قالوا لهم : ارجعوا كفارا وأسلموا محمدا ، وإلا فليست يثرب لكم بمكان. قرئ : عورة ، بسكون الواو وكسرها ، فالعورة : الخلل ، والعورة : ذات العورة ، يقال : عور المكان عورا إذا بدا فيه خلل يخاف منه العدو والسارق.

ويجوز أن تكون عَوْرَةٌ تخفيف : عورة ، اعتذروا أنّ بيوتهم معرّضة للعدو ممكنة للسراق ، لأنها غير محرزة ولا محصنة ، فاستأذنوه ليحصنوها ثم يرجعوا إليه ، فأكذبهم الله بأنهم لا يخافون ذلك ، وإنما يريدون الفرار وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ المدينة. وقيل : بيوتهم ، من قولك : دخلت على فلان داره مِنْ أَقْطارِها من جوانبها ، يريد : ولو دخلت هذه العساكر المتحزبة التي يفرون خوفا منها مدينتهم وبيوتهم من نواحيها كلها. وانثالت «1» على

[سورة الأحزاب (33) : الآيات 15 إلى 16]

وَلَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ وَكانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلاً (15) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (16)

عن ابن عباس : عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم. وقيل : هم قوم غابوا عن بدر فقالوا : لئن أشهدنا الله قتالا لنقاتلنّ. وعن محمد بن إسحاق عاهدوا يوم أحد أن لا يفرّوا بعد ما نزل فيهم ما نزل مَسْؤُلًا مطلوبا مقتضى حتى يوفى به لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ مما لا بدّ لكم من نزوله بكم من حتف أنف أو قتل. وإن نفعكم الفرار مثلا فمنعتم بالتأخير : لم يكن ذلك التمتيع إلا زمانا قليلا. وعن بعض المروانية : أنه مرّ بحائط مائل فأسرع ، فتليت له هذه الآية فقال : ذلك القليل نطلب.

(1). قوله «و انثالت» في الصحاح : انثال عليه الناس من كل وجه ، أى : انصبوا. (ع)
(2). قوله «لو كبسوا» في الصحاح : كبسوا دار فلان : أغاروا عليها فجأة. (ع)

[سورة الأحزاب (33) : آية 17]

قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (17)

فإن قلت : كيف جعلت الرحمة قرينة السوء في العصمة ولا عصمة إلا من السوء؟ قلت : معناه أو يصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمة ، فاختصر الكلام وأجرى مجرى قوله : متقلّدا سيفا ورمحا «1» أو حمل الثاني على الأوّل لما في العصمة من معنى المنع.

[سورة الأحزاب (33) : الآيات 18 إلى 20]

قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً (18) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (19) يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الْأَعْرابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ وَلَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً(20)

الْمُعَوِّقِينَ المثبطين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم المنافقون : كانوا يقولون لِإِخْوانِهِمْ من ساكني المدينة من أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس «2» ، ولو كانوا لحما لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه ، فخلوهم وهَلُمَّ إِلَيْنا أى قربوا

(1) ورأيت زوجك في الو غى متقلدا سيفا ورمحا
الوغى : الحرب. ورمحا : نصب بمحذوف يناسبه ، أى : متقلدا سيفا وحاملا رمحا. وروى بدل الشطر الأول :
«يا ليت زوجك قد غدا» أى : ذهب إلى الحرب غدوة لابسا سلاحه.
(2). قوله «ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس» أى قليلون يشبعهم رأس واحد ، وهو جمع آكل ، والالتهام : الابتلاع ، كذا في الصحاح. (ع)

أنفسكم إلينا. وهي لغة أهل الحجاز : يسوّون فيه بين الواحد والجماعة. وأمّا تميم فيقولون : هلمّ يا رجل ، وهلموا يا رجال ، وهو صوت سمى به فعل متعدّ مثل احضر وقرب قُلْ هَلُمَّ شُهَداءَكُمُ إِلَّا قَلِيلًا إلا إتيانا قليلا

فإن قلت : ما معنى قوله وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً وكل شيء عليه يسير؟ قلت : معناه : أن أعمالهم حقيقة بالإحباط ، تدعو إليه الدواعي ، ولا يصرف عنه صارف يَحْسَبُونَ أنّ الأحزاب لم ينهزموا ، وقد انهزموا فانصرفوا عن الخندق إلى المدينة راجعين لما نزل بهم من الخوف الشديد ودخلهم من الجبن المفرط وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ كرّة ثانية ، تمنوا لخوفهم مما منوا «1» به هذه الكرّة أنهم خارجون إلى البدو حاصلون بين الأعراب يَسْئَلُونَ كل قادم منهم من جانب المدينة عن أخباركم وعما جرى عليكم وَلَوْ كانُوا فِيكُمْ ولم يرجعوا إلى المدينة وكان قتال - لم يقاتلوا إلا تعلة «2» رياء وسمعة. وقرئ : بدّى ، على فعّل جمع باد كغاز وغزّى. وفي رواية صاحب الإقليد : بدىً ، بوزن عدىً. ويساءلون ، أى : يتساءلون. ومعناه. يقول بعضهم لبعض : ما ذا سمعت؟ ما ذا بلغك؟ أو يتساءلون الأعراب كما تقول : رأيت الهلال وتراءيناه : كان عليكم أن تواسوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بأنفسكم فتوازروه وتثبتوا معه ، كما آساكم بنفسه في

(1). قوله «مما منوا به» أى ابتلوا به. (ع)
(2). قوله «إلا تعلة» في الصحاح : علله بالشيء ، أى : لهاه به ، كما يعلل الصبى بشيء من الطعام يتجزأ به عن اللبن. يقال : فلان يعلل نفسه بتعلة. (ع)

الصبر على الجهاد والثبات في مرحى الحرب «1». حتى كسرت رباعيته يوم أحد وشجّ وجهه.

[سورة الأحزاب (33) : آية 21]

لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (21)

فإن قلت : فما حقيقة قوله لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ وقرئ : أسوة ، «2» بالضم؟ قلت : فيه وجهان، أحدهما : أنه في نفسه أسوة حسنة ، أى : قدوة ، وهو الموتسى ، أى : المقتدى به ، كما تقول : في البيضة عشرون منا حديد ، أى : هي في نفسها هذا المبلغ من الحديد. والثاني : أن فيه خصلة من حقها أن يؤتسى بها وتتبع. وهي المواساة بنفسه لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ بدل من لكم ، كقوله لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ يرجو اللّه واليوم الآخر : من قولك رجوت زيدا وفضله ، أى : فضل زيد. أو يرجو أيام اللّه. واليوم الآخر خصوصا. والرجاء بمعنى الأمل أو الخوف وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً وقرن الرجاء بالطاعات الكثيرة والتوفر على الأعمال الصالحة ، والمؤتسى برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : من كان كذلك.

[سورة الأحزاب (33) : آية 22]

وَلَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَما زادَهُمْ إِلاَّ إِيماناً وَتَسْلِيماً(22)

وعدهم اللّه أن يزلزلوا حتى يستغيثوه ويستنصروه في قوله أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ فلما جاء الأحزاب وشخص بهم واضطربوا ورعبوا الرعب الشديد قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وأيقنوا بالجنة والنصر. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما قال قال النبي صلى اللّه عليه وسلم لأصحابه : إنّ الأحزاب سائرون إليكم تسعا أو عشرا ، أى : في آخر تسع ليال أو عشر ، فلما رأوهم قد أقبلوا للميعاد قالوا ذلك «3». وهذا إشارة إلى الخطب أو البلاء إِيماناً باللّه وبمواعيده وَتَسْلِيماً لقضاياه وأقداره ،

[سورة الأحزاب (33) : الآيات 23 إلى 27]

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (23) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (24) وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ وَكانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً (25) وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ صَياصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً (26) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيارَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُها وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (27)

(1). قوله «في مرحى الحرب» أى مكان إدارة رحاها. أفاده الصحاح. (ع)
(2). قوله «و قرئ أسوة بالضم» يفيد أن قراءة الكسر هي المشهورة. (ع)
(3). لم أجده

نذر رجال من الصحابة أنهم إذا لقوا حربا مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا ، وهم: عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد اللّه ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل.

وحمزة ، ومصعب بن عمير ، وغيرهم ، رضى اللّه عنهم فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ يعنى حمزة ومصعبا وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ يعنى عثمان وطلحة. وفي الحديث «من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة» «1» فإن قلت : ما قضاء النحب؟ قلت : وقع عبارة عن الموت ، لأنّ كل حي لا بدّ له من أن يموت. فكأنه نذر لازم في رقبته ، فإذا مات فقد قضى نحبه ، أى : نذره. وقوله فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ يحتمل موته شهيدا ، ويحتمل وفاءه بنذره من الثبات مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. فإن قلت : فما حقيقة قوله صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ؟

قلت : يقال : صدقني أخوك وكذبني ، إذا قال لك الصدق والكذب. وأمّا المثل : صدقنى سنّ بكره. فمعناه : صدقنى في سن بكره ، بطرح الحار وإيصال الفعل ، فلا يخلو ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ إما أن يكون بمنزلة السنّ في طرح الجار ، وإمّا أن يجعل المعاهد عليه مصدوقا على المجاز ، كأنهم قالوا للمعاهد عليه : سنفى بك ، وهم وافون به فقد صدقوه ، ولو كانوا ناكثين لكذبوه ولكان مكذوبا وَما بَدَّلُوا العهد ولا غيروه ، لا المستشهد ولا من ينتظر الشهادة ، ولقد ثبت طلحة مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يوم أحد حتى أصيبت يده ، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «أوجب طلحة «2» وفيه تعريض بمن بدلوا من أهل النفاق ومرض القلوب : جعل المنافقون ،

(1). أخرجه الترمذي وابن ماجة والحاكم من طريق الصلت بن دينار عن أبى نصرة عن جابر. والصلت ضعيف وله طريق أخرى عند الطبراني من طريق أولاد طلحة عن طلحة.
(2). أخرجه الثعلبي من رواية حرير بن حازم عن عروة في قوله تعالى «من المؤمنين رجال صدقوا - الآية» منهم طلحة بن عبيد اللّه فذكره. وقد روى مفرقا من غير هذا الوجه. فقضيته أن يده أصيبت. أخرجها البخاري من رواية قيس بن أبى حازم «رأيت بد طلحة شلاء ، وفي بها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يوم أحد» والنسائي من طريق عمارة بن غزية عن أبى الزبير عن جابر قال «لما كان يوم أحد كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في ناحية في اثنى عشر رجلا من الأنصار. فذكر القصة مطولة قوله أوجب طلحة» أخرجها الترمذي وابن حبان والحاكم وابن أبى شيبة وإسحاق وأبو يعلى والبزار من طريق محمد بن إسحاق عن يحيى بن عباد بن عبيد اللّه بن الزبير عن أبيه به.

كأنهم قصدوا عاقبة السوء وأرادوها بتبديلهم ، كما قصد الصادقون عاقبة الصدق بوفائهم لأنّ كلا الفريقين مسوق إلى عاقبته من الثواب والعقاب ، فكأنهما استويا في طلبهما والسعى لتحصيلهما. ويعذبهم إِنْ شاءَ إذا لم يتوبوا أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إذا تابوا وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا الأحزاب بِغَيْظِهِمْ مغيظين ، كقوله تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ. لَمْ يَنالُوا خَيْراً غير ظافرين ، وهما حالان بتداخل أو تعاقب. ويجوز أن تكون الثانية بيانا للأولى أو استئنافا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ بالريح والملائكة وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهروا الأحزاب من أهل الكتاب مِنْ صَياصِيهِمْ من حصونهم. والصيصية ما تحصن به ، يقال لقرن الثور والظبى : صيصية ، ولشوكة الديك ، وهي مخلبه التي في ساقه ، لأنه يتحصن بها. روى أنّ جبريل عليه السلام أتى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم - صبيحة الليلة التي انهزم فيها الأحزاب ورجع المسلمون إلى المدينة ووضعوا سلاحهم - على فرسه الحيزوم والغبار على وجه الفرس وعلى السرج ، فقال : ما هذا يا جبريل؟ قال : من متابعة قريش : فجعل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يمسح الغبار عن وجه الفرس وعن السرج ، فقال : يا رسول اللّه ، إن الملائكة لم تضع السلاح ، إن اللّه يأمرك بالمسير إلى بنى قريظة وأنا عامد إليهم ، فإن اللّه داقهم دق البيض على الصفا ، وإنهم لكم طعمة فأذن في الناس: أن من كان سامعا مطيعا فلا يصلى العصر إلا في بنى قريظة ، فما صلى كثير من الناس العصر إلا بعد

فأبوا ، فقال : على حكم سعد بن معاذ؟ فرضوا به ، فقال سعد : حكمت فيهم أن تقتل مقاتلهم وتسبى ذراريهم ونساؤهم ، فكبر النبي صلى اللّه عليه وسلم وقال : «لقد حكمت بحكم اللّه من فوق سبعة أرقعة» «1» ثم استزلهم وخندق في سوق المدينة خندقا ، وقدمهم فضرب أعناقهم وهم من ثمانمائة إلى تسعمائة وقيل كانوا ستمائة مقاتل وسبعمائة أسير «2». وقرئ : الرعب ، بسكون العين وضمها.

---

(1). قوله «من فوق سبعة أرقعة» في الصحاح «الرقيع» سماء الدنيا. وكذلك سائر السماوات. وفي الحديث «من فوق سبعة أرقع» على لفظ التذكير ، كأنه ذهب إلى السقف. (ع) [.....]
(2). هو في سيرة ابن هشام في غزوة بنى قريظة عن ابن إسحاق إلى القدر الأخير فأسنده ابن إسحاق عن عاصم ابن عمر عن عبد الرحمن أن عمر بن سعد بن معاذ عن علقمة بن وقاص الليثي قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم - فذكره. وروى أبو نعيم في الدلائل من طريق معاذ بن رفاعة عن أبى الزبير عن جابر رضى اللّه عنه قال «لما رابطهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أتاه جبريل وهو يغسل رأسه»

وتأسرون ، بضم السين. وروى أن النبي صلى اللّه عليه وسلم جعل عقارهم للمهاجرين دون الأنصار ، فقالت الأنصار في ذلك ، فقال : إنكم في منازلكم ، وقال عمر رضى اللّه عنه : أما تخمس كما خمست يوم بدر؟ قال : لا ، إنما جعلت هذه لي طعمة دون الناس ، قال : رضينا بما صنع اللّه ورسوله «1» وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُها عن الحسن رضى اللّه عنه : فارس والروم.

وعن قتادة رضى اللّه عنه : كنا نحدث أنها مكة. وعن مقاتل رضى اللّه عنه : هي خيبر. وعن عكرمة : كل أرض تفتح إلى يوم القيامة. ومن بدع التفاسير : أنه أراد نساءهم.

[سورة الأحزاب (33) : الآيات 28 إلى 29]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلاً (28) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً (29)

أردن شيئا من الدنيا من ثياب وزيادة نفقة وتغاير ، فغم ذلك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فنزلت ، فبدأ بعائشة رضى اللّه عنها - وكانت أحبهنّ إليه - فخيرها وقرأ عليها القرآن ، فاختارت اللّه ورسوله والدار الآخرة، فرؤى الفرح في وجه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ثم اختارت جميعهنّ اختيارها ، فشكر لهنّ اللّه ذلك ، فأنزل لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ «2». روى أنه قال لعائشة : إنى ذاكر لك أمرا ، ولا عليك أن لا تعجلي فيه حتى تستأمرى أبويك ثم قرأ عليها القرآن فقالت : أفى هذا أستأمر أبوىّ ، فإنى أريد اللّه ورسوله والدار الآخرة «3». وروى أنها قالت : لا تخبر أزواجك أنى اخترتك ، فقال : إنما بعثني اللّه مبلغا ولم يبعثني متعنتا «4». فإن قلت : ما حكم التخيير في الطلاق؟ قلت : إذا قال لها اختاري ، فقالت : اخترت نفسي. أو قال : اختاري نفسك ، فقالت : اخترت ، لا بد من ذكر النفس في قول الخير أو المخيرة - وقعت طلقة بائنة عند أبى حنيفة وأصحابه ،

---

(1). أخرجه الواقدي من رواية حارثة بن زيد عن أم العلاء قالت «لما غنم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بنى النضير - الحديث» ومن طريق المسور بن رفاعة قال قال عمر يا رسول اللّه ألا تخمس ما أصبت من بنى النضير الخ؟»
(2). أخرجه الطبري من رواية سعيد عن قتادة عن الحسن نحو هذا
(3). متفق عليه من رواية الزهري عن أبى سلمة عن عائشة : وزاد ثم فعل أزواج النبي صلى اللّه عليه وسلم مثل ما فعلت»
(4). أخرجه سالم من رواية أبى الزبير عن جابر في قصة التخيير. وفي آخره «و أسألك أن تخيير امرأة من نسائك. فانه لا تسألنى امرأة منهن إلا أخبرتها ، إن اللّه لم يبعثني معنتا ولا متعنتا ، ولكن بعثني معلما ميسرا» وفي الصحيحين من رواية معمر عن الزهري عن عبد اللّه بن عبد اللّه عن ابن عباس - فذكر القصة مطولا. وفي آخره عند مسلم قال معمر فأخبرنا أيوب أن عائشة قالت له لا تخبر نساءك أنى اخترتك. قال : إن اللّه أرسلنى مبلغا ولم يرسلني متعنتا».

واعتبروا أن يكون ذلك في المجلس قبل القيام أو الاشتغال بما يدل على الإعراض ، واعتبر الشافعي اختيارها على الفور وهي عنده طلقة رجعية وهو مذهب عمر وابن مسعود. وعن الحسن وقتادة والزهري رضى اللّه عنهم : أمرها بيدها في ذلك المجلس وفي غيره ، وإذا اختارت زوجها لم يقع شيء بإجماع فقهاء الأمصار. وعن عائشة رضى اللّه عنها : خيرنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فاخترناه ولم يعده طلاقا «1». وروى : أفكان طلاقا. وعن علىّ رضى اللّه عنه. إذا اختارت زوجها فواحدة رجعية ، وإن اختارت نفسها فواحدة بائنة وروى عنه أيضا أنها إن اختارت زوجها فليس بشيء. أصل تعال : أن يقوله من في المكان المرتفع ، لمن في

فإن قلت : ما وجه قراءة من قرأ : أمتعكنّ وأسرحكنّ بالرفع؟ قلت : وجهه الاستئناف سَراحاً جَمِيلًا من غير ضرار طلاقا بالسنة مِنْكُنَّ للبيان لا للتبعيض.

[سورة الأحزاب (33) : الآيات 30 إلى 31]

يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (30) وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صالِحاً نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنا لَها رِزْقاً كَرِيماً (31)

الفاحشة : السيئة البليغة في القبح وهي الكبيرة. والمبينة : الظاهرة فحشها ، والمراد كل ما اقترفن من الكبائر. وقيل هي عصيانهن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ونشوزهنّ ، وطلبهن منه

(1). متفق عليه باللفظين.

ما يشق عليه أو ما يضيق به ذرعه ويغتم لأجله وقيل : الزنا ، واللّه عاصم رسوله من ذلك ، كما مرّ في حديث الإفك ، وإنما ضوعف عذابهنّ لأن ما قبح من سائر النساء كان أقبح منهنّ وأقبح ، لأن زيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل والمرتبة وزيادة النعمة على العاصي من المعصى ، وليس لأحد من النساء مثل فضل نساء النبي صلى اللّه عليه وسلم ولا على أحد منهنّ مثل ما للّه عليهن من النعمة ، والجزاء يتبع الفعل ، وكون الجزاء عقابا يتبع كون الفعل قبيحا ، فمتى ازداد قبحا. ازداد عقابه شدّة ، ولذلك كان ذم العقلاء للعاصي العالم : أشدّ منه للعاصي الجاهل ، لأن المعصية من العالم أقبح ، ولذلك فضل حدّ الأحرار على حد العبيد ، حتى أن أبا حنيفة وأصحابه لا يرون الرجم على الكافر وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً إيذان بأن كونهن نساء النبي صلى اللّه عليه وسلم ليس بمغن عنهن شيئا ، وكيف يغنى عنهن وهو سبب مضاعفة العذاب ، فكان داعيا إلى تشديد الأمر عليهنّ غير صارف عنه. قرئ : يأت ، بالتاء والياء. مبينة : بفتح الياء وكسرها ، من بين بمعنى تبين. يضاعف ، ويضعف : على البناء للمفعول. ويضاعف ، ونضعف : بالياء والنون.

وقرئ : تقنت ، وتعمل : بالتاء والياء. ونؤتها : بالياء والنون. والقنوت : الطاعة ، وإنما ضوعف أجرهنّ لطلبهنّ رضا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بحسن الخلق ، وطيب المعاشرة والقناعة ، وتوفرهنّ على عبادة اللّه والتقوى.

[سورة الأحزاب (33) : آية 32]

يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً(32)

أحد في الأصل بمعنى وحد ، وهو الواحد ، ثم وضع في النفي العام مستويا فيه المذكر والمؤنث والواحد وما وراءه. ومعنى قوله لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء ، أى : إذا تقصيت أمة النساء جماعة جماعة لم توجد منهن جماعة واحدة تساويكن في الفضل والسابقة ، ومثله قوله تعالى وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ «1» يريد بين جماعة واحدة منهم ،

(1). قال محمود : «معناه لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء ، أى : إذا تقصيت أمة النساء جماعة جماعة لم يوجد منهن جماعة واحدة تساويكن في الفضل والسابقة ، ومثله : ولم يفرقوا بين أحد منهم» قال أحمد : إنما بعثه على جعل التفضيل بين نساء النبي عليه الصلاة والسلام وبين جماعات النساء لا آحادهن : أن يطابق بين المتفاضلين ، لأن الأول جماعة ، وقد كان مستغنيا عن ذلك بحمل الكلام على واحدة ، ويكون المعنى أبلغ ، والتقدير : ليست واحدة منكن كأحد من النساء ، أى : كواحدة من النساء ، ويلزم من تفضيل كل واحدة منهن على كل واحدة من آحاد النساء تفضيل جماعتهن على كل جماعة ، ولا يلزم ذلك في العكس ، فتأمله والله أعلم وجاء التفضيل هاهنا كمجيئه في قوله تعالى أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ وقوله وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى في تقديم الأفضل عند التفضيل ، وقد مضت في ذلك نكتة حسنة ، والله الموفق.

تسوية بين جميعهم في أنهم على الحق المبين إِنِ اتَّقَيْتُنَّ إن أردتن التقوى ، وإن كنتن «1» متقيات فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فلا تجبن بقولكن خاضعا ، أى : لينا خنثا مثل كلام المريبات والمومسات فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ أى ريبة وفجور. وقرئ بالجزم ، عطفا على محل فعل النهى ، على أنهن نهين عن الخضوع بالقول. ونهى المريض القلب عن الطمع ، كأنه قيل : لا تخضعن فلا يطمع. وعن ابن محيصن أنه قرأ بكسر الميم ، وسبيله ضم الياء مع كسرها وإسناد الفعل إلى ضمير القول ، أى : فيطمع القول المريب قَوْلًا مَعْرُوفاً بعيدا من طمع المريب بجد وخشونة من غير تخنث ، أو قولا حسنا مع كونه خشنا.

[سورة الأحزاب (33) : آية 33]

وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (33)

وَقَرْنَ بكسر القاف ، من وقر يقر وقارا. أو من قرّ يقرّ ، حذفت الأولى من رائى : أقررن ، ونقلت كسرتها إلى القاف ، كما تقول : ظلن ، وقرن : بفتحها ، وأصله : أقررن ، فحذفت الراء وألقيت فتحتها على ما قبلها ، كقولك : ظلن ، وذكر أبو الفتح الهمداني في كتاب التبيان : وجها آخر ، قال : قار يقار : إذا اجتمع. ومنه. القارة، لاجتماعها ، ألا ترى إلى قول عضل والديش «2» : اجتمعوا فكونوا قارة. والْجاهِلِيَّةِ الْأُولى هي القديمة التي يقال لها الجاهلية الجهلاء ، وهي الزمن الذي ولد فيه إبراهيم عليه السلام : كانت المرأة تلبس الدرع من اللؤلؤ فتمشى وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال ، وقيل : ما بين آدم ونوح. وقيل : بين إدريس ونوح. وقيل : زمن داود وسليمان ، والجاهلية الأخرى : ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام. ويجوز أن تكون الجاهلية الأولى : جاهلية الكفر قبل الإسلام. والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق والفجور في الإسلام ، فكأن المعنى : ولا تحدثن بالتبرج جاهلية في الإسلام تتشبهن بها بأهل جاهلية الكفر. ويعضده ما روى : أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبى الدرداء رضى الله عنه «إن فيك جاهلية» قال جاهلية كفر أم إسلام؟ فقال «بل جاهلية كفر» «3»

(1). قوله «و إن كنتن متقيات» لعله «أو إن» كعبارة النسفي. (ع)
(2). قوله «إلى قول عضل والديش» في الصحاح «عضل» : قبيلة ، وهو عضل بن الهون بن خزيمة أخو الديش ، وهما القارة. وفيه أيضا «الديش بن الهون بن خزيمة» وربما قالوه بفتح الدال ، وهو أحد القارة ، والآخر عضل ابن الهون ، يقال لهما جميعا : القارة. (ع)
(3). لم أجده عن أبى الدرداء ، وإنما هو في الصحيحين عن أبى ذر. ولم يقل جاهلية كفر ... إلى آخره.

أمرهن أمرا خاصا بالصلاة والزكاة ، ثم جاء به عاما في جميع الطاعات ، لأن هاتين الطاعتين البدنية والمالية هما أصل سائر الطاعات : من اعتنى بهما حق اعتنائه جرّتاه إلى ما وراءهما ، ثم بين أنه إنما نهاهن وأمرهن ووعظهن ، لئلا يقارف أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم المآثم ، وليتصوّنوا عنها بالتقوى. واستعار للذنوب : الرجس ، وللتقوى : الطهر ، لأنّ عرض المقترف للمقبحات يتلوّث بها ويتدنس ، كما يتلوث بدنه بالأرجاس. وأما المحسنات ، فالعرض معها نقى مصون كالثوب الطاهر. وفي هذه الاستعارة ما ينفر أولى الألباب عما كرهه الله لعباده ونهاهم عنه ، ويرغبهم فيما رضيه لهم وأمرهم به. وأَهْلَ الْبَيْتِ نصب على النداء. أو على المدح. وفي هذا دليل بين على أنّ نساء النبي صلى الله عليه وسلم من أهل بيته.

[سورة الأحزاب (33) : آية 34]

وَاذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كانَ لَطِيفاً خَبِيراً (34)

ثم ذكرهن أنّ بيوتهن مهابط الوحى ، وأمرهن أن لا ينسين ما يتلى فيها من الكتاب الجامع بين أمرين : هو آيات بينات تدل على صدق النبوّة ، لأنه معجزة بنظمه. وهو حكمة وعلوم وشرائع إِنَّ اللَّهَ كانَ لَطِيفاً خَبِيراً حين علم ما ينفعكم ويصلحكم في دينكم فأنزله عليكم.

أو علم من يصلح لنبوّته ومن يصلح لأن يكونوا أهل بيته. أو حيث جعل الكلام الواحد جامعا بين الغرضين.

[سورة الأحزاب (33) : آية 35]

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَالْقانِتِينَ وَالْقانِتاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِراتِ وَالْخاشِعِينَ وَالْخاشِعاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِماتِ وَالْحافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحافِظاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِراتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (35)

يروى أنّ أزواج النبي صلى الله عليه وسلم قلن : يا رسول الله ، ذكر الله الرجال في القرآن بخير ، أفما فينا خير نذكر به؟ إنا نخاف أن لا تقبل منا طاعة «1». وقيل : السائلة أم سلمة «2».

(1). أخرجه الطبراني وابن مردويه من رواية ابن ظبيان عن ابن عباس : «قال النساء : يا رسول الله ، ما لنا لا نذكر في القرآن ... الحديث».
(2). أخرجه النسائي من رواية شريك عن محمد بن عمر عن أبى سلمة عن أم سلمة قالت «يا رسول الله مالى أسمع الرجال يذكرون في القرآن والنساء لا يذكرن. فأنزل الله تعالى إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ الآية وأخرجه الطبراني والطبري من وجه آخر عن محمد بن عمر. ورواه أحمد وابن راهويه والنسائي من رواية عثمان بن حكيم عن عبد الرحمن ابن شيبة عن أم سلمة. وأخرجه الحاكم من طريق مجاهد عن أم سلمة وروى الترمذي عن أم عمارة نحوه.

وروى أنه لما نزل في نساء النبي صلى الله عليه وسلم ما نزل ، قال نساء المسلمين : فما نزل فينا شي ء؟ «1» فنزلت. والمسلم : الداخل في السلم بعد الحرب ، المنقاد الذي لا يعاند ، أو المفوّض أمره إلى الله المتوكل عليه من أسلم وجهه إلى الله. والمؤمن : المصدق بالله ورسوله وبما يجب أن يصدق به.

والقانت : القائم بالطاعة الدائم عليها. والصادق : الذي يصدق في نيته وقوله وعمله. والصابر : الذي يصبر على الطاعات وعن المعاصي. والخاشع : المتواضع لله بقلبه وجوارحه. وقيل : الذي إذا صلى لم يعرف من عن يمينه وشماله. والمتصدق : الذي يزكى ماله ولا يخل بالنوافل. وقيل : من تصدّق في أسبوع بدرهم فهو من المتصدّقين. ومن صام البيض من كل شهر فهو من الصائمين.

والذاكر الله كثيرا : من لا يكاد يخلو من ذكر الله بقلبه أو لسانه أو بهما. وقراءة القرآن والاشتغال بالعلم من الذكر. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من استيقظ من نومه وأيقظ امرأته فصليا جميعا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات» «2» والمعنى : والحافظاتها والذاكراته ، فحذف ، لأنّ الظاهر يدل عليه. فإن قلت : أى فرق بين العطفين ، أعنى عطف الإناث على الذكور ، وعطف الزوجين على الزوجين؟ قلت : العطف الأوّل نحو قوله تعالى ثَيِّباتٍ وَأَبْكاراً في أنهما جنسان مختلفان ، إذا اشتركا في حكم لم يكن بد من توسيط العاطف بينهما. وأما العطف الثاني فمن عطف الصفة على الصفة بحرف الجمع ، فكأن معناه : إنّ الجامعين والجامعات لهذه الطاعات أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ.

[سورة الأحزاب (33) : آية 36]

وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً (36)

خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب على مولاه زيد بن حارثة ، فأبت وأبى أخوها عبد الله ، فنزلت ، فقال : رضينا يا رسول الله ، فأنكحها إياه وساق عنه إليها مهرها ستين درهما وخمارا وملحفة ودرعا وإزارا وخمسين مدا من طعام وثلاثين صاعا من تمر «3». وقيل : هي أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ، وهي أوّل من هاجر من النساء ،

(1). أخرجه الطبري من رواية سعيد عن قتادة قال «دخل نساء من المؤمنات على نساء النبي صلى الله عليه وسلم فقلن : قد ذكرنا الله في القرآن - الحديث» وأخرجه ابن سعد عن الواقدي عن معمر عن قتادة.
(2). أخرجه أصحاب السنن إلا الترمذي من رواية الأغر عن أبى سعيد وأبى هريرة مرفوعا. [.....]

(3). لم أجده موصولا. وأوله في الدارقطني من رواية الكميت بن زيد الأسدى الشاعر عن مذكور بن زيد الأسدى مولى زينب بنت جحش عن زينب بنت جحش «قالت : خطبنى عدة من قريش. فأرسلت أختى حمنة تستشير رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال لها : أين هي من بعلها؟ كتاب الله - الحديث وإسناده ضعيف.
وليس فيه ذكر مقدار المهر. نعم أخرجه ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حبان مقطوعا.

وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : قد قبلت ، وزوّجها زيدا.

فسخطت هي وأخوها وقالا : إنما أردنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فزوّجنا عبده «1» والمعنى وما صح لرجل ولا امرأة من المؤمنين إذا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أى رسول الله أو لأنّ قضاء رسول الله هو قضاء الله أَمْراً من الأمور : أن يختاروا من أمرهم ما شاءوا ، بل من حقهم أن يجعلوا رأيهم تبعا لرأيه ، واختيارهم تلوا لاختياره. فإن قلت : كان من حق الضمير أن يوحد كما تقول : ما جاءني من رجل ولا امرأة إلا كان من شأنه كذا. قلت : نعم ولكنهما وقعا تحت النفي ، فعما كل مؤمن ومؤمنة ، فرجع الضمير على المعنى لا على اللفظ. وقرئ : يكون ، بالتاء والياء. والْخِيَرَةُ ما يتخير.

[سورة الأحزاب (33) : آية 37]

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (37)

لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بالإسلام الذي هو أجل النعم ، وبتوفيقك لعتقه ومحبته واختصاصه وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ بما وفقك الله فيه ، فهو متقلب في نعمة الله ونعمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهو زيد بن حارثة أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ يعنى زينب بنت جحش رضى الله عنها ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبصرها بعد ما أنكحها إياه ، فوقعت في نفسه ، فقال : سبحان الله مقلب القلوب ، وذلك أنّ نفسه كانت تجفو عنها قبل ذلك لا تريدها ، ولو أرادتها لاختطبها ، وسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد ، ففطن وألقى الله في نفسه كراهة صحبتها والرغبة عنها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى أريد أن أفارق صاحبتي ، فقال : مالك : أرابك منها شي ء؟ قال : لا والله ، ما رأيت منها إلا خيرا ، ولكنها تتعظم علىّ لشرفها وتؤذيني ، فقال له : أمسك عليك زوجك واتق الله ، ثم طلقها بعد ، فلما اعتدت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أجد أحدا أوثق في نفسي منك ، اخطب علىّ زينب. قال زيد : فانطلقت فإذا هي تخمر عجينتها ، فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها ،

(1). أخرجه الثعلبي بهذا بغير سند وروى الطبري من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم من قوله ذلك.

حين علمت أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها ، فوليتها ظهري وقلت : يا زينب ، أبشرى إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطبك ، ففرحت وقالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أؤامر ربى ، فقامت إلى مسجدها ، ونزل القرآن «1» زَوَّجْناكَها فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل بها ، وما أو لم على امرأة من نسائه ما أو لم عليها : ذبح شاة وأطعم الناس الخبز واللحم حتى امتدّ النهار. فإن قلت : ما أراد بقوله وَاتَّقِ اللَّهَ؟ قلت : أراد : واتق الله فلا تطلقها ، وقصد نهى تنزيه لا تحريم ، لأن الأولى أن لا يطلق. وقيل : أراد : واتق الله فلا تذمّها بالنسبة إلى الكبر وأذى الزوج. فإن قلت : ما الذي أخفى في نفسه؟ قلت : تعلق قلبه بها.

وقيل : مودة مفارقة زيد إياها. وقيل : علمه بأن زيدا سيطلقها وسينكحها ، لأن الله قد أعلمه بذلك. وعن عائشة رضى الله عنها : لو كتم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا مما أوحى إليه لكتم هذه الآية «2». فإن قلت : فما ذا أراد الله منه أن يقوله حين قال له زيد : أريد مفارقتها ، وكان من الهجنة أن يقول له : افعل ، فإنى أريد نكاحها؟ قلت : كأن الذي أراد منه عز وجل أن يصمت عند ذلك ، أو يقول له : أنت أعلم بشأنك ، حتى لا يخالف سره في ذلك علانيته ، لأن الله يريد من الأنبياء تساوى الظاهر والباطن ، والتصلب في الأمور ، والتجاوب في الأحوال ، والاستمرار على طريقة مستتبة ، كما جاء في حديث إرادة رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل عبد الله بن أبى سرح واعتراض عثمان بشفاعته له : أن عمر قال له : لقد كان عينى إلى عينك ، هل تشير إلىّ فأقتله ، فقال : إن الأنبياء لا تومض ، «3» ظاهرهم وباطنهم واحد «4».

(1). ذكره الثعلبي بغير سند. وأخرج الطبري معناه من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قوله ، وفي الصحيحين عن أنس قصة زينب وزيد مختصرة. وليس فيه مما في أوله.

(2). متفق عليه من حديث عائشة رضى الله عنها.
(3). قوله «لا تومض» في الصحاح : أو مضت المرأة ، إذا سارقت النظر. (ع)
(4). لم أجده ، وفي الدلائل للبيهقي من رواية الحسن بن بشر عن الحكم بن عبد الملك عن قتادة عن أنس رضى الله عنه قال «أمن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس يوم فتح مكة إلا أربعة من الناس - فذكر الحديث قال «و نذر رجل من الأنصار أن يقتل عبد الله بن سعد إذا رآه فأتى به عثمان فشفع له ، فجعل الأنصارى يتردد ويكره أن يقدم عليه. فبايعه النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال للأنصارى : قد انتظرتك. قال : يا رسول الله أفلا أرمضت إلى؟ قال : إنه ليس للنبي أن يومض» وأخرجه الطبري من رواية سعيد عن قتادة مرسلا. وروى عبد الرزاق من طريق مقسم مولى ابن عباس قال «لما كانت المدة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش - فذكر الحديث بطوله وفيه «و أمن الناس إلا أربعة. وفيه فجاء عثمان بابن أبى سرح. فقال : بايعه يا رسول الله فأعرض عنه ثم جاء فبايعه فقال لقد أعرضت عنه ليقتله بعضكم فقال رجل من الأنصار هلا أومضت إلينا يا رسول الله؟ قال : إن النبي لا يومض» وهذا مرسل أيضا وأخرجه أبو داود وغيره من حديث سعد بن أبى وقاص نحو الأول ، لكن في آخره «ثم أقبل على أصحابه فقال : أفما كان فيكم رجل رشيد ، يقوم إلى هذا حيث رآني كففت يدي عنه فيقتله؟
قالوا : وما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك ، هلا أومأت إلينا بعينك؟ قال : لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة الأعين.

فإن قلت : كيف عاتبه الله في ستر ما استهجن التصريح به ولا يستهجن النبىّ صلى الله عليه وسلم التصريح بشيء إلا والشيء في نفسه مستهجن ، وقالة الناس لا تتعلق إلا بما يستقبح في العقول والعادات؟ وماله لم يعاتبه في نفس الأمر ولم يأمره بقمع الشهوة وكف النفس عن أن تنازع إلى زينب وتتبعها؟

ولم يعصم نبيه صلى الله عليه وسلم عن تعلق الهجنة به وما يعرضه للقالة؟ قلت : كم من شيء يتحفظ منه الإنسان ويستحيى من اطلاع الناس عليه ، وهو في نفسه مباح متسع ، وحلال مطلق ، لا مقال فيه ولا عيب عند الله ، وربما كان الدخول في ذلك المباح سلما إلى حصول واجبات يعظم أثرها في الدين ويجل ثوابها ، ولو لم يتحفظ منه لأطلق كثير من الناس فيه ألسنتهم إلا من أوتى فضلا وعلما ودينا ونظرا في حقائق الأمور ولبوبها دون قشورها.

ألا ترى أنهم كانوا إذا طعموا في بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوا مرتكزين في مجالسهم لا يريمون مستأنسين بالحديث ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤذيه قعودهم ويضيق صدره حديثهم ، والحياء يصده أن يأمرهم بالانتشار ، حتى نزلت إِنَّ ذلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ولو أبرز رسول الله صلى الله عليه وسلم مكنون ضميره وأمرهم أن ينتشروا ، لشق عليهم ، ولكان بعض المقالة ، «1» فهذا من ذاك القبيل ، لأن طموح قلب الإنسان إلى بعض مشتهياته من امرأة أو غيرها غير موصوف بالقبح في العقل ولا في الشرع ، لأنه ليس بفعل الإنسان ولا وجوده باختياره ، وتناول المباح بالطريق الشرعي ليس بقبيح أيضا ، وهو خطبة زينب ونكاحها من غير استنزال زيد عنها ، ولا طلب إليه وهو أقرب منه من زرّ قميصه أن يواسيه بمفارقتها ، مع قوة العلم بأن نفس زيد لم تكن من التعلق بها في شيء ، بل كانت تجفو عنها ، ونفس رسول الله صلى الله عليه وسلم متعلقة بها ، ولم يكن مستنكرا عندهم أن ينزل الرجل عن امرأته لصديقه، ولا مستهجنا إذا نزل عنها أن ينكحها الآخر ، فإنّ المهاجرين حين دخلوا المدينة استهم الأنصار بكل شيء ، حتى إن الرجل منهم إذا كانت له امرأتان نزل عن إحداهما وأنكحها المهاجر ، وإذا كان الأمر مباحا من جميع جهاته ولم يكن فيه وجه من وجوه القبح ولا مفسدة ولا مضرّة بزيد ولا بأحد ، بل كان مستجرا مصالح ، ناهيك بواحدة منها أن بنت عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أمنت الأيمة والضيعة ونالت الشرف وعادت أما من أمّهات المسلمين.

إلى ما ذكر الله عز وجل من المصلحة العامّة في قوله لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً فبالحرى أن يعاتب الله رسوله حين كتمه وبالغ في كتمه بقوله أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وأن لا يرضى له إلا اتحاد الضمير والظاهر ، والثبات

(1). قوله «و لكان بعض المقالة» لعله : القالة. (ع)

في مواطن الحق ، حتى يقتدى به المؤمنون فلا يستحيوا من المكافحة بالحق وإن كان مرا. فإن قلت : الواو في وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ ، وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ ما هي؟ قلت : واو الحال ، أى : تقول لزيد : أمسك عليك زوجك مخفيا في نفسك إرادة أن لا يمسكها ، وتخفى خاشيا قالة الناس وتخشى الناس ، حقيقا في ذلك بأن تخشى الله ، أو واو العطف ، كأنه قيل : وإذ تجمع بين قولك. أمسك ، وإخفاء خلافه ، وخشية الناس. والله أحق أن تخشاه ، حتى لا تفعل مثل ذلك.

إذا بلغ البالغ حاجته من شيء له فيه همة قيل : قضى منه وطره. والمعنى : فلما لم يبق لزيد فيها حاجة ، وتقاصرت عنها همته ، وطابت عنها نفسه ، وطلقها ، وانقضت عدتها زَوَّجْناكَها وقراءة أهل البيت : زوّجتكها.

[سورة الأحزاب (33) : الآيات 38 إلى 39]

ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً (38) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ وَكَفى بِاللَّهِ حَسِيباً (39)

فَرَضَ اللَّهُ لَهُ قسم له وأوجب ، من قولهم : فرض لفلان في الديوان كذا. ومنه فروض العسكر لرزقاتهم سُنَّةَ اللَّهِ اسم موضوع موضع المصدر - كقولهم : تربا ، وجندلا - : مؤكد لقوله تعالى ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ كأنه قيل : سنّ اللّه ذلك سنة في الأنبياء الماضين ، وهو أن لا يحرج عليهم في الاقدام على ما أباح لهم ووسع عليهم في باب النكاح وغيره ، وقد كانت تحتهم المهائر والسراري ، وكانت لداود عليه السلام مائة امرأة وثلاثمائة سرية ، ولسليمان عليه السلام ثلاثمائة وسبعمائة فِي الَّذِينَ خَلَوْا في الأنبياء الذين مضوا الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ يحتمل

(1). قوله «و من نفى الحرج عن المؤمنين في إجراء» لعله في عدم إجراء ، ويمكن أن المراد : الحرج الذي يكون في الاجراء والتسوية لو حصل ذلك الاجراء. (ع)

وجوه الإعراب : الجرّ ، على الوصف للأنبياء. والرفع والنصب ، على المدح على هم الذين يبلغون. أو على : أعنى الذين يبلغون. وقرئ : رسالة اللّه. قدرا مقدورا : قضاء مقضيا ، وحكما محكوما؟؟؟ ، ووصف الأنبياء بأنهم لا يخشون إلا اللّه : تعريض بعد التصريح في قوله تعالى وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ. حَسِيباً كافيا للمخاوف ، أو محاسبا على الصغيرة والكبيرة ، فيجب أن يكون حقّ الخشية من مثله.

[سورة الأحزاب (33) : آية 40]

ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَلكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (40)

ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ أى لم يكن أبا رجل منكم على الحقيقة ، حتى يثبت به وبينه ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح وَلكِنْ كان رَسُولَ اللَّهِ وكل رسول أبو أمّته فيما يرجع إلى وجوب التوقير والتعظيم له عليهم. ووجوب الشفقة والنصيحة لهم عليه ، لا في سائر الأحكام الثابتة بين الآباء والأبناء ، وزيد واحد من رجالكم الذين ليسوا بأولاده حقيقة ، فكان حكمه حكمكم ، والادعاء والتبني من باب الاختصاص والتقريب لا غير وَكان خاتَمَ النَّبِيِّينَ يعنى أنه لو كان له ولد بالغ مبلغ الرجال لكان نبيا ولم يكن هو خاتم الأنبياء، كما يروى أنه قال في إبراهيم حين توفى. لو عاش لكان نبيا «1». فإن قلت : أما كان أبا للطاهر والطيب والقاسم وإبراهيم؟ قلت : قد أخرجوا من حكم النفي بقوله مِنْ رِجالِكُمْ من وجهين ، أحدهما : أنّ هؤلاء لم يبلغوا مبلغ الرجال. والثاني : أنه قد أضاف الرجال إليهم وهؤلاء رجاله لا رجالهم. فإن قلت : أما كان أبا للحسن والحسين؟ قلت : بلى ولكنهما لم يكونا رجلين حينئذ ، وهما أيضا من رجاله لا من رجالهم ، وشيء آخر: وهو أنه إنما قصد ولده خاصة ، لا ولد ولده ، لقوله تعالى وَخاتَمَ النَّبِيِّينَ ألا ترى أن الحسن والحسين قد عاشا إلى أن نيف أحدهما «2» على الأربعين والآخر على الخمسين. قرئ. ولكن رسول اللّه بالنصب ، عطفا على أبا أَحَدٍ وبالرفع على : ولكن هو رسول اللّه. ولكنّ ، بالتشديد على حذف الخبر ، تقديره : ولكنّ رسول اللّه من عرفتموه ، أى : لم يعش له ولد ذكر. وخاتم بفتح التاء بمعنى الطابع ، وبكسرها بمعنى الطابع وفاعل الختم. وتقوّيه قراءة ابن مسعود : ولكنّ نبيا ختم النبيين. فإن قلت : كيف كان آخر الأنبياء وعيسى ينزل في آخر الزمان؟ قلت : معنى كونه آخر الأنبياء أنه

(1). أخرجه ابن ماجة من طريق مقسم عن ابن عباس في أثناء حديث. وللبخاري من حديث ابن أبى أوفى «و لو قضى أن يكون بعد محمد نبى لعاش ابنه ، ولكن لا نبى بعده».
(2). قوله «نيف أحدهما» أى : زاد. والنيف - بالتشديد والتخفيف - : الزيادة ، كذا في الصحاح. (ع)

لا ينبأ أحد بعده ، وعيسى ممن نبئ قبله ، وحين ينزل ينزل عاملا على شريعة محمد ، مصليا إلى قبلته ، كأنه بعض أمّته.

[سورة الأحزاب (33) : الآيات 41 إلى 42]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (42)

اذْكُرُوا اللَّهَ أثنوا عليه بضروب الثناء من التقديس والتحميد والتهليل والتكبير وما هو أهله ، وأكثروا ذلك بُكْرَةً وَأَصِيلًا أى في كافة الأوقات قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذكر الله على فم كل مسلم «1». وروى في قلب كل مسلم. وعن قتادة : قولوا سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلىّ العظيم ، وعن مجاهد : هذه كلمات يقولها الطاهر والجنب. والفعلان ، أعنى اذكروا وسبحوا موجهان إلى البكرة والأصيل ، كقولك : صم وصلّ يوم الجمعة ، والتسبيح من جملة الذكر ، وإنما اختصه من بين أنواعه اختصاص جبريل وميكائيل من بين الملائكة ، ليبين فضله على سائر الأذكار ، لأن معناه تنزيه ذاته عما لا يجوز عليه من الصفات والأفعال ، وتبرئته من القبائح. ومثال فضله على غيره من الأذكار فضل وصف العبد بالنزاهة من أدناس المعاصي ، والطهر من أرجاس المآثم ، على سائر أوصافه من كثرة الصلاة والصيام ، والتوفر على الطاعات كلها ، والاشتمال على العلوم ، والاشتهار بالفضائل. ويجوز أن يريد بالذكر وإكثاره : تكثير الطاعات ، والإقبال على العبادات ، فان كل طاعة وكل خير من جملة الذكر ، ثم خص من ذلك التسبيح بكرة وأصيلا وهي الصلاة في جميع أوقاتها لفضل الصلاة على غيرها. أو صلاة الفجر والعشاءين ، لأنّ أداءها أشقّ ومراعاتها أشدّ.

[سورة الأحزاب (33) : الآيات 43 إلى 44]

هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَكانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً (43) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً (44)

لما كان من شأن المصلى أن ينعطف في ركوعه وسجوده استعير لمن ينعطف على غيره حنوّا عليه وترؤفا. كعائد المريض في انعطافه عليه ، والمرأة في حنوّها على ولدها ، ثم كثر حتى استعمل في الرحمة والترؤف ومنه قولهم : صلى الله عليك ، أى ترحم عليك وترأف. فإن قلت : قوله هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ

(1). لم أجده بهذا اللفظ. وروى الدارقطني والبيهقي وابن عدى من حديث أبى هريرة قال «سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم : الرجل منا يذبح وينسى أن يسمى؟ قال : اسم الله على فم كل مسلم» وفيه مروان بن سالم.
وهو ضعيف جدا.

إن فسرته بيترحم عليكم ويترأف «1» ، فما تصنع بقوله : وَمَلائِكَتُهُ وما معنى صلاتهم؟ قلت : هي قولهم : اللهم صل على المؤمنين ، جعلوا لكونهم مستجابى الدعوة كأنهم فاعلون الرحمة والرأفة. ونظيره قوله : حياك الله ، أى أحياك وأبقاك ، وحييتك ، أى : دعوت لك بأن يحييك الله ، لأنك لاتكالك على إجابة دعوتك كأنك تبقيه على الحقيقة ، وكذلك : عمرك الله ، وعمرتك ، وسقاك الله ، وسقيتك ، وعليه قوله تعالى إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ أى ادعوا الله بأن يصلى عليه. والمعنى : هو الذي يترحم عليكم ويترأف : حيث يدعوكم إلى الخير ويأمركم بإكثار الذكر والتوفر على الصلاة والطاعة لِيُخْرِجَكُمْ من ظلمات المعصية إلى نور الطاعة وَكانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً دليل على أنّ المراد بالصلاة الرحمة. ويروى أنه لما نزل قوله تعالى إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ قال أبو بكر رضى الله عنه : ما خصك يا رسول الله بشرف إلا وقد أشركنا فيه ، فأنزلت تَحِيَّتُهُمْ من إضافة المصدر إلى المفعول ، أى : يحيون يوم لقائه بسلام ، فيجوز أن يعظمهم الله بسلامه عليهم ، كما يفعل بهم سائر أنواع التعظيم ، وأن يكون مثلا كاللقاء على ما فسرنا. وقيل : هو سلام ملك الموت والملائكة معه عليهم وبشارتهم بالجنة. وقيل : سلام الملائكة عند الخروج من القبور. وقيل : عند دخول الجنة ، كما قال وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ والأجر الكريم : الجنة.

[سورة الأحزاب (33) : الآيات 45 إلى 46]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (45) وَداعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجاً مُنِيراً (46)

شاهِداً على من بعثت إليهم ، وعلى تكذيبهم وتصديقهم ، أى : مقبولا قولك عند الله لهم وعليهم ، كما يقبل قول الشاهد العدل في الحكم. فإن قلت : وكيف كان شاهدا وقت الإرسال ، وإنما يكون شاهدا عند تحمل الشهادة أو عند أدائها؟ قلت : هي حال مقدرة ، كمسئلة الكتاب : مررت برجل معه صقر صائدا به غدا ، أى : مقدرا به الصيد غدا ، فإن قلت : قد فهم من قوله : إنا أرسلناك داعيا : أنه مأذون له في الدعاء ، فما فائدة قوله بِإِذْنِهِ؟ قلت : لم يرد

(1). قال محمود : «إن جعلت يصلى بمعنى يرحم فما بال عطف الملائكة عليه ، فأجاب بأنهم لما كانوا يدعون الله بالرحمة ويستجيب دعاءهم بذلك ، جعلوا كأنهم فاعلون الرحمة ، كما تقول : حياك الله ، بمعنى أحياك ، ثم تقول حييته ، بمعنى دعوت الله له بالحياة ، والمقصد بذلك جعل الحياة محققة له ، كأنك قلت : دعوت له بالحياء فاستجيبت الدعوة» قال أحمد : كثيرا ما يفر الزمخشري من اعتقاد إرادة الحقيقة والمجاز معا بلفظ واحد ، وقد التزمه هاهنا ، ولكن جعل الصلاة من الله حقيقة ، ومن الملائكة مجازا ، لأنه حملها على الرحمة. وأما غيره فحملها على الدعاء ، وجعلها من الملائكة حقيقة ، ومن الله مجازا ، والله أعلم.

به حقيقة الإذن ، وإنما جعل الإذن مستعارا للتسهيل والتيسير ، لأن الدخول في حق المالك متعذر ، فإذا صودف الإذن تسهل وتيسر ، فلما كان الإذن تسهيلا لما تعذر من ذلك ، وضع موضعه ، وذلك أن دعاء أهل الشرك والجاهلية إلى التوحيد والشرائع أمر في غاية الصعوبة والتعذر ، فقيل : بإذنه ، للإيذان بأن الأمر صعب لا يتأتى ولا يستطاع إلا إذا سهله الله ويسره ، ومنه قولهم في الشحيح : أنه غير مأذون له في الإنفاق ، أى : غير مسهل له الإنفاق لكونه شاقا عليه داخلا في حكم التعذر. جلى به الله ظلمات الشرك واهتدى به الضالون ، كما يجلى ظلام الليل بالسراج المنير ويهتدى به. أو أمدّ الله بنور نبوّته نور البصائر ، كما يمدّ بنور السراج نور الأبصار. وصفه بالإنارة لأن من السراج ما لا يضيء إذا قل سليطه ودقت فتيلته. وفي كلام بعضهم : ثلاثة تضيء : رسول بطيء ، وسراج لا يضيء ، ومائدة ينتظر لها من يجيء. وسئل بعضهم عن الموحشين؟ فقال : ظلام ساتر ، وسراج فاتر. وقيل : وذا سراج منير. أو وتاليا سراجا منيرا. ويجوز على هذا التفسير أن يعطف على كاف أَرْسَلْناكَ.

[سورة الأحزاب (33) : آية 47]

وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً (47)

الفضل : ما يتفضل به عليهم زيادة على الثواب ، وإذا ذكر المتفضل به وكبره فما ظنك بالثواب. ويجوز أن يريد بالفضل : الثواب ، من قولهم للعطايا : فضول وفواضل ، وأن يريد أنّ لهم فضلا كبيرا على سائر الأمم ، وذلك الفضل من جهة الله ، وأنه آتاهم ما فضلوهم به.

[سورة الأحزاب (33) : آية 48]

وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ وَدَعْ أَذاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلاً (48)

وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ معناه : الدوام والثبات على ما كان عليه. أو التهييج أَذاهُمْ يحتمل إضافته إلى الفاعل والمفعول. يعنى : ودع أن تؤذيهم بضرر أو قتل ، وخذ بظاهرهم ، وحسابهم على الله في باطنهم. أو : ودع ما يؤذونك به ولا تجازهم عليه حتى تؤمر ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما : هي منسوخة بآية السيف وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فإنه يكفيكهم ، وكفى به مفوّضا إليه ، ولقائل أن يقول : وصفه الله بخمسة أوصاف ، وقابل كلا منها بخطاب مناسب له ، قابل الشاهد بقوله : وبشر المؤمنين ، لأنه يكون شاهدا على أمته وهم يكونون شهداء على سائر الأمم ، وهو الفضل الكبير والمبشر بالإعراض عن الكافرين والمنافقين ، لأنه إذا أعرض عنهم أقبل جميع إقباله على المؤمنين ، وهو مناسب للبشارة والنذير بدع أذاهم ، لأنه إذا ترك أذاهم في الحاضر - والأذى لا بدّ له من عقاب عاجل أو آجل - كانوا منذرين به في المستقبل ، والداعي إلى الله بتيسيره بقوله وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ لأنّ من توكل على الله يسر عليه كل عسير ، والسراج المنير بالاكتفاء به وكيلا ، لأن من أناره الله برهانا على جميع خلقه ، كان جديرا بأن يكتفى به عن جميع خلقه.

[سورة الأحزاب (33) : آية 49]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلاً (49)

النكاح : الوطء ، وتسمية العقد نكاحا لملابسته له ، من حيث أنه طريق إليه. ونظيره تسميتهم الخمر إثما ، لأنها سبب في اقتراف الإثم ، ونحوه في علم البيان قول الراجز : أسنمة الآبال في سحابه «1»

سمى الماء بأسنمة الآبال ، لأنه سبب سمن المال وارتفاع أسنمته ، ولم يرد لفظ النكاح في كتاب اللّه إلا في معنى العقد ، لأنه في معنى الوطء من باب التصريح به. ومن آداب القرآن : الكناية عنه بلفظ الملامسة والمماسة والقربان والتغشى والإتيان. فإن قلت : لم خصّ المؤمنات والحكم الذي نطقت به الآية تستوي فيه المؤمنات والكتابيات؟ قلت : في اختصاصهنّ تنبيه على أن أصل أمر المؤمن والأولى به : أن يتخير لنطفته ، وأن لا ينكح إلا مؤمنة عفيفة ، ويتنزه عن مزاوجة الفواسق فما بال الكوافر ، ويستنكف أن يدخل تحت لحاف واحد عدوة اللّه ووليه ، فالتي في سورة المائدة : تعليم ما هو جائز غير محرّم ، من نكاح المحصنات من الذين أوتوا الكتاب.

وهذه فيها تعليم ما هو الأولى بالمؤمنين من نكاح المؤمنات. فإن قلت : ما فائدة ثم في قوله ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ؟ قلت : فائدته نفى التوهم عمن عسى يتوهم تفاوت الحكم : بين أن يطلقها وهي قريبة العهد من النكاح ، وبين أن يبعد عهدها بالنكاح ويتراخى بها المدة في حبالة الزواج ثم يطلقها : فإن قلت : إذا خلا بها خلوة يمكنه معها المساس، هل يقوم ذلك مقام المساس؟

(1) أقبل كالمستن من ربابه كأنما الوابل في مصابه
أسنمة الآبال في سحابه
يصف مطرا بالكثرة والثروة. ويقال : استن الفرس ، إذا قمص ولعب ، وهو أن يرفع يديه ويطرحهما تارة ورجليه أخرى على التعاقب. وقمص البحر بالسفينة : إذا حركها ، فرفع مقدمها تارة ومؤخرها أخرى ، فالمستن : اسم فاعل منه ، واستعير للسحاب : إذ أقبل يتحرك وفيه المطر. والرباب : السحاب الأبيض المتلاصق. وضمير «أقبل» و«ربابه» للمطر. والوابل : إظهار في مقام الإضمار ، للدلالة على الكثرة. وفي مصابه : حال له. وأسنمة الآبال : مبتدأ. وفي سحابه : خبر ، والجملة خبر الوائل ، وأطلق الأسنمة على الماء لأنه سبب سمنها ، والمصاب : مصدر على زنة المفعول. الوابل : المطر الشديد الوقع. والأسنمة : جمع سنام. والآبال - بمد الهمزة - : جمع الإبل

قلت ، نعم عند أبى حنيفة وأصحابه حكم الخلوة الصحيحة حكم المساس ، وقوله فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ دليل على أن العدة حق واجب على النساء للرجال تَعْتَدُّونَها تستوفون عددها ، من قولك : عددت الدراهم فاعتدها ، كقولك. كلته فأكتاله ، ووزنته فاتزنه. وقرئ : تعتدونها ، مخففا ، أى : تعتدون فيها «كقوله : ويوم شهدناه «1» والمراد بالاعتداد ما في قوله تعالى وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِراراً لِتَعْتَدُوا. فإن قلت : ما هذا التمتيع أواجب أم مندوب إليه؟ قلت إن كانت غير مفروض لها كانت المتعة واجبة ، ولا تجب المتعة عند أبى حنيفة إلا لها وحدها دون سائر المطلقات ، وإن كانت مفروضا لها ، فالمتعة مختلف فيها : فبعض على الندب والاستحباب ، ومنهم أبو حنيفة. وبعض على الوجوب سَراحاً جَمِيلًا من غير ضرار ولا منع واجب.

[سورة الأحزاب (33) : الآيات 50 إلى 51]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَما مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَناتِ عَمِّكَ وَبَناتِ عَمَّاتِكَ وَبَناتِ خالِكَ وَبَناتِ خالاتِكَ اللاَّتِي هاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ وَما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (50) تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَيْكَ ذلِكَ أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِما آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً (51)

أُجُورَهُنَّ مهورهنّ ، لأنّ المهر أجر على البضع. وإيتاؤها : إما إعطاؤها عاجلا. وإما فرضها وتسميتها في العقد. فإن قلت : لم قال : اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ومِمَّا أَفاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ واللَّاتِي هاجَرْنَ مَعَكَ وما فائدة هذه التخصيصات؟ قلت : قد اختار اللّه لرسوله الأفضل الأولى ، واستحبه بالأطيب الأزكى ، كما اختصه بغيرها من الخصائص ، وآثره بما سواها من الأثر ، وذلك أنّ تسمية المهر في العقد أولى وأفضل من ترك التسمية ، وإن وقع العقد جائزا ، وله أن يماسها وعليه مهر المثل إن دخل بها ،

(1). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة 408 فراجعه إن شئت اه مصححه. [.....]

والمتعة إن لم يدخل بها. وسوق المهر إليها عاجلا أفضل من أن يسميه ويؤجله ، وكان التعجيل ديدن السلف وسنتهم ، وما لا يعرف بينهم غيره ، وكذلك الجارية إذا كانت سبية مالكها ، وخطبة سيفه ورمحه ، ومما غنمه

(1). قوله «كما أن رزق الله يجب إطلاقه على الحلال» هذا عند المعتزلة. أما أهل السنة فيطلقونه على القسمين. (ع)
(2). أخرجه الترمذي والحاكم وابن أبى شيبة وإسحاق والطبري والطبراني وابن أبى حاتم كلهم من رواية السدى عن أبى صالح عنها

والمدعى للاشتراك في اللفظ يحتاج إلى دليل. وقال أبو الحسن الكرخي : إن عقد النكاح بلفظ الإجارة جائز ، لقوله تعالى اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وقال أبو بكر الرازي : لا يصح ، لأنّ الإجارة عقد مؤقت ، وعقد النكاح مؤبد، فهما متنافيان خالِصَةً مصدر مؤكد ، كوعد الله ، وصبغة الله ، أى : خلص لك إحلال ما أحللنا لك خالصة، بمعنى خلوصا ، والفاعل والفاعلة في المصادر غير عزيزين ، كالخارج والقاعد ، والعافية والكاذبة. والدليل على أنها وردت في أثر الإحلالات الأربع مخصوصة برسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل التوكيد لها قوله : قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ وَما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ بعد قوله مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وهي جملة اعتراضية ، وقوله لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ متصل بخالصة لك من دون المؤمنين ، ومعنى هذه الجملة الاعتراضية أنّ الله قد علم ما يجب فرضه على المؤمنين في الأزواج والإماء ، وعلى أى حدّ وصفة يجب أن يفرض عليهم ففرضه ، وعلم المصلحة في اختصاص رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اختصه به ففعل ومعنى لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ لئلا يكون عليك ضيق في دينك : حيث اختصصناك بالتنزيه واختيار ما هو أولى وأفضل ، وفي دنياك : حيث أحللنا لك أجناس المنكوحات وزدنا لك الواهبة نفسها. وقرئ : خالصة ، بالرفع ، أى : ذاك خلوص لك وخصوص من دون المؤمنين ومن جعل خالصة نعتا للمرأة ، فعلى مذهبه : هذه المرأة خالصة لك من دونهم وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً للواقع في الحرج إذا تاب رَحِيماً بالتوسعة على عباده. روى أن أمهات المؤمنين حين تغايرن وابتغين زيادة النفقة وغظن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هجرهنّ شهرا ، ونزل التخيير ، فأشفقن أنّ يطلقهنّ ، فقلن : يا رسول الله ، افرض لنا من نفسك ومالك ما شئت «1». وروى أن عائشة رضى الله عنها قالت : يا رسول الله إنى أرى ربك يسارع في هواك «2» تُرْجِي بهمز وغير همز : تؤخر وَتُؤْوِي تضمّ ، يعنى : تترك مضاجعة من تشاء منهن ، وتضاجع من تشاء. أو تطلق من تشاء ، وتمسك من تشاء.

(1). هذا ملفق من أحاديث. فأوله عند مسلم من طريق أبى الزبير عن جابر قال «دخل أبو بكر على النبي صلى الله عليه وسلم والناس على الباب جلوس ... الحديث» وفيه قول أبى بكر وعمر قال «فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : هن حولي كما ترى يسألننى النفقة - فذكر الحديث - وفيه : فأنزل الله آية التخيير» وقوله «و هجرهن شهرا» هذا هو من حديث عائشة في الصحيحين. وقوله «تأشفقن أن يطلقهن - إلى آخره» أخرجه ابن أبى شيبة من رواية رزين أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يفارق نساءه فقلن له : اقسم لنا من نفسك ومالك ما شئت ودعنا على حالنا» وهذا مرسل. وروى ابن مردويه من طريق سالم الأفطس عن مجاهد قال كان للنبي صلى الله عليه وسلم تسع نسوة وخشين أن يطلقهن ، فقلن : يا رسول الله اقسم لنا من نفسك ومالك ما شئت ولا تطلقنا. فنزلت تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ الآية
(2). متفق عليه من حديث هشام عن أبيه عن عائشة في أثناء حديث ووهم الحاكم فاستدركه

أولا تقسم لأيتهن شئت ، وتقسم لمن شئت. أو تترك تزوّج من شئت من نساء أمّتك ، وتتزوّج من شئت. وعن الحسن رضى اللّه عنه : كان النبي صلى اللّه عليه وسلم إذا خطب امرأة لم يكن لأحد أن يخطبها حتى يدعها ، وهذه قسمة جامعة لما هو الغرض ، لأنه إما أن يطلق ، وإما أن يمسك ، فإذا أمسك ضاجع أو ترك وقسم أو لم يقسم. وإذا طلق وعزل ، فإما أن يخلى المعزولة لا يبتغيها ، أو يبتغيها. روى أنه أرجى منهن سودة وجويرية وصفية وميمونة وأم حبيبة ، فكان يقسم لهنّ ما شاء كما شاء ، وكانت ممن آوى إليه : عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب رضى اللّه عنهن أرجى خمسا وآوى أربعا «1». وروى أنه كان يسوّى مع ما أطلق له وخير فيه إلا سودة ، فإنها وهبت ليلتها لعائشة وقالت : لا تطلقني حتى أحشر في زمرة نسائك «2» ذلِكَ التفويض إلى مشيئتك أَدْنى إلى قرّة عيونهن وقلة حزنهن ورضاهن جميعا ، لأنه إذا سوّى بينهن في الإيواء والإرجاء والعزل والابتغاء. وارتفع التفاضل ، ولم يكن لإحداهن مما تريد ومما لا تريد إلا مثل ما للأخرى. وعلمن أنّ هذا التفويض من عند اللّه بوحيه - اطمأنت نفوسهن وذهب التنافس والتغاير ، وحصل الرضا وقرّت العيون ، وسلت القلوب وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ فيه وعيد لمن لم ترض منهنّ بما دبر اللّه من ذلك وفوّض إلى مشيئة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وبعث على تواطئ قلوبهن والتصافي بينهن والتوافق على طلب رضا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وما فيه طيب نفسه. وقرئ : تقرّ أعينهنّ ، بضم التاء ونصب الأعين.

وتقرّ أعينهن ، على البناء للمفعول وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً بذات الصدور حَلِيماً لا يعاجل بالعقاب ، فهو حقيق بأن يتقى ويحذر ، كُلُّهُنَّ تأكيد لنون يرضين ، وقرأ ابن مسعود : ويرضين كلهن. بما آتيتهنّ. على التقديم. وقرأ : كلهن ، تأكيدا ل «هن» في آتَيْتَهُنَّ.

[سورة الأحزاب (33) : آية 52]

لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً (52)

لا يَحِلُّ وقرئ بالتذكير ، لأنّ تأنيث الجمع غير حقيقى ، وإذا جاز بغير فصل في قوله تعالى وَقالَ نِسْوَةٌ كان مع الفصل أجوز مِنْ بَعْدُ من بعد التسع ،

(1). أخرجه ابن أبى شيبة عن جرير وعبد الرزاق عن معمر كلاهما عن منصور عن أبى رزين وهذا مرسل.
(2). أما كونه كان يسوى فمن حديث عائشة رضى اللّه عنها «كان يقسم فيعدل» وأما قصة سودة فروى الترمذي عن ابن عباس «أن سودة خشيت أن يطلقها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فقالت : يا رسول اللّه لا تطلقني ، وأمسكنى واجعل يومى لعائشة ، ففعل» وفي الطبراني من رواية ابن أبى الزناد عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت «ما كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يفضل بعضنا على بعض في القسم. وكان قل يوم إلا وهو يطيف بنا ويدنو من كل واحدة منا من غير مسيس حتى ينتهى إلى التي هي يومها فيبيت عندها ، ولقد قالت له سودة بنت زمعة وقد أراد أن يفارقها : يومى منك وتصيبى لعائشة. فقبل ذلك منها ، وفيها نزلت وَإِنِ امْرَأَةٌ خافَتْ مِنْ بَعْلِها نُشُوزاً أَوْ إِعْراضاً الآية».

لأنّ التسع نصاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من الأزواج ، كما أن الأربع نصاب أمّته منهنّ ، فلا يحل له أن يتجاوز النصاب وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ ولا أن تستبدل بهؤلاء التسع أزواجا أخر بكلهنّ أو بعضهن ، أراد اللّه لهنّ كرامة وجزاء على ما اخترن ورضين. فقصر النبيّ صلى اللّه عليه وسلم عليهنّ ، وهي التسع «1» اللاتي مات عنهن : عائشة بنت أبى بكر. حفصة بنت عمر. أمّ حبيبة بنت أبى سفيان. سودة بنت زمعة. أمّ سلمة بنت أبى أمية. صفية بنت حيي الخيبرية. ميمونة بنت الحرث الهلالية. زينب بنت جحش الأسدية ، جويرية بنت الحرث المصطلقية ، رضى اللّه عنهن «2». من في مِنْ أَزْواجٍ لتأكيد النفي ، وفائدته استغراق جنس الأزواج بالتحريم. وقيل معناه : لا تحل لك النساء من بعد النساء اللاتي نص إحلالهنّ لك من الأجناس الأربعه من الأعرابيات والغرائب ، أو من الكتابيات ، أو من الإماء بالنكاح. وقيل في تحريم التبدل : هو من البدل الذي كان في الجاهلية كان يقول الرجل للرجل : بادلني بامرأتك ، وأبادلك بامرأتى ، فينزل كل واحد منهما عن امرأته لصاحبه. ويحكى أنّ عيينة بن حصن دخل على النبيّ صلى اللّه عليه وسلم وعنده عائشة من غير استئذان ، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : يا عيينة ، أين الاستئذان؟ قال : يا رسول اللّه ، ما استأذنت على رجل قط ممن مضى منذ أدركت. ثم قال : من هذه الجميلة إلى جنبك؟ فقال صلى اللّه عليه وسلم : هذه عائشة أمّ المؤمنين. قال عيينة : أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق؟ فقال صلى اللّه عليه وسلم : إنّ اللّه قد حرّم ذلك. فلما خرج قالت عائشة رضى اللّه عنها : من هذا يا رسول اللّه؟ قال : أحمق مطاع ، وإنه - على ما ترين - لسيد قومه «3». وعن عائشة رضى اللّه عنها : ما مات رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حتى أحل له النساء ، يعنى : أنّ الآية قد نسخت«4» ،

(1). قوله «و هي التسع» لعله «و هن». (ع)
(2). هذا مجمع عليه كما قال الواقدي وغيره ، لكن اختلف في ريحانة وروى ابن أبى خيثمة عن الزهري وعن قتادة وقال أبو عبيد : صح عندنا وثبت أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم تزوج خديجة فلم يتزوج عليها حتى ماتت ، ثم تزوج سودة ، ثم عائشة ، ثم أم سلمة. ثم حفصة ، ثم زينب بنت جحش ، ثم جويرية ، ثم أم حبيبة ، ثم صفية ثم ميمونة ، ثم فاطمة بنت سريج ، ثم زينب بنت خزيمة، ثم هند بنت يزيد ، ثم اسماء بنت النعمان ، ثم هيلة بنت قيس أخت الأشعث. ثم أسماء بنت سبأ» وقال الواحدي : والمجمع عليه أنه تزوج أربع عشرة : التسع التي مات عنهن وتزوج أيضا خديجة وزينب بنت خزيمة وريحانة ومتن عنده ، وتزوج أيضا فاطمة بنت الضحاك وأسماء بنت النعمان ولم يدخل بهما.
(3). أخرجه البزار من حديث أبى هريرة بهذا وأتم منه وفيه إسحاق بن عبد اللّه القروي وهو متروك. وله شاهد من حديث جرير أخرجه الطبراني ، وآخر عن عائشة أخرجه ابن سعد.
(4). أخرجه الترمذي وأحمد وإسحاق والنسائي وأبو يعلى والطبري والبزار وابن حبان والحاكم من حديث عائشة رضى اللّه عنها بالحديث دون التفسير وأخرجه ابن أبى حاتم وابن سعد من حديث أم سلمة رضى اللّه عنها.

ولا يخلو نسخها إما أن يكون بالسنة ، وإما بقوله تعالى إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ وترتيب النزول ليس على ترتيب المصحف وَلَوْ أَعْجَبَكَ في موضع الحال من الفاعل ، وهو الضمير في تَبَدَّلَ لا من المفعول الذي هو مِنْ أَزْواجٍ لأنه موغل في التنكير ، وتقديره : مفروضا إعجابك بهنّ. وقيل : هي أسماء بنت عميس الخثعمية امرأة جعفر بن أبى طالب ، والمراد أنها ممن أعجبه حسنهنّ ، واستثنى ممن حرم عليه : الإماء رَقِيباً حافظا مهيمنا ، وهو تحذير عن مجاوزة حدوده وتخطى حلاله إلى حرامه.

[سورة الأحزاب (33) : آية 53]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلى طَعامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ وَلكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذلِكُمْ كانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً (53)

أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ في معنى الظرف تقديره وقت أن يؤذن لكم. وغَيْرَ ناظِرِينَ حال من لا تَدْخُلُوا وقع الاستثناء على الوقت والحال معا. كأنه قيل : لا تدخلوا بيوت النبي صلى اللّه عليه وسلم إلا وقت الإذن ، ولا تدخلوها إلا غير ناظرين ، وهؤلاء قوم كانوا يتحينون طعام رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ، فيدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه. ومعناه : لا تدخلوا يا هؤلاء المتحينون للطعام ، إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إياه ، وإلا فلو لم يكن لهؤلاء خصوصا ، لما جاز لأحد أن يدخل بيوت النبي صلى اللّه عليه وسلم إلا أن يؤذن له إذنا خاصا ، وهو الإذن إلى الطعام فحسب. وعن ابن أبى عبلة أنه قرأ : غير ناظرين ، مجرورا صفة لطعام ، وليس بالوجه، لأنه جرى على غير ما هو له ، فمن حق ضمير ما هو له أن يبرز إلى اللفظ ، فيقال : غير ناظرين إناه أنتم ، كقولك : هند زيد ضاربته هي. وإنى الطعام : إدراكه.

يقال : أنى الطعام إنى ، كقولك : قلاه قلى. ومنه قوله بَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ بالغ إناه. وقيل إِناهُ : وقته ، أى : غير ناظرين وقت الطعام وساعة أكله. وروى أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أو لم على زينب بتمر وسويق وشاة، وأمر أنسا أن يدعو بالناس ، فترادفوا أفواجا يأكل فوج فيخرج ، ثم يدخل فوج إلى أن قال : يا رسول اللّه، دعوت حتى ما أجد أحدا أدعوه ، فقال : ارفعوا طعامكم وتفرق الناس ، وبقي ثلاثة نفر يتحدثون فأطالوا : فقام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ليخرجوا ، فانطلق إلى حجرة عائشة رضى اللّه عنها فقال : السلام عليكم أهل البيت فقالوا : عليك السلام يا رسول اللّه ، كيف وجدت أهلك؟ وطاف بالحجرات فسلم عليهن ودعون له ، ورجع فإذا الثلاثة جلوس يتحدثون ، وكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم شديد الحياء ، فتولى ، فلما رأوه متوليا خرجوا ، فرجع «1» ونزلت : وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ نهوا عن أن يطيلوا الجلوس يستأنس بعضهم ببعض لأجل حديث يحدثه به. أو عن أن يستأنسوا حديث أهل البيت. واستئناسه : تسمعه وتوجسه ، وهو مجرور معطوف على ناظرين. وقيل : هو منصوب على : ولا تدخلوها مستأنسين. لا بد في قوله فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ من تقدير المضاف ، أى : من إخراجكم ، بدليل قوله وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ يعنى أن إخراجكم حتى ما ينبغي أن يستحيا منه. ولما كان الحياء مما يمنع الحيي من بعض الأفعال ، قيل لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ بمعنى لا يمتنع منه ولا يتركه ترك الحيي منكم ، وهذا أدب أدّب اللّه به الثقلاء. وعن عائشة رضى اللّه عنها : حسبك في الثقلاء أنّ اللّه تعالى لم يحتملهم وقال : فإذا طعمتم فانتشروا «2». وقرئ : لا يستحى ، بياء واحدة. الضمير في سَأَلْتُمُوهُنَّ لنساء النبي صلى اللّه عليه وسلم ، ولم يذكرن لأنّ الحال ناطقة بذكرهن مَتاعاً حاجة فَسْئَلُوهُنَّ المتاع. قيل : إن عمر رضى اللّه عنه كان يحب ضرب الحجاب عليهن محبة شديدة ، وكان يذكره كثيرا ، ويود أن ينزل فيه ، وكان يقول : لو أطاع فيكن ما رأتكن عين ، وقال : يا رسول اللّه ، يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات

(1). متفق عليه من حديث أنس وله طرق عندهما وألفاظ.
(2). أخرجه الثعلبي من طريق العلاء سمعت عائشة بهذا. قلت : كذا بخط المخرج. وهو غلط واضح جدا. فان العلاء إنما يروى عن ابن عائشة صاحب النوادر ولم يدرك أصحاب أصحابه عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها فضلا عنها ولعلهكان في الأصل ابن عائشة فسقط ابن
(3). متفق عليه من حديثين هذا أحدهما. أخرجه النسائي والبخاري في الأدب المفرد والطبراني في الصغير من طريق مجاهد عن عائشة قالت «كنت آكل مع النبي صلى الله عليه وسلم حيسا في قصعة فمر عمر فدعاه فأكل فأصابت أصبعه أصبعى ، فقال عمر : أواه لو أطاع فيكن ما رأتكن عين فنزل الحجاب» ورواه ابن أبى شيبة والطبري من طريق مجاهد مرسلا وصوبه الدارقطني في العلل والثاني أخرجه النسائي أيضا من طريق أنس عن عمر رضى اللّه عنه قال «قلت يا رسول اللّه يدخل عليك البر والفاجر فلو حجبت أمهات المؤمنين فأنزل اللّه آية الحجاب وأصله في الصحيح.
(4). أخرجه الثعلبي من رواية مجاهد عن الشعبي قال «مر عمر على نساء النبي صلى اللّه عليه وسلم» فذكره [.....]

وقيل : إنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان يطعم ومعه بعض أصحابه ، فأصابت يد رجل منهم يد عائشة ، فكره النبي صلى اللّه عليه وسلم ذلك ، «1» فنزلت آية الحجاب.

وذكر أنّ بعضهم قال : أننهى أن نكلم بنات عمنا إلا من وراء حجاب ، لئن مات محمد لأتزوجن عائشة. فأعلم اللّه أن ذلك محرم «2» وَما كانَ لَكُمْ وما صح لكم إيذاء رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ولا نكاح أزواجه من بعده. وسمى نكاحهن بعده عظيما عنده ، وهو من أعلام تعظيم اللّه لرسوله وإيجاب حرمته حيا وميتا ، وإعلامه بذلك مما طيب به نفسه وسر قلبه واستغزر شكره. فإن نحو هذا مما يحدث الرجل به نفسه ولا يخلى منه فكره. ومن الناس من تفرط غيرته على حرمته حتى يتمنى لها الموت لئلا تنكح من بعده. وعن بعض الفتيان أنه كانت له جارية لا يرى الدنيا بها شغفا واستهتارا ، «3» فنظر إليها ذات يوم فتنفس الصعداء وانتحب فعلا نحيبه مما ذهب به فكره هذا المذهب ، فلم يزل به ذلك حتى قتلها ، تصورا لما عسى يتفق من بقائها بعده وحصولها تحت يد غيره. وعن بعض الفقهاء أن الزوج الثاني في هدم الثلاث مما يجرى مجرى العقوبة ، فصين رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عما يلاحظ ذلك.

[سورة الأحزاب (33) : آية 54]

إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (54)

إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً من نكاحهن على ألسنتكم أَوْ تُخْفُوهُ في صدوركم فَإِنَّ اللَّهَ يعلم ذلك فيعاقبكم به ، وإنما جاء به على أثر ذلك عاما لكل باد وخاف ، ليدخل تحته نكاحهن وغيره ولأنه على هذه الطريقة أهول وأجزل.

[سورة الأحزاب (33) : آية 55]

لا جُناحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبائِهِنَّ وَلا أَبْنائِهِنَّ وَلا إِخْوانِهِنَّ وَلا أَبْناءِ إِخْوانِهِنَّ وَلا أَبْناءِ أَخَواتِهِنَّ وَلا نِسائِهِنَّ وَلا ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً (55)

(1). وهو في حديث النسائي الذي قدمناه أولا.
(2). أخرجه ابن سعد عن الواقدي عن عبد اللّه بن جعفر عن ابن أبى عون عن ابن بكر بن حزام في هذه الآية نزلت في طلحة قال : إذا توفى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم تزوجت عائشة» وقال عبد الرزق أخبرنا معمر عن قتادة أن رجلا قال «لو قد مات محمد لأتزوجن عائشة رضى اللّه عنها» فأنزل اللّه تعالى وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ الآية» وروى ابن أبى حاتم وابن مردويه من رواية داود عن عكرمة عن ابن عباس في هذه الآية قال «نزلت في رجل هم أن يتزوج بعض نساء النبي صلى اللّه عليه وسلم - الحديث» من طريق السدى أن الذي عزم على ذلك عائشة رضى اللّه عنها.
(3). قوله «لا يرى الدنيا بها شغفا واستهتارا» في الصحاح : فلان مستهتر بالشراب ، أى : مولع به ، لا يبالى ما قيل فيه. (ع)

روى أنه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب : يا رسول اللّه ، أو نحن أيضا نكلمهن من وراء الحجاب ، فنزلت لا جُناحَ عَلَيْهِنَّ أى لا إثم عليهن في أن لا يحتجبن من هؤلاء ولم يذكر العم والخال ، لأنهما يجريان مجرى الوالدين ، وقد جاءت تسمية العم أبا.

قال اللّه تعالى : وَإِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وإسماعيل عم يعقوب. وقيل. كره ترك الاحتجاب عنهما لأنهما يصفانها لأبنائهما ، وأبناؤهما غير محارم ، ثم نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب ، وفي هذا النقل ما يدل على فضل تشديد. فقيل وَاتَّقِينَ اللَّهَ فيما أمرتن به من الاحتجاب وأنزل فيه الوحى من الاستتار ، واحططن فيه وفيما استثنى منه ما قدرتن. واحفظن حدودهما واسلكن طريق التقوى في حفظهما ، وليكن عملكن في الحجب أحسن مما كان وأنتن غير محجبات ، ليفضل سركن علنكن إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ من السر والعلن وظاهر الحجاب وباطنه شَهِيداً لا يتفاوت في علمه الأحوال.

[سورة الأحزاب (33) : آية 56]

إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً (56)

قرئ : وملائكته بالرفع ، عطفا على محل إن واسمها ، وهو ظاهر على مذهب الكوفيين ، ووجهه عند البصريين. أن يحذف الخبر لدلالة يصلون عليه صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا أى قولوا الصلاة على الرسول والسلام. ومعناه : الدعاء بأن يترحم عليه اللّه ويسلم. فإن قلت : الصلاة على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم واجبة أم مندوب إليها؟ قلت : بل واجبة ، وقد اختلفوا في حال وجوبها. فمنهم من أوجبها كلما جرى ذكره. وفي الحديث : «من ذكرت عنده فلم يصل علىّ فدخل النار فأبعده «1» اللّه» ويروى أنه قيل : يا رسول اللّه ، أرأيت قول اللّه تعالى إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ فقال صلى اللّه عليه وسلم : «هذا من العلم المكنون ولولا أنكم سألتمونى عنه ما أخبرتكم به ، إنّ اللّه وكل بى ملكين فلا أذكر عند عبد مسلم فيصلى علىّ إلا قال ذانك الملكان: غفر اللّه لك ، وقال اللّه تعالى وملائكته جوابا لذينك الملكين : آمين ، ولا أذكر عند عبد مسلم فلا يصلى علىّ إلا قال ذانك الملكان :

(1). أخرجه ابن حبان من طريق محمد بن عمر عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن النبي صلى اللّه عليه وسلم صعد المنبر فقال : آمين آمين آمين قال : إن جبريل أتانى فذكر الحديث وفيه «و من ذكرت عنده فلم يصل عليك فمات فدخل النار فأبعده اللّه» وفي الباب عن مالك بن الحويرث عند ابن حبان والطبراني. وعن ابن عباس في الطبراني وكذلك عن جابر بن سمرة وعبد اللّه بن الحارث بن جزء الزبيدي وعن بريدة عند إسحاق بن راهويه وعن عمار بن ياسر عند البزار وعن جابر بن عبد اللّه عند البيهقي في الشعب.

لا غفر اللّه لك ، وقال اللّه وملائكته لذينك الملكين : آمين» «1» ومنهم من قال : تجب في كل مجلس مرة ، وإن تكرر ذكره ، كما قيل في آية السجدة وتشميت العاطس ، وكذلك في كل دعاء في أوله وآخره. ومنهم من أوجبها في العمر مرة ، وكذا قال في إظهار الشهادتين. والذي يقتضيه الاحتياط. الصلاة عليه عند كل ذكر ، لما ورد من الأخبار «2». فإن قلت : فالصلاة عليه في الصلاة ، أهى شرط في جوازها أم لا؟ قلت : أبو حنيفة وأصحابه لا يرونها شرطا. وعن إبراهيم النخعي : كانوا يكتفون عن ذلك - يعنى الصحابة - بالتشهد ، وهو السلام عليك أيها النبي ، وأما الشافعي رحمه اللّه فقد جعلها شرطا. فإن قلت : فما تقول في الصلاة على غيره؟ قلت : القياس جواز الصلاة على كل مؤمن ، لقوله تعالى هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وقوله تعالى وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وقوله صلى اللّه عليه وسلم «اللهم صل على آل أبى أوفى» «3» ولكن للعلماء تفصيلا في ذلك : وهو أنها إن كانت على سبيل التبع كقولك : صلى اللّه على النبي وآله ، فلا كلام فيها. وأما إذا أفرد غيره من أهل البيت بالصلاة كما يفرد هو ، فمكروه ، لأن ذلك صار شعارا لذكر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ولأنه يؤدى إلى الاتهام بالرفض. وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم «4»

(1). أخرجه الطبراني وابن مردويه والثعلبي من حديث الحسن بن على. وفيه الحكم بن عبد اللّه بن خطاف وهو متروك.
(2). ومنها حديث أبى هريرة رفعه «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على» أخرجه الترمذي وابن حبان ، وفي الباب عن كعب بن عجزة أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب. وعن جابر في الأدب المفرد للبخاري ، وفي الطبراني الأوسط. وعن عبد اللّه بن الحارث بن جزء في كتاب فضل الصلاة على النبي صلى اللّه عليه وسلم لابن أبى عاصم ومنها حديث على رضى اللّه عنه «البخيل من ذكرت عنده فلم يصل على» أخرجه الترمذي من طريق عمارة بن غزية عن عبد اللّه بن على بن حسين عن أبيه عن حسين بن على عن على رضى اللّه عنه ، وأخرجه النسائي وابن حبان من هذا الوجه بغير ذكر على. وأخرجه الحاكم من هذا الوجه فقال عن عبد اللّه بن على بن الحسين عن أبى هريرة ومنها حديث أنس رفعه «من ذكرت عنده فليصل على فمن صلى على مرة صلى اللّه عليه عشرا» أخرجه النسائي. ومنها حديث ابن عباس - رفعه - «من نسى الصلاة علىّ خطئ طريق الجنه» أخرجه ابن ماجة. وله طريق أخرى عن الحسين بن على عند الطبراني. وأخرى عند البيهقي في القضايا من المعرفة عن أبى هريرة وأخرى عند ابن إسحاق وابن يعلى عن أبى ذر بلفظ «إن أضل الناس من ذكرت عنده فلم يصل على ، ومنها حديث عمر رضى اللّه عنه قال «الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى يصلى على النبي صلى اللّه عليه وسلم» أخرجه الترمذي والبيهقي في الشعب عن على نحوه ومنها حديث عبد اللّه بن عامر بن ربيعة عن أبيه - رفعه «من صلى على صلت عليه الملائكة ما صلى على ، فليقل من ذلك أو ليكثر، أخرجه ابن ماجة ، والأحاديث في فضل الصلاة على النبي صلى اللّه عليه وسلم كثيرة جدا.
(3). متفق عليه. وقد تقدم في سورة براءة

(4). تقدم في يوسف

[سورة الأحزاب (33) : الآيات 57 إلى 58]

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً (57) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً (58)

يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فيه وجهان ، أحدهما : أن يعبر بإيذائهما عن فعل ما يكرهانه ولا يرضيانه : من الكفر والمعاصي ، وإنكار النبوّة ، ومخالفة الشريعة ، وما كانوا يصيبون به رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنواع المكروه ، على سبيل المجاز. وإنما جعلته مجازا فيهما جميعا. وحقيقة الإيذاء صحيحة في رسول الله صلى الله عليه وسلم لئلا أجعل العبارة الواحدة معطية معنى المجاز والحقيقة. والثاني : أن يراد يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل في أذى الله : هو قول اليهود والنصارى والمشركين : يد الله مغلولة وثالث ثلاثة والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه. وقيل : قول الذين يلحدون في أسمائه وصفاته. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما حكى عن ربه «شتمني ابن آدم ولم ينبغ له أن يشتمني ، وآذاني ولم ينبغ له أن يؤذيني. فأما شتمه إياى فقوله : إنى اتخذت ولدا. وأما أذاه فقوله : إن الله لا يعيدني بعد أن بدأنى» وعن عكرمة : فعل أصحاب التصاوير الذين يرومون تكوين خلق مثل خلق الله «1» ، وقيل في أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم قولهم : ساحر ، شاعر ، كاهن ، مجنون. وقيل : كسر رباعيته وشج وجهه يوم أحد. وقيل : طعنهم عليه في نكاح صفية بنت حيي ، وأطلق إيذاء الله ورسوله ، وقيد إيذاء المؤمنين والمؤمنات لأن أذى الله ورسوله لا يكون إلا غير حق أبدا.

وأما أذى المؤمنين والمؤمنات ، فمنه ومنه. ومعنى بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا بغير جناية واستحقاق للأذى. وقيل : نزلت في ناس من المنافقين يؤذون عليا رضى الله عنه ويسمعونه. وقيل : في الذين أفكوا على عائشة رضى الله عنها. وقيل : في زناة كانوا يتبعون النساء وهنّ كارهات.

وعن الفضيل : لا يحل لك أن تؤذى كلبا أو خنزيرا بغير حق ، فكيف «2» وكان ابن عون لا يكرى الحوانيت إلا من أهل الذمّة ، لما فيه من الروعة عند كرّ الحول.

[سورة الأحزاب (33) : آية 59]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَبَناتِكَ وَنِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (59)

الجلباب : ثوب واسع أوسع من الخمار ودون الرداء تلويه المرأة على رأسها وتبقى منه ما ترسله على صدرها. وعن ابن عباس رضى الله عنهما : الرداء الذي يستر من فوق إلى أسفل.

---

(1). أخرجه الطبري من حديث أبى هريرة رضى الله عنه. ومن حديث ابن عباس رضى الله عنهما نحوه.
(2). «فكيف» عبارة النسفي : فكيف إيذاء المؤمنين والمؤمنات. (ع)

وقيل : الملحفة وكل ما يستتر به من كساء أو غيره. قال أبو زبيد : مجلبب من سواد اللّيل جلبابا «1»

ومعنى يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ يرخينها عليهنّ ، ويغطين بها وجوههنّ وأعطافهنّ. يقال : إذا زل الثوب عن وجه المرأة : أدنى ثوبك على وجهك ، وذلك أن النساء كنّ في أول الإسلام على هجيراهنّ في الجاهلية متبذلات، تبرز المرأة في درع وخمار فصل بين الحرّة والأمة ، وكان الفتيان وأهل الشطارة يتعرّضون إذا خرجن بالليل إلى مقاضى حوائجهنّ في النخيل والغيطان للإماء ، وربما تعرّضوا للحرّه بعلة الأمة ، يقولون : حسبناها أمة ، فأمرن أن يخالفن بزيهنّ عن زى الإماء بلبس الأردية والملاحف وستر الرؤوس والوجوه ، ليحتشمن ويهبن فلا يطمع فيهن طامع ، وذلك قوله ذلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ أى أولى وأجدر بأن يعرفن فلا يتعرّض لهن ولا يلقين ما يكرهن. فإن قلت : ما معنى مِنْ في مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ؟ قلت : هو للتبعيض ، إلا أن معنى التبعيض محتمل وجهين ، أحدهما : أن يتجلببن ببعض مالهنّ من الجلابيب ، والمراد أن لا تكون الحرة متبذلة في درع وخمار ، كالأمة والماهنة ولها جلبابان فصاعدا في بيتها.

والثاني : أن ترخى المرأة بعض جلبابها وفضله على وجهها تتقنع حتى تتميز من الأمة. وعن ابن سيرين : سألت عبيدة السلماني عن ذلك فقال : أن تضع رداءها فوق الحاجب ثم تديره حتى تضعه على أنفها. وعن السدى : أن تغطى إحدى عينيها وجبهتها ، والشق الآخر إلا العين.

وعن الكسائي : يتقنعن بملاحفهن منضمة عليهنّ ، أراد بالانضمام معنى الإدناء وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً لما سلف منهن من التفريط مع التوبة «2» ، لأن هذا مما يمكن معرفته بالعقل.

[سورة الأحزاب (33) : الآيات 60 إلى 62]

لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ فِيها إِلاَّ قَلِيلاً (60) مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (61) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً(62)

(1) أهلا بضيف أنى ما استفتح البابا مجلبب من سواد الليل جلبابا
لأبى زبيد. وأهلا : مفعول لمحذوف وجوبا ، أى : أتيت أهلا. وبضيف : متعلق بمحذوف ، أى. أرحب بضيف :
ويجوز تعلقه بأهلا ، لأن فيه معنى الترحيب. وما : مصدرية ، أى : مدة استقامة الباب. والمراد منه التعميم ، أى : في أى وقت يطلب فتح الباب : وصفه بالآتى في سواد الليل ، مبالغة في التمدح بالكرم. ويجوز؟؟؟ أن الضيف محبوبته ، فيكون الليل استزلها؟؟؟. وشبه استتار ضيفه بظلام الليل يلبس اللباس ، والتجوز في الجلببة أو في الجلباب على طريق التصريحية ، ويجوز لأن ما نافية ، وعلى هذا فيصح أن يكون خطابا لملك الموت ، حيث دخل ولم يطلب فتح الباب ، وإن كان الضيف والحبيب قد يفعلان ذلك أيضا
(2). قوله «لما سلف لعنهن من التفريط مع التوبة» هذا عند المعتزلة. أو بمجرد الفضل عند أهل السنة. (ع)

الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ قوم كان فيهم ضعف إيمان وقلة ثبات عليه. وقيل : هم الزناة وأهل الفجور من قوله تعالى فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ. وَالْمُرْجِفُونَ ناس كانوا يرجفون بأخبار السوء عن سرايا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فيقولون : هزموا وقتلوا ، وجرى عليهم كيت وكيت ، فيكسرون بذلك قلوب المؤمنين. يقال : أرجف بكذا ، إذا أخبر به على غير حقيقة ، لكونه خبرا متزلزلا غير ثابت ، من الرجفة وهي الزلزلة. والمعنى : لئن لم ينته المنافقون عن عداوتهم وكيدكم ، والفسقة عن فجورهم ، والمرجفون عما يؤلفون من أخبار السوء : لنأمرنك بأن تفعل بهم الأفاعيل التي تسوءهم وتنوؤهم «1» ، ثم بأن تضطرهم إلى طلب الجلاء عن المدينة ، وإلى أن لا يساكنوك فيها إِلَّا زمنا قَلِيلًا ريثما يرتحلون ويلتقطون أنفسهم وعيالاتهم «2» ، فسمى ذلك إغراء ، وهو التحريش على سبيل المجاز مَلْعُونِينَ نصب على الشتم أو الحال ، أى : لا يجاورونك إلا ملعونين ، دخل حرف الاستثناء على الظرف والحال معا ، كما مرّ في قوله إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلى طَعامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ ولا يصح أن ينتصب عن أُخِذُوا لأنّ ما بعد كلمة الشرط لا يعمل فيما قبلها. وقيل في قَلِيلًا وهو منصوب على الحال أيضا. ومعناه. لا يجاورونك إلا أقلاء أذلاء ملعونين. فإن قلت : ما موقع لا يجاورونك؟ قلت : لا يجاورونك عطف على لنغرينك ، لأنه يجوز أن يجاب به القسم. ألا نرى إلى صحة قولك : لئن لم ينتهوا لا يجاورونك. فإن قلت : أما كان من حق لا يجاورونك أن يعطف بالفاء ، وأن يقال لنغرينك بهم فلا يجاورونك؟ قلت : لو جعل الثاني مسببا عن الأوّل لكان الأمر كما قلت ، ولكنه جعل جوابا آخر للقسم معطوفا على الأوّل ، وإنما عطف بثم، لأن الجلاء عن الأوطان كان أعظم عليهم وأعظم من جميع ما أصيبوا به ، فتراخت حاله عن حال المعطوف عليه سُنَّةَ اللَّهِ في موضع مصدر مؤكد ، أى : سن اللّه في الذين ينافقون الأنبياء أن يقتلوا حيثما ثقفوا وعن مقاتل : يعنى كما قتل أهل بدر وأسروا.

(1). قوله «الأفاعيل التي تسوءهم وتنوؤهم» في الصحاح ، يقال : له عندي ما ساءه وناءه ، أى أثقله ، وما يسوؤه وينوؤه ، وقال بعضهم أراد ساءه وناءه وإنما قال ناءه وهو لا يتعدى لأجل ساءه ، ليزدوج الكلام. (ع)
(2). قال محمود : «المراد بقوله تعالى إِلَّا قَلِيلًا ريثما يلتقطون عيالاتهم وأنفسهم لا غير» قال أحمد : وفيها إشارة إلى أن من توجه عليه إخلاء منزل مملوك للغير بوجه شرعي ، يمهل ربّما؟؟؟ ينتقل بنفسه ومتاعه وعياله برهة من الزمان ، حتى يتحصل له منزل آخر على حسب الاجتهاد ، واللّه أعلم. [.....]

[سورة الأحزاب (33) : آية 63]

يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً (63)

كان المشركون يسألون رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن وقت قيام الساعة استعجالا على سبيل الهزء ، واليهود يسألونه امتحانا ، لأن اللّه تعالى عمى وقتها في التوراة وفي كل كتاب ، فأمر رسول اللّه صلى اللّه عليه

[سورة الأحزاب (33) : الآيات 64 إلى 65]

إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً (64) خالِدِينَ فِيها أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (65)

السعير : النار المسعورة الشديدة الإيقاد.

[سورة الأحزاب (33) : آية 66]

يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا (66)

وقرئ : تقلب ، على البناء للمفعول. وتقلب ، بمعنى تتقلب. ونقلب ، أى : نقلب نحن.

وتقلب ، على أن الفعل للسعير «1». ومعنى تقليبها : تصريفها في الجهات ، كما ترى البضعة تدور في القدر إذا غلت فترامى بها الغليان من جهة إلى جهة. أو تغييرها عن أحوالها وتحويلها عن هيئاتها. أو طرحها في النار مقلوبين منكوسين. وخصت الوجوه بالذكر ، لأن الوجه أكرم موضع على الإنسان من جسده. ويجوز أن يكون الوجه عبارة عن الجملة ، وناصب الظرف يَقُولُونَ أو محذوف. وهو «اذكر» وإذا نصب بالمحذوف كان يَقُولُونَ حالا.

[سورة الأحزاب (33) : الآيات 67 إلى 68]

وَقالُوا رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا (67) رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً(68)

وقرئ : سادتنا وساداتنا : وهم رؤساء الكفر الذين لقنوهم الكفر وزينوه لهم. يقال : ضلّ السبيل وأضله إياه ، وزيادة الألف لإطلاق الصوت : جعلت فواصل الآي كقوافى الشعر ، وفائدتها الوقف والدلالة على أن الكلام قد انقطع ، وأن ما بعده مستأنف. وقرئ : كثيرا ، تكثيرا لإعداد اللعائن. وكبيرا ، ليدل على أشد اللعن وأعظمه ضِعْفَيْنِ ضعفا لضلاله وضعفا لإضلاله : يعترفون ، ويستغيثون ، ويتمنون ، ولا ينفعهم شيء من ذلك.

(1). قوله «على أن الفعل للسعير ، يعنى : وجوههم ، بالنصب. (ع)

[سورة الأحزاب (33) : آية 69]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قالُوا وَكانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً (69)

لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى قيل : نزلت في شأن زيد وزينب ، وما سمع فيه من قالة بعض الناس. وقيل : في أذى موسى عليه السلام : هو حديث المومسة التي أرادها قارون على قذفه بنفسها ، وقيل : اتهامهم إياه بقتل هرون ، وكان قد خرج معه الجبل فمات هناك ، فحملته الملائكة ومروا به عليهم ميتا فأبصروه حتى عرفوا أنه غير مقتول. وقيل : أحياه الله فأخبرهم ببراءة موسى عليه السلام. وقيل : قرفوه بعيب «1» في جسده من برص أو أدرة ، فأطلعهم الله على أنه بريء منه وَجِيهاً ذا جاه ومنزلة عنده ، فلذلك كان يميط عنه التهم ، ويدفع الأذى، ويحافظ عليه ، لئلا يلحقه وصم ولا يوصف بنقيصة ، كما يفعل الملك بمن له عنده قربة ووجاهة. وقرأ ابن مسعود والأعمش وأبو حيوة. وكان عبد الله وجيها. قال ابن خالويه : صليت خلف ابن شنبوذ في شهر رمضان ، فسمعته يقرؤها. وقراءة العامة أوجه لأنها مفصحة عن وجاهته عند الله ، كقوله تعالى عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ وهذه ليست كذلك. فإن قلت : قوله مِمَّا قالُوا معناه : من قولهم ، أو من مقولهم ، لأنّ «ما» إما مصدرية أو موصولة ، وأيهما كان فكيف تصح البراءة منه؟ قلت المراد بالقول أو المقول : مؤداه ومضمونه ، وهو الأمر المعيب. ألا ترى أنهم سموا السبة بالقالة «2» ، والقالة بمعنى القول؟

[سورة الأحزاب (33) : الآيات 70 إلى 73]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً (71) إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً (72) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (73)

قَوْلًا سَدِيداً قاصدا إلى الحق والسداد : القصد إلى الحق ، والقول بالعدل. يقال : سدّد السهم نحو الرميّة : إذا لم يعدل به عن سمتها ، كما قالوا : سهم قاصد ، والمراد : نهيهم عما خاضوا فيه من حديث زينب من غير قصد وعدل في القول ،

(1). قوله «و قيل قرفوه بعيب» في الصحاح : قرفت الرجل ، أى : عبته ، ويقال : هو يقرف بكذا ، أى : ترمى برؤيتهم. (ع)
(2). قوله «ألا ترى أنهم سموا السبة بالقالة» في الصحاح : صار هذا الأمر سبة عليه - بالضم ، أى : عارا (ع)

والبعث على أن يسد قولهم «1» في كل باب لأنّ حفظ اللسان وسداد القول رأس الخير كله. والمعنى : راقبوا اللّه في حفظ ألسنتكم ، وتسديد قولكم ، فإنكم إن فعلتم ذلك أعطاكم اللّه ما هو غاية الطلبة من تقبل حسناتكم والإثابة عليها ، ومن مغفرة سيئاتكم وتكفيرها. وقيل إصلاح الأعمال التوفيق في المجيء بها صالحة مرضية وهذه الآية مقرّرة للتي قبلها ، بنيت تلك على النهى عما يؤذى رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وسلم ، وهذه على الأمر باتقاء اللّه تعالى في حفظ اللسان ، ليترادف عليهم النهى والأمر ، مع اتباع النهى ما يتضمن الوعيد من قصة موسى عليه السلام ، وإتباع الأمر الوعد البليغ فيقوى الصارف عن الأذى والداعي إلى تركه. لما قال وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وعلق بالطاعة الفوز العظيم ، أتبعه قوله إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ وهو يريد بالأمانة الطاعة ، فعظم أمرها وفخم شأنها ، وفيه وجهان ، أحدهما : أنّ هذه الأجرام العظام من السماوات والأرض والجبال قد انقادت لأمر اللّه عز وعلا انقياد مثلها - وهو ما يتأتى من الجمادات - وأطاعت له الطاعة التي تصح منها وتليق بها - حيث لم تمتنع على مشيئته وإرادته إيجادا وتكوينا وتسوية على هيآت مختلفة وأشكال متنوعة ، كما قال قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ وأما الإنسان فلم تكن حاله - فيما يصح منه من الطاعات ويليق به من الانقياد لأوامر اللّه ونواهيه ، وهو حيوان عاقل صالح للتكليف - مثل حال تلك الجمادات فيما يصح منها ويليق بها من الانقياد وعدم الامتناع ، والمراد بالأمانة : الطاعة ، لأنها لازمة الوجود ، كما أن الأمانة لازمة الأداء. وعرضها على الجمادات وإباؤها وإشفاقها : مجاز. وأما حمل الأمانة فمن قولك : فلان حامل للأمانة ومحتمل لها ، تريد : أنه لا يؤديها إلى صاحبها حتى تزول عن ذمّته ويخرج عن عهدتها لأن الأمانة كأنها راكبة للمؤتمن عليها وهو حاملها. ألا تراهم يقولون : ركبته الديون ، ولى عليه حق ، فإذا أداها لم تبق راكبة له ولا هو حاملا لها. ونحوه قولهم ، لا يملك مولى لمولى نصرا. يريدون : أنه يبذل النصرة له ويسامحه بها ، ولا يمسكها كما يمسكها الخاذل. ومنه قول القائل : أخوك الّذى لا تملك الحسّ نفسه وترفضّ عند المحفظات الكتائف «2»

أى لا يمسك الرقة والعطف إمساك المالك الضنين ما في يده ، بل يبذل ذلك ويسمح به. ومنه قولهم ابغض حق أخيك؟ لأنه إذا أحبه لم يخرجه إلى أخيه ولم يؤده ، وإذا أبغضه أخرجه وأدّاه ،

(1). قوله «على ان يسد قولهم» في الصحاح : سد قوله يسدّ - بالكسر - : أى صار سديدا. (ع)
(2). للقطامى. وقبل : لذي الرمة. وحس له حسا : رق له وعطف. والحس أيضا : العقل والتدبير والنظر في العواقب ، والارفضاض من الترشرش والتناثر ، وأحفظه إحفاظا : أغضبه ، فالمحفظات : المغضبات. والكتائف : جمع كتيفة ، وهي الضغينة والحقد. يقول : أخوك هو الذي لا تملك نفسه الرحمة ، بل يبذلها لك. أو لا تقدر نفسه على التدبر بالتأنى ، بل يسرع إليك بغتة وترتعد وتذهب ضغائنه من جهتك عند الأمور المغضبة لك ، لأنها تغضبه أيضا.

فمعنى : فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان ، فأبين إلا أن يؤدينها وأبى الإنسان إلا أن يكون محتملا لها لا يؤديها. ثم وصفه بالظلم لكونه تاركا لأداء الأمانة ، وبالجهل لإخطائه ما يسعده مع تمكنه منه وهو أداؤها. والثاني : أن ما كلفه الإنسان بلغ من عظمه وثقل محمله : أنه عرض على أعظم ما خلق اللّه من الأجرام وأقواه وأشدّه : أن يتحمله ويستقل به ، فأبى حمله والاستقلال به وأشفق منه ، وحمله الإنسان على ضعفه ورخاوة قوّته إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا حيث حمل الأمانة ثم لم يف بها ، وضمنها ثم خاس «1» بضمانه فيها ، ونحو هذا من الكلام كثير في لسان العرب. وما جاء القرآن إلا على طرقهم وأساليبهم من ذلك قولهم : لو قيل للشحم : أين تذهب؟

لقال : أسوى العوج ، وكم وكم لهم من أمثال على ألسنة البهائم والجمادات. وتصوّر مقاولة الشحم محال ، ولكن الغرض أنّ السمن في الحيوان مما يحسن قبيحه ، كما أن العجف مما يقبح حسنه ، فصوّر أثر السمن فيه تصويرا هو أوقع في نفس السامع ، وهي به آنس وله أقبل ، وعلى حقيقته أوقف ، وكذلك تصوير عظم الأمانة وصعوبة أمرها وثقل محملها والوفاء بها. فإن قلت : قد علم وجه التمثيل في قولهم للذي لا يثبت على رأى واحد: أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، لأنه مثلت حاله - في تميله وترجحه بين الرأيين وتركه المضي على أحدهما - بحال من يتردد في ذهابه فلا يجمع رجليه للمضى في وجهه. وكل واحد من الممثل والممثل به شيء مستقيم داخل تحت الصحة والمعرفة ، وليس كذلك ما في هذه الآية ، فإن عرض الأمانة على الجماد وإباءه وإشفاقه محال في نفسه ، غير مستقيم ، فكيف صح بناء التمثيل على المحال ، وما مثال هذا إلا أن تشبه شيئا والمشبه به غير معقول. قلت : الممثل به في الآية وفي قولهم : لو قيل للشحم أين تذهب.

وفي نظائره مفروض ، والمفروضات تتخيل في الذهن كما المحققات : مثلت حال التكليف في صعوبته وثقل محمله بحاله المفروضة لو عرضت على السماوات والأرض والجبال لأبين أن يحملنها وأشفقن منها. واللام في لِيُعَذِّبَ لام التعليل على طريق المجاز ، لأنّ التعذيب نتيجة حمل الأمانة ، كما أن التأديب في ضربته للتأديب نتيجة الضرب. وقرأ الأعمش. ويتوب ، ليجعل العلة قاصرة على فعل الحامل ، ويبتدئ : ويتوب الله «2». ومعنى قراءة العامة : ليعذب الله حامل الأمانة ويتوب على غيره ممن لم يحملها ، لأنه إذا تيب على الوافي كان ذلك نوعا من عذاب الغادر ، والله أعلم.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ سورة الأحزاب وعلمها أهله وما ملكت يمينه ، أعطى الأمان من عذاب القبر «3»».

(1). قوله «ثم خاس بضمانه فيها» في الصحاح : خاس به يخيس ويخوس ، أى : غدر به يقال : خاص بالعهد ، إذ نكث. (ع)
(2). قوله «و يتوب» أى بالرفع ، كما في النسفي. (ع)
(3). أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبى بن كعب رضى الله عنه.

سورة سبإ

مكية ، [إلا آية 6 فمدنية] وآياتها 54 [نزلت بعد لقمان]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة سبإ (34) : الآيات 1 إلى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (1) يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فِيها وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (2)

ما في السماوات والأرض كله نعمة من اللّه ، وهو الحقيق بأن يحمد ويثنى عليه من أجله ، ولما قال الْحَمْدُ لِلَّهِ ثم وصف ذاته بالإنعام بجميع النعم الدنيوية ، كان معناه : أنه المحمود على نعم الدنيا ، كما تقول : احمد أخاك الذي كساك وحملك ، تريد : احمده على كسوته وحملانه.

ولما قال وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ علم أنه المحمود على نعم الآخرة وهو الثواب. فإن قلت : ما الفرق بين الحمدين؟ قلت : أمّا الحمد في الدنيا فواجب ، لأنه على نعمة متفضل بها ، وهو الطريق إلى تحصيل نعمة الآخرة وهي الثواب. وأمّا الحمد في الآخرة فليس بواجب «1» ، لأنه على نعمة واجبة الإيصال إلى مستحقها «2» ، إنما هو تتمة سرور المؤمنين وتكملة اغتباطهم : يلتذون به كما يلتذ من به العطاش «3» بالماء البارد وَهُوَ الْحَكِيمُ الذي أحكم أمور الدارين ودبرها بحكمته الْخَبِيرُ بكل كائن يكون. ثم ذكر مما يحيط به علما ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ من الغيث كقوله فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ ومن الكنوز والدفائن والأموات ،

(1). قال محمود : «الحمد الأول واجب لأنه على نعمة متفضل بها ، والثاني : ليس بواجب ، لأنه على نعمة واجبة على المنعم» قال أحمد : والحق في الفرق بين الحمدين : أن الأول عبادة مكلف بها ، والثاني غير مكلف به ولا متكلف ، وإنما هو في النشأة الثانية كالجليات في النشأة الأولى ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس» وإلا فالنعمة الأولى كالثانية بفضل من اللّه تعالى على عباده ، لا عن استحقاق. واللّه الموفق.

(2). قوله «نعمة واجبة الإيصال إلى مستحقها» مبنى على مذهب المعتزلة ، أما أهل السنة فلا يوجبون على اللّه شيئا ، ولا يجب الحمد في الآخرة ، لأنها ليست دار تكليف. (ع)

(3). قوله «كما يلتذ من به العطاش» في الصحاح «العطاش» : داء يصيب الإنسان : يشرب الماء فلا يروى. (ع)

وجميع ما هي له كفات وَما يَخْرُجُ مِنْها من الشجر والنبات ، وماء العيون ، والغلة ، والدواب ، وغير ذلك وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ من الأمطار والثلوج والبرد والصواعق والأرزاق والملائكة وأنواع البركات والمقادير ، كما قال تعالى وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ وَما يَعْرُجُ فِيها من الملائكة وأعمال العباد وَهُوَ مع كثرة نعمه وسبوغ فضله الرَّحِيمُ الْغَفُورُ للمفرطين في أداء مواجب شكرها. وقرأ على بن أبى طالب رضى اللّه عنه : ننزّل، بالنون والتشديد.

[سورة سبإ (34) : الآيات 3 إلى 4]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (3) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4)

قولهم لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ نفى للبعث وإنكار لمجيء الساعة. أو استبطاء لما قد وعدوه من قيامها على سبيل الهزء والسخرية ، كقولهم مَتى هذَا الْوَعْدُ. أوجب ما بعد النفي ببلى على معنى : أن ليس الأمر إلا إتيانها ، ثم أعيد إيجابه مؤكدا بما هو الغاية في التوكيد والتشديد ، وهو التوكيد باليمين باللّه عز وجل ، ثم أمد التوكيد القسمي إمدادا بما أتبع المقسم به من الوصف بما وصف به ، إلى قوله لِيَجْزِيَ لأنّ عظمة حال المقسم به تؤذن بقوة حال المقسم عليه وشدّة ثباته واستقامته ، لأنه بمنزلة الاستشهاد على الأمر ، وكلما كان المستشهد به أعلى كعبا وأبين فضلا وأرفع منزلة ، كانت الشهادة أقوى وآكد ، والمستشهد عليه أثبت وأرسخ.

فإن قلت : هل للوصف الذي وصف به المقسم به وجه اختصاص بهذا المعنى؟ قلت : نعم وذلك أن قيام الساعة من مشاهير الغيوب ، وأدخلها في الخفية ، وأوّلها مسارعة إلى القلب : إذا قيل عالم الغيب ، فحين أقسم باسمه على إثبات قيام الساعة ، وأنه كائن لا محالة ، ثم وصف بما يرجع إلى علم الغيب ، وأنه لا يفوت علمه شيء من الخفيات ، واندرج تحته إحاطته بوقت قيام الساعة ، فجاء ما تطلبه من وجه الاختصاص مجيئا واضحا. فإن قلت : الناس قد أنكروا إتيان الساعة وجحدوه ، فهب أنه حلف لهم بأغلظ الأيمان وأقسم عليهم جهد القسم ، فيمين من هو في معتقدهم مفتر على الله كذبا كيف تكون مصححة لما أنكروه؟ قلت : هذا لو اقتصر على اليمين ولم يتبعها الحجة القاطعة والبينة الساطعة وهي قوله لِيَجْزِيَ فقد وضع الله في العقول وركب في الغرائز وجوب الجزاء «1» ، وأن المحسن لا بدّ له من ثواب ، والمسيء لا بد له من عقاب. وقوله لِيَجْزِيَ متصل بقوله لَتَأْتِيَنَّكُمْ تعليلا له. قرئ : لتأتينكم بالتاء والياء. ووجه من قرأ بالياء : أن يكون ضميره للساعة بمعنى اليوم. أو يسند إلى عالم الغيب ، أى ليأتينكم أمره كما قال تعالى هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ وقال وْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ. وقرئ : عالم الغيب ، وعلام الغيب : بالجر ، صفة لربي. وعالم الغيب ، وعالم الغيوب : بالرفع، على المدح.

ولا يعزب : بالضم والكسر في الزاى ، من العزوب وهو البعد. يقال : روض عزيب : بعيد من الناس مِثْقالُ ذَرَّةٍ مقدار أصغر نملة ذلِكَ إشارة إلى مثقال ذرّة. وقرئ : ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، بالرفع على أصل الابتداء. وبالفتح على نفى الجنس ، كقولك : لا حول ولا قوّة إلا بالله ، بالرفع والنصب. وهو كلام منقطع عما قبله. فإن قلت : هل يصح عطف المرفوع على مثقال ذرّة ، كأنه قيل : لا يعزب عنه مثقال ذرة وأصغر وأكبر وزيادة ، لا لتأكيد النفي. وعطف المفتوح على ذرّة بأنه فتح في موضع الجر لامتناع الصرف ، كأنه قيل : لا يعزب عنه مثقال ذرّة ولا مثقال أصغر من ذلك ولا أكبر؟ قلت : يأبى ذلك حرف الاستثناء ، إلا إذا جعلت الضمير في عَنْهُ للغيب ، وجعلت الْغَيْبِ اسما للخفيات ، قبل أن تكتب في اللوح لأنّ إثباتها في اللوح نوع من البروز عن الحجاب ، على معنى أنه لا ينفصل عن الغيب شيء ، ولا يزل عنه إلا مسطورا في اللوح.

[سورة سبإ (34) : آية 5]

وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (5)

وقرئ معجزين ، وأليم ، بالرفع والجر. وعن قتادة : الرجز : سوء العذاب.

[سورة سبإ (34) : آية 6]

وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (6)

وقرئ معجزين. فأليم : بالرفع والجر ، وعن قتادة : الرجز : سوء العذاب. ويرى في موضع الرفع ، أى : ويعلم أولو العلم ، يعنى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن يطأ أعقابهم من أمّته. أو علماء أهل الكتاب الذين أسلموا مثل كعب الأحبار وعبد الله ابن سلام رضى الله عنهما. الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ ... الْحَقَّ هما مفعولان ليرى ، وهو فصل من قرأ الْحَقَّ بالرفع : جعله مبتدأ والْحَقَّ خبرا ، والجملة في موضع المفعول الثاني. وقيل يَرَى في موضع النصب معطوف على لِيَجْزِيَ أى : وليعلم أولو العلم عند مجيء الساعة أنه الحق. علما لا يزاد عليه في الإيقان ، ويحتجوا به على الذين كذبوا وتولوا. ويجوز أن يريد : وليعلم من لم يؤمن من الأحبار أنه هو الحق فيزدادوا حسرة وغما.

(1). قوله «و ركب في الغرائز وجوب الجزاء» هذا مقتضى الحكمة وإن لم يجب على الله تعالى شيء عند أهل السنة ، فتدبر. (ع)

[سورة سبإ (34) : الآيات 7 إلى 8]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (7) أَفْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ (8)

الَّذِينَ كَفَرُوا قريش. قال بعضهم لبعض : هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يعنون محمدا صلى الله عليه وآله وسلم : يحدثكم بأعجوبة من الأعاجيب : أنكم تبعثون وتنشئون خلقا جديدا بعد أن تكونوا رفاتا وترابا ويمزق أجسادكم البلى كل ممزق ، أى : يفرقكم ويبدد أجزاءكم كل تبديد. أهو مفتر على الله كذبا فيما ينسب إليه من ذلك؟ أم به جنون

فإن قلت : فقد جعلت الممزق مصدرا ، كبيت الكتاب : ألم تعلم مسرّحى القوافي فلاعيّا بهنّ ولا اجتلابا «1»

فهل يجوز أن يكون مكانا؟ قلت نعم. معناه ما حصل من الأموات في بطون الطير والسباع ، وما مرّت به السيول فذهبت به كل مذهب ، وما سفته الرياح فطرحته كل مطرح. فإن قلت : ما العامل في إذا؟ قلت : ما دلّ عليه إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ وقد سبق نظيره. فإن قلت : الجديد فعيل بمعنى فاعل أم مفعول؟ قلت : هو عند البصريين بمعنى فاعل ، تقول : جد فهو جديد ، كحد فهو حديد ، وقلّ فهو قليل. وعند الكوفيين بمعنى : مفعول، من جده إذا قطعه.

(1). لجرير ، وهو من أبيات الكتاب. والمسرح : مصدر على زنة المفعول ، فهو بمعنى التسريح ، أى : الإرسال أو التسوية. وسرحت الجارية شعرها : مشطته ، فاسترسل وحسن ، وهو مضاف لباء الفاعل. والقوافي : مفعول ، ونصب العي لشبهه بالمضاف ، أو نونه للضرورة ، أى : لا أعيى بها ، ولا أعجز عنها ، ولا أجتلبها ، ولا أسرقها ، ويجوز أن العي ركاكة المعنى. والاجتلاب : الاستتار ، من جلبة الجرح ، وهي قشرته الساترة له ، فيهن : بمعنى فيهن.

وقالوا : هو الذي جده الناسج الساعة في الثوب ، ثم شاع. ويقولون : ولهذا قالوا «1» ملحفة جديد ، وهي عند البصريين كقوله تعالى إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ ونحو ذلك. فإن قلت : لم أسقطت الهمزة في قوله أَفْتَرى دون قوله «السحر» ، وكلتاهما همزة وصل؟ قلت : القياس الطرح ، ولكن أمرا اضطرّهم إلى ترك إسقاطها في نحو «آلسحر» وهو خوف التباس الاستفهام بالخبر ، لكون همزة الوصل مفتوحة كهمزة الاستفهام. فإن قلت : ما معنى وصف الضلال بالبعد؟ قلت هو من الإسناد المجازى ، لأنّ البعيد صفة الضال إذا بعد عن الجادّة ، وكلما ازداد عنها بعدا كان أضل.

فإن قلت : كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مشهورا علما في قريش ، وكان إنباؤه بالبعث شائعا عندهم ، فما معنى قوله هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ فنكروه لهم ، وعرضوا عليهم الدلالة عليه كما يدل على مجهول في أمر مجهول. قلت : كانوا يقصدون بذلك الطنز والسخرية ، فأخرجوه مخرج التحلي ببعض الأحاجى التي يتحاجى بها للضحك والتلهي متجاهلين به وبأمره.

[سورة سبإ (34) : آية 9]

أَفَلَمْ يَرَوْا إِلى ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (9)

أعموا فلم ينظروا إلى السماء والأرض ، وأنهما حيثما كانوا وأينما ساروا أمامهم وخلفهم محيطتان بهم ، لا يقدرون أن ينفذوا من أقطارهما وأن يخرجوا عما هم فيه من ملكوت اللّه عز وجلّ ، ولم يخافوا أن يخسف اللّه بهم أو يسقط عليهم كسفا ، لتكذيبهم الآيات وكفرهم بالرسول صلى اللّه عليه وسلم وبما جاء به ، كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة إِنَّ فِي ذلِكَ النظر إلى السماء والأرض والفكر فيهما وما يدلان عليه من قدرة اللّه لَآيَةً ودلالة لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ وهو الراجع إلى ربه المطيع له ، لأنّ المنيب لا يخلو من النظر في آيات اللّه ، على أنه قادر على كل شيء من البعث ومن عقاب من يكفر به. قرئ يشأ ويخسف ويسقط : بالياء ، لقوله تعالى أَفْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وبالنون لقوله وَلَقَدْ آتَيْنا وكسفا : بفتح السين وسكونه. وقرأ الكسائي : يخسف بهم ، بالإدغام وليست بقوية.

(1). قوله «و لهذا قالوا» أى العرب. (ع) [.....]

[سورة سبإ (34) : الآيات 10 إلى 13]

وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلاً يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (10) أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (11) وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ (12) يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَتَماثِيلَ وَجِفانٍ كَالْجَوابِ وَقُدُورٍ راسِياتٍ اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ(13)

يا جِبالُ إمّا أن يكون بدلا من فَضْلًا ، وإمّا من آتَيْنا بتقدير : قولنا يا جبال.

أو : قلنا يا جبال. وقرئ : أوّبى ، وأوبى : من التأويب. والأوب : أى رجعي معه التسبيح.

أو ارجعي معه في التسبيح كلما رجع فيه ، لأنه إذا رجعه فقد رجع فيه : ومعنى تسبيح الجبال : أنّ الله سبحانه وتعالى يخلق فيها تسبيحا كما خلق الكلام في الشجرة ، فيسمع منها ما يسمع من المسبح : معجزة لداود. وقيل : كان ينوح على ذنبه بترجيع وتحزين ، وكانت الجبال تسعده على نوحه بأصدائها «1» والطير بأصواتها. وقرئ : والطير ، رفعا ونصبا ، عطفا على لفظ الجبال ومحلها. وجوّزوا أن ينتصب مفعولا معه ، وأن يعطف على فضلا ، بمعنى وسخرنا له الطير. فإن قلت : أى فرق بين هذا النظم وبين أن يقال وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلًا تأويب الجبال معه والطير؟

قلت : كم بينهما. ألا ترى إلى ما فيه من الفخامة التي لا تخفى : من الدلالة على عزّة الربوبية وكبرياء الإلهية ، حيث جعلت الجبال منزّلة منزلة العقلاء الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا ، وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا : إشعارا بأنه ما من حيوان وجماد وناطق وصامت ، إلا وهو منقاد لمشيئته ، غير ممتنع على إرادته وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ وجعلناه له لينا كالطين والعجين والشمع ، يصرفه بيده كيف يشاء من غير نار ولا ضرب بمطرقة. وقيل : لان الحديد في يده لما أوتى من شدّة القوّة. وقرئ صابغات ، وهي الدروع الواسعة الضافية ، وهو أوّل من اتخذها وكانت قبل صفائح. وقيل : كان يبيع الدرع بأربعة آلاف فينفق منها على نفسه وعياله ، ويتصدّق على الفقراء. وقيل : كان يخرج حين ملك بنى إسرائيل متنكرا ، فيسأل الناس عن نفسه ويقول لهم : ما تقولون في داود؟

فيثنون عليه ، فقيض الله له ملكا في صورة آدمى فسأله على عادته ، فقال : نعم الرجل لولا خصلة فيه فريع داود ، فسأله؟ فقال : لولا أنه يطعم عياله من بيت المال ، فسأل عند ذلك ربه أن يسبب له ما يستغنى به عن بيت المال ، فعلمه صنعة الدروع وَقَدِّرْ لا تجعل المسامير دقاقا فتقلق ، ولا غلاظا فتفصم الحلق. والسرد : نسج الدروع وَاعْمَلُوا الضمير لداود وأهله وَسخرنا لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ فيمن نصب : ولسليمان الريح مسخرة ، فيمن رفع، وكذلك فيمن قرأ : الرياح ،

(1). قوله «بأصدائها» جمع صدى ، وهو الذي يجيبك بمثل صوتك في الجبال وغيرها ، كذا في الصحاح. (ع)

بالرفع غُدُوُّها شَهْرٌ جريها بالغداة مسيرة شهر ، وجريها بالعشي كذلك. وقرئ : غدوتها وروحتها. وعن الحسن رضى الله عنه : كان يغدو فيقيل بإصطخر ، ثم يروح فيكون رواحه بكابل. ويحكى أنّ بعضهم رأى مكتوبا في منزل بناحية دجلة كتبه بعض أصحاب سليمان : نحن نزلناه وما بنيناه ومبنيا وجدناه ، غدونا من إصطخر فقلناه، ونحن رائحون منه فبائتون بالشام إن شاء الله. القطر : النحاس المذاب من القطران. فإن قلت : ما ذا أراد بعين القطر؟ قلت : أراد بها معدن النحاس ولكنه أساله «1» كما ألان الحديد لداود ، فنبع كما ينبع الماء من العين ، فلذلك سماه عين القطر باسم ما آل إليه ، كما قال إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً وقيل : كان يسيل في الشهر ثلاثة أيام بِإِذْنِ رَبِّهِ بأمره وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ ومن يعدل عَنْ أَمْرِنا الذي أمرناه به من طاعة سليمان وقرئ. يزغ من أزاغه. وعذاب السعير : عذاب الآخرة ، عن ابن عباس رضى الله عنهما وعن السدى : كان معه ملك بيده سوط من نار ، كلما استعصى عليه ضربه من حيث لا يراه الجنى.

المحاريب : المساكن والمجالس الشريفة المصونة عن الابتذال : سميت محاريب لأنه يحامى عليها ويذب عنها. وقيل : هي المساجد. والتماثيل : صور الملائكة والنبيين والصالحين ، كانت تعمل في المساجد من نحاس وصفر وزجاج ورخام ليراها الناس فيعبدوا نحو عبادتهم. فإن قلت : كيف استجاز سليمان عليه السلام عمل التصاوير؟ قلت : هذا مما يجوز أن تختلف فيه الشرائع ، لأنه ليس من مقبحات العقل كالظلم والكذب ، وعن أبى العالية : لم يكن اتخاذ الصور إذ ذاك محرّما. ويجوز أن يكون غير صور الحيوان كصور الأشجار

(1). قوله «و لكنه أساله كما ألان الحديد» لعله : أساله له (ع)
(2). للأعشى في مدح المحلق. وروى «تلوح» بدل تروح ، لأنها تظهر عند خروجها من البيت أول النهار مستعلية عليهم. والجفنة : قصعة الثريد. والجابية : الحوض يجبى الماء ، أى : يجمعه إلى الحوض. والسيح :
الماء الكثير الجاري. وفهق يفهق ، كفرح يفرح : اتسع وامتلأ وتدفق. ومنه الحديث : أنه قام إلى باب الجنة فانفهقت له ، أى : انفتحت واتسعت ، والمتفيهق : المكثر من الكلام ، فقوله «تفهق» أى تمتلئ مع اتساعها حتى تكاد تتدفق

راسِياتٍ ثابتات على الأثافى لا تنزل عنها لعظمها اعْمَلُوا آلَ داوُدَ حكاية ما قيل لآل داود. وانتصب شُكْراً على أنه مفعول له ، أى : اعملوا للّه واعبدوه على وجه الشكر لنعمائه. وفيه دليل على أن العبادة يجب أن تؤدّى على طريق الشكر. أو على الحال ، أى : شاكرين. أو على تقدير اشكروا شكرا ، لأن اعملوا فيه معنى اشكروا ، من حيث أنّ العمل للمنعم شكر له. ويجوز أن ينتصب باعملوا مفعولا به. ومعناه : إنا سخرنا لكم الجنّ يعملون لكم ما شئتم ، فاعملوا أنتم شكرا على طريق المشاكلة الشَّكُورُ المتوفر على أداء الشكر ، الباذل وسعه فيه : قد شغل به قلبه ولسانه وجوارحه ، اعتقادا واعترافا وكدحا ، وأكثر أوقاته. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما من يشكر على أحواله كلها. وعن السدى : من يشكر على الشكر. وقيل : من يرى عجزه عن الشكر. وعن داود أنه جزأ ساعات الليل والنهار على أهله ، فلم تكن تأتى ساعة من الساعات إلا وإنسان من آل داود قائم يصلى. وعن عمر رضى اللّه عنه أنه سمع رجلا يقول : اللهم اجعلنى من القليل ، فقال عمر ما هذا الدعاء؟ فقال الرجل : إنى سمعت اللّه يقول وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ فأنا أدعوه أن يجعلني من ذلك القليل ، فقال عمر : كل الناس أعلم من عمر «1».

[سورة سبإ (34) : آية 14]

فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ما دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ما لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ (14)

قرئ : فلما قضى عليه الموت. ودابة الأرض : الأرضة ، وهي الدويبة التي يقال لها السرفة والأرض فعلها ، فأضيفت إليه. يقال : أرضت الخشبة أرضا. إذا أكلتها الأرضة. وقرئ بفتح الراء ، من أرضت الخشبة أرضا ، وهو من باب فعلته ففعل ، كقولك : أكلت القوادح الأسنان أكلا ، فأكلت أكلا. والمنسأة : العصا. لأنه ينسأ بها ، أى : يطرد ويؤخر وقرئ بفتح الميم وبتخفيف الهمزة قلبا وحذفا وكلاهما ليس بقياس ، ولكن إخراج الهمزة بين بين هو التخفيف القياسي. ومنسأته على مفعالة. كما يقال في الميضأة ميضاءة. ومن سأته ، أى : من طرف عصاه ، سميت بسأة «2» القوس على الاستعارة. وفيها لغتان ، كقولهم : قحة وقحة «3». وقرئ. أكلت منسأته تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ من تبين الشيء إذا ظهر وتجلى. وأَنْ مع صلتها بدل من الجن بدل الاشتمال ، كقولك : تبين زيد جهله : والظهور له في المعنى ، أى : ظهر أنّ الجن لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ما لَبِثُوا فِي الْعَذابِ أو علم الجن كلهم علما بينا - بعد التباس الأمر على عامّتهم وضعفتهم وتوهمهم -

(1). أخرجه ابن أبى شيبة وعبد اللّه بن أحمد في زيادات الزهد من رواية التيمي قال قال عمر - فذكره نحوه
(2). قوله «سميت بسأة القوس» في الصحاح «سية القوس» : ما عطف من طرفيها ، وكان رؤبة يهمز : سية القوس ، وسائر العرب لا يهمزونها. (ع)
(3). قوله «كقولهم قحة وقحة» كسعة وكمدة ، بمعنى الوقاحة : وهي الصلابة. (ع)

أنّ كبارهم يصدّقون في ادعائهم علم الغيب. أو علم المدّعون علم الغيب منهم عجزهم ، وأنهم لا يعلمون الغيب وإن كانوا عالمين قبل ذلك بحالهم ، وإنما أريد التهكم بهم كما تتهكم بمدّعى الباطل إذا دحضت حجته «1» وظهر إبطاله بقولك : هل تبينت أنك مبطل.

وأنت تعلم أنه لم يزل كذلك متبينا. وقرئ : تبينت الجن ، على البناء للمفعول ، على أن المتبين في المعنى هو أَنْ مع ما في صلتها ، لأنه بدل. وفي قراءة أبىّ : تبينت الإنس. وعن الضحاك : تباينت الإنس بمعنى تعارفت وتعالمت. والضمير في كانُوا للجن في قوله وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ أى علمت الإنس أن لو كان الجن

روى أنه كان من عادة سليمان عليه السلام أن يعتكف في مسجد بيت المقدس المدد الطوال ، فلما دنا أجله لم يصبح إلا رأى في محرابه شجرة نابتة قد أنطقها اللّه ، فيسألها : لأى شيء أنت؟ فتقول لكذا ، حتى أصبح ذات يوم فرأى الخروبة ، فسألها ، فقالت : نبت لخراب هذا المسجد : فقال : ما كان اللّه ليخربه وأنا حىّ ، أنت التي على وجهك هلاكى وخراب بيت المقدس ، فنزعها وغرسها في حائط له وقال : اللهم عم عن الجن موتى ، حتى يعلم الناس أنهم لا يعلمون الغيب. لأنهم كانوا يسترقون السمع ويموّهون على الإنس أنهم يعلمون العيب ، وقال لملك الموت : إذا أمرت بى فأعلمنى ، فقال : أمرت بك وقد بقيت من عمرك ساعة ، فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحا من قوارير ليس له باب ، فقام يصلى متكئا على عصاه ، فقبض روحه وهو متكئ عليها ، وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه أينما صلى ، فلم يكن شيطان ينظر إليه في صلاته إلا احترق فمر به شيطان فلم يسمع صوته ، ثم رجع فلم يسمع ، فنظر فإذا سليمان قد خر ميتا. ففتحوا عنه فإذا العصا قد أكلتها الأرضة ، فأرادوا أن يعرفوا وقت موته ، فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها في يوم وليلة مقدارا ، فحسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة ، وكانوا يعملون بين يديه ويحسبونه حيا ، فأيقن الناس أنهم لو علموا الغيب لما لبثوا في العذاب سنة ، وروى أنّ داود عليه السلام أسس بناء بيت المقدس في موضع فسطاط موسى عليه السلام ، فمات قبل أن يتمه ، فوصى به إلى سليمان ، فأمر الشياطين بإتمامه ، فلما بقي من عمره سنة سأل أن يعمى عليهم موته حتى يفرغوا منه ، وليبطل دعواهم علم الغيب. روى أن أفريدون جاء ليصعد كرسيه ، فلما دنا ضرب الأسدان ساقه فكسراها ، فلم يجسر أحد بعد أن يدنو منه ، وكان عمر سليمان ثلاثا وخمسين سنة : ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، فبقى في ملكه أربعين سنة ، وابتدأ بناء بيت المقدس لأربع مضين من ملكه.

(1). قوله «إذا دحضت حجته» في الصحاح : بطلت. (ع)

[سورة سبإ (34) : الآيات 15 إلى 17]

لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (16) ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا وَهَلْ نُجازِي إِلاَّ الْكَفُورَ (17)

قرئ لِسَبَإٍ بالصرف ومنعه ، وقلب الهمزة ألفا. ومكنهم : بفتح الكاف وكسرها ، وهو موضع سكناهم ، وهو بلدهم وأرضهم التي كانوا مقيمين فيها ، أو مسكن كل واحد منهم.

وقرئ : مساكنهم. وجَنَّتانِ بدل من آية. أو خبر مبتدإ محذوف ، تقديره : الآية جنتان.

وفي الرفع معنى المدح ، تدل عليه قراءة من قرأ : جنتين ، بالنصب على المدح. فإن قلت : ما معنى كونهما آية؟ قلت : لم يجعل الجنتين في أنفسهما آية ، وإنما جعل قصتهما ، وأنّ أهلهما أعرضوا عن شكر اللّه تعالى عليهما فخربهما ، وأبدلهم عنهما لخمط والأثل : آية ، وعبرة لهم ، ليعتبروا ويتعظوا فلا يعودوا إلى ما كانوا عليه من الكفر وغمط النعم. ويجوز أن تجعلهما آية ، أى : علامة دالة على اللّه ، وعلى قدرته وإحسانه ووجوب شكره فإن قلت : كيف عظم اللّه جنتي أهل سبأ وجعلهما آية ، ورب قرية من قريات العراق يحتف بها من الجنان ما شئت؟ قلت : لم يرد بستانين اثنين فحسب ، وإنما أراد جماعتين من البساتين : جماعة عن يمين بلدهم، وأخرى عن شمالها ، وكل واحد من الجماعتين في تقاربها وتضامها. كأنها جنة واحدة ، كما تكون بلاد الريف العامرة وبساتينها. أو أراد بستاني كل رجل منهم عن يمين مسكنه وشماله ، كما قال : جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ إما حكاية لما قال لهم أنبياء اللّه المبعوثون إليهم ، أو لما قال لهم لسان الحال. أو هم أحقاء بأن يقال لهم ذلك ، ولما قال كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ أتبعه قوله بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ يعنى : هذه البلدة التي فيها رزقكم بلدة طيبة ، وربكم الذي رزقكم وطلب شكركم رب غفور لمن شكره. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : كانت أخصب البلاد وأطيبها : تخرج المرأة وعلى رأسها المكتمل فتعمل بيديها وتسير بين تلك الشجر ، فيمتلئ المكتل بما يتساقط فيه من الثمر طَيِّبَةٌ لم تكن سبخة. وقيل : لم يكن فيها بعوض ولا ذباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حية. وقرئ : بلدة طيبة وربا غفورا ، بالنصب على المدح. وعن ثعلب : معناه اسكن واعبد الْعَرِمِ الجرذ «1»

(1). قوله «العرم الجرذ» في الصحاح «الجرذ» : ضرب من الفأر. وفيه : سكرت النهر سكرا ، إذا شددته. (ع)

الذي نقب عليهم السكر. ضربت لهم بلقيس الملكة بسدّ ما بين الجبلين بالصخر والقار ، فحقنت به ماء العيون والأمطار ، وتركت فيه خروقا على مقدار ما يحتاجون إليه في سقيهم ، فلما طغوا قيل : بعث الله إليهم ثلاثة عشر نبيا يدعونهم إلى الله ويذكرونهم نعمته عليهم ، فكذبوهم وقالوا ما نعرف لله نعمة سلط الله على سدّهم الخلد، «1» فنقبه من أسفله فغرقهم. وقيل : العرم جمع عرمة ، وهي الحجارة المركومة. ويقال للكدس؟؟؟ من الطعام : عرمة ، والمراد : المسناة «2» التي عقدوها سكرا : وقيل : العرم اسم الوادي : وقيل : العرم المطر الشديد. وقرئ : العرم ، بسكون الراء. وعن الضحاك : كانوا في الفترة التي بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم. وقرئ : أكل ، بالضم والسكون ، وبالتنوين والإضافة. والأكل : الثمر. والخمط : شجر الأراك : وعن أبى عبيدة : كل شجر ذى شوك. وقال الزجاج : كل نبت أخذ طعما من مرارة ، حتى لا يمكن أكله. والأثل : شجر يشبه الطرفاء أعظم منه وأجود عودا. ووجه من نون : أن أصله ذواتي أكل أكل خمط. فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. أو وصف الأكل بالخمط ، كأنه قيل : ذواتي أكل بشع. ومن أضاف وهو أبو عمرو وحده ، فلأن أكل الخمط في معنى البرير ، «3» كأنه قيل : ذواتي برير. والأثل والسدر : معطوفان على أكل ، لا على خمط لأن الأثل لا أكل له. وقرئ وأثلا. وشيئا : بالنصب ، عطفا على جنتين. وتسمية البدل جنتين ، لأجل المشاكلة وفيه : ضرب من التهكم. وعن الحسن رحمه الله. قال السدر ، لأنه أكرم ما بدلوا. وقرئ : وهل يجازى. وهل نجازى ، بالنون. وهل يجازى والفاعل الله وحده. وهل يجزى ، والمعنى : أن مثل هذا الجزاء لا يستحقه إلا الكافر ، وهو العقاب العاجل ، وقيل : المؤمن تكفر سيئاته بحسناته ، والكافر يحبط عمله فيجازى بجميع ما عمله من السوء ، ووجه آخر : وهو أن الجزاء عام لكل مكافأة ، يستعمل تارة في معنى المعاقبة ، وأخرى في معنى الإثابة ، فلما استعمل في معنى المعاقبة في قوله جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا بمعنى : عاقباهم بكفرهم. قيل : وَهَلْ نُجازِي إِلَّا الْكَفُورَ بمعنى : وهل يعاقب؟ وهو الوجه الصحيح ، وليس لقائل أن يقول : لم قيل : وهل يجازى إلا الكفور ، على اختصاص الكفور بالجزاء ، والجزاء عام للكافر والمؤمن ، لأنه لم يرد الجزاء العام ، وإنما أراد الخاص وهو العقاب ، بل لا يجوز أن يراد العموم وليس بموضعه. ألا ترى أنك لو قلت : جزيناهم بما كفروا ، وهل يجازى إلا الكافر والمؤمن : لم يصح ولم يسد كلاما ، فتبين أن ما يتخيل من السؤال مضمحل ، وأن الصحيح الذي لا يجوز غيره ما جاء عليه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

(1). قوله «سلط الله على سدهم الخلد فنقبه» في الصحاح «الخلد» : ضرب من الجرذان أعمى. وفيه «المكدس» بالضم : واحد أكداس الطعام. (ع)

(2). قوله «و المراد المسناة التي عقدوها» في الصحاح : المسناة : العرم وفيه : العرم المسناة. وفي ذلك دور. (ع)

(3). قوله «فلأن أكل الخمط في معنى البرير» في الصحاح «البرير» : ثمر الأراك. (ع)

[سورة سبإ (34) : الآيات 18 إلى 19]

وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها قُرىً ظاهِرَةً وَقَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ (18) فَقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ وَمَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (19)

الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها وهي قرى الشام قُرىً ظاهِرَةً متواصلة ، يرى بعضها من بعض لتقاربها ، فهي ظاهرة لأعين الناظرين. أو راكبة متن الطريق : ظاهرة للسابلة ، لم تبعد عن مسالكهم حتى تخفى عليهم وَقَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ قيل : كان الغادي منهم يقيل في قرية ، والرائح يبيت في قرية إلى أن يبلغ الشام لا يخاف جوعا ولا عطشا ولا عدوا ، ولا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء سِيرُوا فِيها وقلنا لهم : سيروا : ولا قول ثم ، ولكنهم لما مكنوا من السير وسويت لهم أسبابه ، كأنهم أمروا بذلك وأذن لهم فيه. فإن قلت : ما معنى قوله لَيالِيَ وَأَيَّاماً؟ قلت : معناه سيروا فيها ، إن شئتم بالليل وإن شئتم بالنهار ، فإن الأمن فيها لا يختلف باختلاف الأوقات. أو سيروا فيها آمنين لا تخافون ، وإن تطاولت مدة سفركم فيها وامتدت أياما وليالي. أو سيروا فيها لياليكم وأيامكم مدة أعماركم ، فإنكم في كل حين وزمان ، لا تلقون فيها إلا الأمن. قرئ : ربنا باعد بين أسفارنا. وبعد. ويا ربنا، على الدعاء ، بطروا النعمة ، وبشموا من طيب العيش «1» ، وملوا العافية ، فطلبوا الكد والتعب كما طلب بنو إسرائيل البصل والثوم مكان المنّ والسلوى ، وقالوا : لو كان جنى جناننا أبعد كان أجدر أن نشتهيه ، وتمنوا أن يجعل الله بينهم وبين الشأم مفاوز ليركبوا الرواحل فيها ويتزودوا الأزواد ، فجعل الله لهم الإجابة. وقرئ ربنا بعد بين أسفارنا ، وبعد بين أسفارنا على النداء ، وإسناد الفعل إلى بين ورفعه به ، كما تقول : سير فرسخان ، وبوعد بين أسفارنا. وقرئ : ربنا باعد بين أسفارنا. وبين سفرنا. وبعد ، برفع ربنا على الابتداء ،

(1). قوله «و بشموا من طيب العيش» بشموا ، أى : سئموا. أفاده الصحاح. (ع)
(2). قوله «كأنهم كانوا يتشاجون» في الصحاح «الشجو» : الهم والحزن. (ع)

وفرقناهم تفريقا اتخذه الناس مثلا مضروبا، يقولون : ذهبوا أيدى سبا ، وتفرقوا أيادى سبا. قال كثير : أيادى سبا يا عزّ ما كنت بعدكم فلم يحل بالعينين بعدك منظر «1»

لحق غسان بالشأم ، وأنمار بيثرب ، وجذام بتهامة ، والأزد بعمان صَبَّارٍ عن المعاصي شَكُورٍ للنعم.

[سورة سبإ (34) : الآيات 20 إلى 21]

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (20) وَما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (21)

قرئ : صدّق ، بالتشديد والتخفيف ، ورفع إبليس ونصب الظن ، فمن شدّد فعلى : حقق عليهم ظنه ، أو وجده صادقا ، ومن خفف فعلى : صدق في ظنه أو صدّق يظن ظنا ، نحو : فعلته جهدك ، وبنصب إبليس ورفع الظن، فمن شدّد فعلى : وجده ظنه صادقا ومن خفف فعلى : قال له ظنه الصدق حين خيله إغواءهم ، يقولون : صدقك ظنك ، وبالتخفيف ورفعهما على : صدق عليهم ظن إبليس ، ولو قرئ بالتشديد مع رفعهما لكان على المبالغة في صدق ، كقوله : صدقت فيهم ظنوني ،

(1). لكثير صاحب عزة. وسبأ : بلدة كانت كثرة الخصب طيبة البساتين ، فكفر أهلها نعمة اللّه فأرسل عليهم السيل ، وبدلهم بالخصب جديا؟؟؟ ، وبالرغد ضيقا ، وبالسمن غثا ، فصاروا لا ينالون الأفوات إلا من جهات بعيدة. والمراد بالأيادى : النعم ، وأيادى سبا : استعارة لأحوال نفسه التي تشبه أحوال سبأ في التشتت والتنغص.
أو تشبيه بلغ على الخلاف. وفيه مجاز بالحذف ، أى : أيادى أهل سبأ ما كنته بعدكم ، أى : ما كنت متصفا به من الأحوال كأحوال سبأ. ويجوز ان ما مصدرية ، أى : أكوانى وأحوالى بعدكم كأحوال سبأ. أو المراد بأيادى سبأ : أصحابها الذين كانوا يعمرونها ، ففرقوا أنفسهم بأيديهم فشبه نفسه بهم لعدم استقراره. وتطلق سبأ على قبيلة كانت تسكنها. ويحتمل أنها المراد هنا ، بل هو أظهر. ويجوز أن المراد أبوها ، وهو سبأ بن يشجب ابن يعرب بن قحطان : كان ذا مال وبنين ، فتفرق بنوه بعضهم إلى اليمن وبعضهم إلى الشام إلى غير ذلك ، فأطلق الأيادى عليهم ، لأن بهم قوته كالأيادى ، ثم شبه نفسه بهم في الشتات. وعن : مرخم ، وفي ندائها معنى التوجع والاستعطاف ، وخاطبها بضمير جمع المذكر تعظيما ، ولذلك لا تجده في مواضع ذمهن ، وجملة النداء معترضة بين الخبر والمبتدأ ويحتمل أن التقدير : أنا كأيادى سبأ مدة كوني بعدكم ، فهي معترضة بين الجملة والظرف المتعلق بها ، وحلا يحلو كدعا يدعو وغيره قليل ، شبه الحسن بالحلاوة بجامع اللذة. وقيل : حلى يحلى ، كرضى يرضى في المنظر. وحلا يحلو في الطعم ، وما هنا من الأول فلا مجاز ، والمنظر مصدر بمعنى النظر ، ويجوز أن الحلاوة الحسن والمنظر - بالفتح - : مكان النظر. ويجوز أنه النظر. أى: فلم يحسن لعيني غيرك ، ويجوز أن المراد بعدكم بعد ارتحالك أنت وأهلك ، فالخطاب لها ولحيها! ولكن موارد الاستعمال يعضدها ما تقدم ، وروى : فلن يحل ، فزعم بعضهم أن «لن» قد تجزم كما هنا ، وعلى المنع فحذف آخر الفعل للضرورة أو التخفيف. [.....]

ومعناه : أنه حين وجد آدم ضعيف العزم قد أصغى إلى وسوسته قال : إنّ ذرّيته أضعف عزما منه ، فظنّ بهم اتباعه وقال : لأضلنهم ، لأغوينهم. وقيل : ظنّ ذلك عند إخبار اللّه تعالى الملائكة أنه يجعل فيها من يفسد فيها. والضمير في عَلَيْهِمْ وفَاتَّبَعُوهُ إمّا لأهل سبأ ، أو لبنى آدم. وقلل المؤمنين بقوله إِلَّا فَرِيقاً لأنهم قليل بالإضافة إلى الكفار ، كما قال لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ، وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ. وَما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ من تسليط واستيلاء بالوسوسة والاستغواء إلا لغرض صحيح وحكمة بينة ، وذلك أن يتميز المؤمن بالآخرة من الشاك فيها ، وعلل التسليط بالعلم والمراد ما تعلق به العلم. وقرئ : ليعلم على البناء للمفعول حَفِيظٌ محافظ عليه ، وفعيل ومفاعل : متآخيان.

[سورة سبإ (34) : آية 22]

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَما لَهُمْ فِيهِما مِنْ شِرْكٍ وَما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (22)

قُلِ لمشركي قومك ادْعُوا الَّذِينَ عبدتموهم من دون اللّه من الأصنام والملائكة وسميتموهم باسمه كما تدعون اللّه، والتجئوا إليهم فيما يعروكم كما تلتجئون إليه ، وانتظروا استجابتهم لدعائكم ورحمتهم كما تنتظرون أن يستجيب لكم ويرحمكم ، ثم أجاب عنهم بقوله لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ من خير أو شر ، أو نفع أو ضر فِي السَّماواتِ وَلا فِي

«قلت» : أحدهما الضمير المحذوف الراجع منه إلى الموصول. وأمّا الثاني فلا يخلو إمّا أن يكون مِنْ دُونِ اللَّهِ أو لا يَمْلِكُونَ أو محذوفا فلا يصح الأول ، لأنّ قولك : هم من دون الله ، لا يلتئم كلاما ، ولا الثاني ، لأنهم ما كانوا يزعمون ذلك ، فكيف يتكلمون بما هو حجة عليهم ، وبما لو قالوه قالوا ما هو حق وتوحيد؟ فبقى أن يكون محذوفا تقديره : زعمتموهم آلهة من دون الله فحذف الراجع إلى الموصول كما حذف في قوله أَهذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا استخفافا ، لطول الموصول لصلته ، وحذف آلهة لأنه موصوف صفته مِنْ دُونِ اللَّهِ والموصوف يجوز حذفه وإقامة الصفة مقامه إذا كان مفهوما ، فإذا مفعولا زعم محذوفان جميعا بسببين مختلفين.

[سورة سبإ (34) : آية 23]

وَلا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قالُوا ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ(23)

تقول : الشفاعة لزيد ، على معنى أنه الشافع ، كما تقول : الكرم لزيد : وعلى معنى أنه المشفوع له ، كما تقول: القيام لزيد ، فاحتمل قوله وَلا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ أن يكون على أحد هذين الوجهين ، أى : لا تنفع الشفاعة إلا كائنة لمن أذن له من الشافعين ومطلقة له.

أو لا تنفع الشفاعة إلا كائنة لمن أذن له ، أى : لشفيعه ، أو هي اللام الثانية في قولك : أذن لزيد لعمرو ، أى لأجله ، وكأنه قيل : إلا لمن وقع الإذن للشفيع لأجله ، وهذا وجه لطيف وهو الوجه ، وهذا تكذيب لقولهم : هؤلاء شفعاؤنا عند الله. فإن قلت : بما اتصل قوله حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ولأى شيء وقعت حتى غاية؟ قلت : بما فهم من هذا الكلام ، من أنّ ثم انتظارا للإذن وتوقعا وتمهلا وفزعا من الراجين للشفاعة والشفعاء ، هل يؤذن لهم أو لا يؤذن؟ وأنه لا يطلق الإذن إلا بعد ملي من الزمان ، وطول من التربص ، ومثل هذه الحال دلّ عليه قوله عز وجلّ رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا الرَّحْمنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً. يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَقالَ صَواباً كأنه قيل : يتربصون ويتوقفون كليا فزعين وهلين ، حتى إذا فزع عن قلوبهم ، أى : كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بكلمة يتكلم بها رب العزة في إطلاق الإذن : تباشروا بذلك وسأل بعضهم بعضا ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا قال الْحَقَّ أى القول الحق ، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى. وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم «فإذا أذن لمن أذن أن يشفع فزعته الشفاعة «1»» وقرئ أذن له ، أى : أذن له الله ، وأذن له على البناء للمفعول. وقرأ الحسن : فزع ، مخففا ، بمعنى فزع. وقرئ فزع ، على البناء للفاعل ، وهو الله وحده ، وفرّغ ، أى : نفى الوجل عنها وأفنى ، من قولهم : فرغ الزاد ، إذا لم يبق منه شيء ، ثم ترك ذكر الوجل وأسند إلى الجار والمجرور ، كما تقول : دفع إلىّ زيد ، إذا علم ما المدفوع وقد تخفف ، وأصله : فرغ الوجل عنها ، أى : انتفى عنها ، وفنى ثم حذف الفاعل وأسند إلى الجار والمجرور. وقرأ : افرنقع عن قلوبهم ، بمعنى : انكشف عنها.

وعن أبى علقمة أنه هاج به المرار «2» فالتف عليه الناس ، فلما أفاق قال : ما لكم تكأكأتم علىّ تكأكؤكم على ذى جنة؟ افرنقعوا عنى. والكلمة مركبة من حروف المفارقة مع زيادة العين ، كما ركب «اقمطر» من حروف القمط ، مع زيادة الراء. وقرئ الحق بالرفع ، أى : مقوله الحق وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ذو العلو والكبرياء ، ليس لملك ولا نبىّ أن يتكلم ذلك اليوم إلا بإذنه ، وأن يشفع إلا لمن ارتضى.

---

(1). لم أجده
(2). قوله «أنه هاج به المرار» في الصحاح «المرار» بضم الميم : شجر مر ، إذا أكلت منه الإبل قلصت عنه مشافرها. ومنه : بنو آكل المرار : وهم قوم من العرب. (ع)

[سورة سبإ (34) : آية 24]

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (24)

أمره بأن يقررهم بقوله مَنْ يَرْزُقُكُمْ ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم بقوله : يرزقكم الله. وذلك للإشعار بأنهم مقرّون به بقلوبهم ، إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به ، لأن الذي تمكن في صدورهم من العناد وحب

(1). قوله «و لكن التعريض والتورية أفضل» في الصحاح «ناضله» : راماه ، يقال : ناضلت فلانا فنضلته إذا غلبته اه ، فالأنضل الأشد رميا ، فلذا عدى بالي. (ع)

(2). قوله «و فل شوكته» أى كسرها. (ع)

(3). قال محمود : «لما ألزمهم الحجة في قوله قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَما لَهُمْ فِيهِما مِنْ شِرْكٍ وَما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ وهلم جرا إلى الآية المذكورة - وهذا الإلزام إن لم يزد على إقرارهم بألسنتهم لم يتقاصر عنه - أمره أن يقول وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ومعناه : أن أحد الفريقين من الموحدين الرازق من السماوات والأرض بالعبادة ، ومن الذين يشركون به الجماد الذي لا يوصف بالقدرة على ذرة : لعلى أحد الأمرين من الهدى أو الضلال ، وهذا من الكلام المنصف الذي كل من سمعه من موافق أو مخالف قال للمخاطب به : قد أنصفك صاحبك ، والتعريض أنضل بالمجادل إلى الغرض ، وأهجم به على الغلبة ، مع قلة شغب الخصم وفل شوكته بالهوينا. ونحوه قول الرجل لصاحبه : اللّٰه يعلم الصادق منى ومنك ، وإن أحدنا لكاذب ومنه قول حسان :

أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء

قال أحمد : وهذا تفسير مهذب وافتنان مستعذب ، رددته على سمعي فزاد رونقا بالترديد ، واستعاذه الخاطر كأنى بطيء الفهم حين يفيد ، ولا ينبغي أن ينكر بعد ذلك على الطريقة التي أكثر تعاطيها متأخر والفقهاء في مجادلاتهم ومحاوراتهم ، وذلك قولهم : أحد الأمرين لازم على الإبهام ، فهذا المسلك من هذا الوادي غير بعيد ، فتأمله واللّٰه الموفق.

ومنه بيت حسان : أتهجوه ولست له بكفء فشر كما لخير كما الفداء «1»

فإن قلت : كيف خولف بين حرفى الجرّ الداخلين على الحق والضلال؟ قلت : لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء ، والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدرى أين يتوجه. وفي قراءة أبىّ : وإنا أو إياكم إما على هدى أو في ضلال مبين.

[سورة سبإ (34) : الآيات 25 إلى 26]

قُلْ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا وَلا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (25) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ(26)

هذا أدخل في الإنصاف وأبلغ فيه من الأوّل ، حيث أسند الإجرام إلى المخاطبين والعمل إلى المخاطبين ، وإن أراد بالإجرام : الصغائر والزلات التي لا يخلو منها مؤمن ، وبالعمل : الكفر والمعاصي العظام «2». وفتح اللّٰه بينهم : وهو حكمه وفصله : أنه يدخل هؤلاء الجنة وأولئك النار.

[سورة سبإ (34) : آية 27]

قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكاءَ كَلاَّ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27)

فإن قلت : ما معنى قوله أَرُونِيَ وكان يراهم ويعرفهم؟ قلت : أراد بذلك أن يريهم الخطأ العظيم في إلحاق الشركاء باللّٰه ، وأن يقايس على أعينهم بينه وبين أصنامهم ليطلعهم على إحالة القياس إليه والإشراك به. وكَلَّا ردع لهم عن مذهبهم بعد ما كسده بإبطال المقايسة ، كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام أُفٍّ لَكُمْ وَلِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ بعد ما حجهم ، وقد نبه على تفاحش غلطهم وإن لم يقدروا اللّٰه حق قدره بقوله هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

(1). تقدم شرح هذا الشاهد ضمن أبيات بالجزء الثاني صفحة 563 فراجعه إن شئت اه مصححه.
(2). قال محمود : «و هذا القول أدخل في الانصاف من الأول ، حيث أسند الاجرام إلى النفس وأراد به الزلات والصغائر التي لا يخلو عنها مؤمن ، وأسند العمل إلى المخاطبين وأراد به الكفر والمعاصي والكبائر» قال أحمد : فعبر عن الهفوات بما يعبر به عن العظائم ، وعن العظائم بما يعبر به عن الهفوات ، التزاما للانصاف ، وزيادة على ذلك أنه ذكر الاجرام المنسوب إلى النفس بصيغة الماضي الذي يعطى تحقيق المعنى ، وعن العمل المنسوب إلى الخصم بما لا يعطى ذلك ، واللّه أعلم.

[سورة سبإ (34) : آية 28]

وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (28)

إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ إلا إرسالة عامة لهم محيطة بهم ، لأنها إذا شملتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم. وقال الزجاج المعنى أرسلناك جامعا للناس في الإنذار والإبلاغ ، فجعله حالا من الكاف وحق التاء على هذا أن تكون للمبالغة كتاء الراوية والعلامة ، ومن جعله حالا من المجرور متقدّما عليه فقد أخطأ ، لأنّ تقدم حال المجرور عليه في الإحالة بمنزلة تقدم المجرور على الجار ، وكم ترى ممن يرتكب هذا الخطأ ثم لا يقع به حتى بضم إليه أن يجعل اللام بمعنى إلى ، لأنه لا يستوي له الخطأ الأوّل إلا بالخطإ الثاني ، فلا بد له من ارتكاب الخطأين.

[سورة سبإ (34) : الآيات 29 إلى 30]

وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (29) قُلْ لَكُمْ مِيعادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ (30)
قرئ : ميعاد يوم. وميعاد يوم. وميعاد يوما. والميعاد : ظرف الوعد من مكان أو زمان ، وهو هاهنا الزمان. والدليل عليه قراءة من قرأ : ميعاد يوم فأبدل منه اليوم. فإن قلت : فما تأويل من أضافه إلى يوم ، أو نصب يوما؟ قلت. أما الإضافة فإضافة تبيين ، كما تقول : سحق ثوب ، وبعير سانية. وأما نصب اليوم فعلى التعظيم بإضمار فعل تقديره : لكم ميعاد ، أعنى يوما أو أريد يوما من صفته كيت وكيت. ويجوز أن يكون الرفع على هذا ، أعنى التعظيم. فإن قلت : كيف انطبق هذا جوابا على سؤالهم؟ قلت : ما سألوا عن ذلك وهم منكرون له إلا تعنتا ، لا استرشادا ، فجاء الجواب على طريق التهديد مطابقا لمجيء السؤال على سبيل الإنكار والتعنت ، وأنهم مرصدون ليوم يفاجئهم. فلا يستطيعون تأخرا عنه ولا تقدّما عليه.

[سورة سبإ (34) : آية 31]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (31)

الذي بين يديه : ما نزل قبل القرآن من كتب اللّه : يروى أن كفار مكة سألوا أهل الكتاب فأخبروهم أنهم يجدون صفة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في كتبهم ، فأغضبهم ذلك وقرنوا إلى القرآن جميع ما تقدّمه من كتب اللّه عز وجل في الكفر. فكفروا بها جميعا. وقيل : الذي بين يديه يوم القيامة. والمعنى : أنهم جحدوا أن يكون القرآن من اللّه تعالى ، وأن يكون لما دلّ عليه من الإعادة للجزاء حقيقة ، ثم أخبر عن عاقبة أمرهم ومآلهم في الآخرة فقال لرسوله عليه الصلاة والسلام أو للمخاطب وَلَوْ تَرى في الاخرة موقفهم وهم يتجاذبون أطراف المحادثة ويتراجعونها بينهم ، لرأيت العجيب «1» ، فحذف الجواب. والمستضعفون : هم الأتباع ، والمستكبرون : هم الرءوس والمقدّمون.

[سورة سبإ (34) : الآيات 32 إلى 33]

قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (32) وَقالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (33)

أولى الاسم أعنى نَحْنُ حرف الإنكار ، لأنّ الغرض إنكار أن يكونوا هم الصادين لهم عن الإيمان ، وإثبات أنهم هم الذين صدّوا بأنفسهم عنه ، وأنهم أتوا من قبل اختيارهم ، كأنهم قالوا : أنحن أجبرناكم وحلنا بينكم وبين

(1). قوله «لرأيت العجيب» لعله : العجب ، كعبارة النسفي. (ع)

بل من جهة مكركم لنا دائبا ليلا ونهارا ، وحملكم إيانا على الشرك واتخاذ الأنداد. ومعنى مكر الليل والنهار : مكركم في الليل والنهار ، فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به وإضافة المكر إليه. أو جعل ليلهم ونهارهم ماكرين على الإسناد المجازى. وقرئ : بل مكر الليل والنهار بالتنوين ونصب الظرفين. وبل مكرّ الليل والنهار بالرفع والنصب. أى تكرّون الإغواء مكرّا دائبا لا تفترون عنه. فإن قلت : ما وجه الرفع والنصب؟ قلت : هو مبتدأ أو خبر ، على معنى : بل سبب ذلك مكركم أو مكرّكم ، أو مكركم أو مكرّكم سبب ذلك. والنصب على : بل تكرّون الإغواء مكرّ الليل والنهار : فإن قلت : لم قيل : قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ، بغير عاطف ، وقيل وَقالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا؟ قلت : لأن الذين استضعفوا مرّ أولا كلامهم ، فجيء بالجواب محذوف العاطف على طريقة الاستئناف ، ثم جيء بكلام آخر للمستضعفين ، فعطف على كلامهم الأوّل فإن قلت : من صاحب الضمير في وَأَسَرُّوا قلت : الجنس المشتمل على النوعين من المستكبرين والمستضعفين ، وهم الظالمون في قوله إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يندم المستكبرون على ضلالهم وإضلالهم ، والمستضعفون على ضلالهم واتباعهم المضلين فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا أى في أعناقهم ، فجاء بالصريح للتنويه بذمهم ، وللدلالة على ما استحقوا به الأغلال. وعن قتادة : أسروا الكلام بذلك بينهم. وقيل : أسروا الندامة أظهروها ، وهو من الأضداد.

[سورة سبإ (34) : الآيات 34 إلى 35]

وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (34) وَقالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وَأَوْلاداً وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (35)

هذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما منى «1» به من قومه من التكذيب والكفر بما جاء به ، والمنافسة بكثرة الأموال والأولاد ، والمفاخرة «2» وزخارفها ، والتكبر بذلك على المؤمنين ، والاستهانة بهم من أجله ، وقولهم أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا وأنه لم يرسل قط إلى أهل قرية من نذير إلا قالوا له مثل ما قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أهل مكة وكادوه بنحو ما كادوه به ، وقاسوا أمر الآخرة الموهومة أو المفروضة عندهم على أمر الدنيا ، واعتقدوا أنهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم ، ولولا أنّ المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم ، فعلى قياسهم ذلك قالوا وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ أرادوا أنهم أكرم على الله من أن يعذبهم ، نظرا إلى أحوالهم في الدنيا.

(1). قوله «مما منى به من قومه» أى ابتلى به. (ع)
(2). قوله «و المفاخرة وزخارفها» لعله «و المفاخرة بالدنيا وزخارفها». (ع)

[سورة سبإ (34) : آية 36]

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (36)

وقد أبطل الله تعالى حسبانهم بأنّ الرزق فضل من الله يقسمه كما يشاء على حسب ما يراه من المصالح ، فربما وسع على العاصي وضيق على المطيع ، وربما عكس ، وربما وسع عليهما وضيق عليهما ، فلا ينقاس عليه أمر الثواب الذي مبناه على الاستحقاق. وقدر الرزق : تضييقه. قال تعالى وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ وقرئ يقدّر ، بالتشديد والتخفيف.

[سورة سبإ (34) : الآيات 37 إلى 38]

وَما أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ (37) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ (38)

أراد : وما جماعة أموالكم ولا جماعة أولادكم بالتي تقربكم ، وذلك أنّ الجمع المكسر عقلاؤه وغير عقلائه سواء في حكم التأنيث ، ويجوز أن يكون التي هي التقوى وهي المقربة عند الله زلفى وحدها ، أى : ليست أموالكم بتلك الموضوعة للتقريب. وقرأ الحسن : باللاتى تقرّبكم ، لأنها جماعات. وقرئ : بالذي يقرّبكم ، أى : بالشيء الذي يقرّبكم. والزلفى والزلفة : كالكربى والكربة ، ومحلها النصب ، أى : تقرّبكم قربة ، كقوله تعالى أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً ، إِلَّا مَنْ آمَنَ استثناء من «كم» في تُقَرِّبُكُمْ ، والمعنى : أنّ الأموال لا تقرب أحدا إلا المؤمن الصالح الذي ينفقها في سبيل الله ، والأولاد لا تقرب أحدا إلا من علمهم الخير وفقههم في الدين ورشحهم للصلاح والطاعة ، جزاء الضِّعْفِ من إضافة المصدر إلى المفعول ، أصله : فأولئك لهم أن يجازوا الضعف ، ثم جزاء الضعف ، ثم جزاء الضعف. ومعنى جزاء الضعف : أن تضاعف لهم حسناتهم ، الواحدة عشرا. وقرئ: جزاء الضعف ، على : فأولئك لهم الضعف جزاء وجزاء الضعف على : أن يجازوا الضعف ، وجزاء الضعف مرفوعان : الضعف بدل من جزاء. قرئ فِي الْغُرُفاتِ بضم الراء وفتحها وسكونها. وفي الغرفة.

[سورة سبإ (34) : آية 39]

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (39)
فَهُوَ يُخْلِفُهُ فهو يعوّضه لا معوّض سواه : إما عاجلا بالمال ، أو بالقناعة التي هي كنز لا ينفد. وإما آجلا بالثواب الذي كل خلف دونه. وعن مجاهد : من كان عنده من هذا المال ما يقيمه فليقتصد ، فإنّ الرزق مقسوم ، ولعل ما قسم له قليل وهو ينفق نفقة الموسع عليه ، فينفق جميع ما في يده ثم يبقى طول عمره في فقر ، ولا يتأولن : وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ، فإن هذا في الآخرة. ومعنى الآية : وما كان من خلف فهو منه خَيْرُ الرَّازِقِينَ وأعلاهم رب العزة ، بأن كل ما رزق غيره : من سلطان يرزق جنده ، أو سيد يرزق عبده ، أو رجل يرزق عياله : فهو من رزق الله ، أجراه على أيدى هؤلاء ، وهو خالق الرزق وخالق الأسباب التي بها ينتفع المرزوق بالرزق. وعن بعضهم : الحمد لله الذي أوجدنى «1» وجعلني ممن يشتهى ، فكم من مشته لا يجد ، وواجد لا يشتهى.

[سورة سبإ (34) : الآيات 40 إلى 41]

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ (40) قالُوا سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (41)

هذا الكلام خطاب للملائكة وتقريع للكفار ، وارد على المثل السائر : إيّاك أعنى واسمعي يا جاره «2»

ونحوه قوله تعالى أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وقد علم سبحانه كون

(1). قوله «الحمد لله الذي أوجدنى» في الصحاح : وجد مطلوبه وأوجده الله مطلوبه ، أى أظفره به وأوجده أى : أغناه. (ع)
(2) يا أخت خير البدو والحضاره كيف ترين في فتى فزاره
أصبح يهوى حرة معطاره إياك اعنى فاسمعي يا جاره
لسهل بن مالك الفزاري ، يخاطب أخت حارثة بن لأم ، وكان قد سألها على أخيها فلم يجده فأنزلته وأكرمته ، فرآها في غاية الجمال والكمال ، فأنشد ذلك ، فأجابته بقولها :
إنى أقول يا فتى فزاره لا أبتغى الزوج ولا الدعارة
ولا فراق أهل هدى الحاره فارحل إلى أهلك باستحاره
فارتحل ، ثم نزل عند أخيها مرة أخرى ، وكان حسن الطلعة ، فأرسلت إليه خفية أن يخطبها ، ففعل ، وتزوجها وارتحل بها. والبدو : هو البادية. والحضارة : هي الحاضرة. والمراد أهلهما ، وكيف : اسم استفهام نصب على المفعولية بترين. والمعنى : أى حال ترين في فتى هذه القبلة؟ يعنى نفسه. وفيه تعريض ب خطبتها. والمعطارة : كثيرة التعطر ، ولحاق تاء التأنيث لمفعال شاذ - إن كانت للفرق بين المذكر والمؤنث كما هنا - ويمكن أنها لزيادة المبالغة ، لا للتأنيث. والدعارة : الفسق والخبث والفساد. وهذى : اسم إشارة. وقولها : باستحارة ، أى بكمال وعدم نقص. أو بتحير وعدم اهتداء. يقال : استحار الإناء ، إذا امتلأ وتكامل. واستحار الرجل : إذا تحر في رأيه.

الملائكة وعيسى منزهين برآء مما وجه عليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير ، والغرض أن يقول ويقولوا ، ويسأل ويجيبوا ، فيكون تقريعهم أشدّ. وتعييرهم أبلغ ، وخجلهم أعظم : وهو أنه ألزم ، ويكون اقتصاص ذلك لطفا لمن سمعه ، وزاجرا لمن اقتص عليه. والموالاة : خلاف المعاداة. ومنها : اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه. وهي مفاعلة من الولي وهو القرب ، كما أنّ المعاداة من العدواء وهي البعد ، والولي : يقع على الموالي والموالي جميعا. والمعنى أنت الذي نواليه من دونهم ، إذ لا موالاة بيننا وبينهم ، فبينوا بإثبات موالاة الله ومعاداة الكفار : براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم ، لأنّ من كان على هذه الصفة كانت حاله منافية لذلك بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ يريدون الشياطين ، حيث أطاعوهم في عبادة غير الله. وقيل : صوّرت لهم الشياطين صور قوم من الجن وقالوا : هذه صور الملائكة فاعبدوها. وقيل : كانوا يدخلون في أجواف الأصنام إذا عبدت. فيعبدون بعبادتها. وقرئ : نحشرهم. ونقول ، بالنون والياء.

[سورة سبإ (34) : آية 42]

فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ (42)
الأمر في ذلك اليوم لله وحده ، لا يملك فيه أحد منفعة ولا مضرّة لأحد ، لأنّ الدار دار ثواب وعقاب ، والمثيب والمعاقب هو الله ، فكانت حالها خلاف حال الدنيا التي هي دار تكليف ، والناس فيها مخلى بينهم ، يتضارّون ويتنافعون. والمراد : أنه لا ضارّ ولا نافع يومئذ إلا هو وحده ، ثم ذكر معاقبته الظالمين بقوله وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا معطوفا على لا يَمْلِكُ.

[سورة سبإ (34) : آية 43]

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ وَقالُوا ما هذا إِلاَّ إِفْكٌ مُفْتَرىً وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (43)

الإشارة الأولى : إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، والثانية إلى القرآن. والثالثة : إلى الحق ، والحق أمر النبوّة كله ودين الإسلام كما هو. وفي قوله وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا وفي أن لم يقل وقالوا ، وفي قوله لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ وما في اللامين من الإشارة إلى القائلين والمقول فيه ، وفي لما من المبادهة بالكفر : دليل على صدور الكلام عن إنكار عظيم وغضب شديد ، وتعجيب من أمرهم بليغ ، كأنه قال : وقال أولئك الكفرة المتمرّدون بجراءتهم على الله ومكابرتهم لمثل ذلك الحق النير قبل أن يذوقوه إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ فبتوا القضاء على أنه سحر ، ثم بتوه على أنه بين ظاهر كل عاقل تأمّله سماه سحرا.

[سورة سبإ (34) : الآيات 44 إلى 45]

وَما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها وَما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (44) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (45)

وما آتيناهم كتبا يدرسونها فيها برهان على صحة الشرك ، ولا أرسلنا إليهم نذيرا ينذرهم بالعقاب إن لم يشركوا، كما قال عز وجل أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ أو وصفهم بأنهم قوم أمّيون أهل جاهلية لا ملة لهم وليس لهم عهد بإنزال كتاب ولا بعثة رسول كما قال أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ فليس لتكذيبهم وجه متشبث ، ولا شبهة متعلق ، كما يقول أهل الكتاب وإن كانوا مبطلين : نحن أهل كتب وشرائع ، ومستندون إلى رسل من رسل الله. ثم توعدهم على تكذيبهم بقوله وَكَذَّبَ الَّذِينَ تقدّموهم من الأمم والقرون الخالية كما كذبوا ، وما بلغ هؤلاء بعض ما آتينا أولئك من طول الأعمار وقوّة الأجرام وكثرة الأموال ، فحين كذبوا رسلهم جاءهم إنكارى بالتدمير والاستئصال ، ولم يغن عنهم استظهارهم بما هم به مستظهرون ، فما بال هؤلاء؟ وقرئ : يدرّسونها ، من التدريس وهو تكرير الدرس. أو من درّس الكتاب ، ودرّس الكتب : ويدّرسونها، بتشديد الدال : يفتعلون من الدرس. والمعشار كالمرباع ، وهما : العشر ، والربع. فإن قلت : ما معنى فَكَذَّبُوا رُسُلِي وهو مستغنى عنه بقوله وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ؟ قلت : لما كان معنى قوله وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ : وفعل الذين من قبلهم التكذيب ، وأقدموا عليه : جعل تكذيب الرسل مسببا عنه ونظيره أن يقول القائل : أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ويجوز أن ينعطف على قوله : وما بلغوا ، كقولك : ما بلغ زيد معشار فضل عمرو فتفضل عليه فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ «1» أى للمكذبين الأوّلين ، فليحذروا من مثله.

[سورة سبإ (34) : آية 46]

قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَفُرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ (46)

بِواحِدَةٍ بخصلة واحدة ، وقد فسرها بقوله أَنْ تَقُومُوا على أنه عطف بيان لها ، وأراد بقيامهم : إما القيام عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرّقهم عن مجتمعهم عنده وإما القيام الذي لا يراد به المثول على القدمين ، ولكن الانتصاب في الأمر والنهوض فيه بالهمة،

(1). قوله «فكيف كان نكير» وفي النسفي : أن يعقوب قرأ «نكيري» بالياء في الوصل والوقف. (ع)

والمعنى : إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم : وهي : أن تقوموا لوجه الله خالصا. متفرّقين اثنين اثنين ، وواحدا واحدا ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا في أمر محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به ، أمّا الاثنان : فيتفكران ويعرض كلّ واحد منهما محصول فكره على صاحبه وينظران فيه متصادقين متناصفين ، لا يميل بهما اتباع هوى ولا ينبض لهما عرق عصبية ، حتى يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح على جادة الحق وسننه ، وكذلك الفرد : يفكر في نفسه بعدل ونصفة من غير أن يكابرها ويعرض فكره على عقله وذهنه وما استقرّ عنده من عادات العقلاء ومجارى أحوالهم ، والذي أوجب تفرّقهم مثنى وفرادى : أنّ الاجتماع مما يشوّش الخواطر ، ويعمى البصائر ، ويمنع من الروية ، ويخلط القول ، ومع ذلك يقل الإنصاف ، ويكثر الاعتساف ، ويثور عجاج التعصب. ولا يسمع إلا نصرة المذهب ، وأراهم بقوله ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ أن هذا الأمر العظيم الذي تحته ملك الدنيا والآخرة جميعا ، لا يتصدّى لا دعاء مثله إلا رجلان : إمّا مجنون لا يبالى باقتضاحه إذا طولب بالبرهان فعجز ، بل لا يدرى ما الافتضاح وما رقبة العواقب. وإمّا عاقل راجح العقل مرشح للنبوّة ، مختار من أهل الدنيا ، لا يدعيه إلا بعد صحته عنده بحجته وبرهانه ، وإلا فما يجدى على العاقل دعوى شيء لا بينة له عليه ، وقد علمتم أنّ محمدا صلى الله عليه وسلم ما به من جنة ، بل علمتموه أرجح قريش عقلا ، وأرزنهم حلما وأثقبهم ذهنا وآصلهم رأيا ، وأصدقهم قولا ، وأنزههم نفسا ، وأجمعهم لما يحمد عليه الرجال ويمدحون به ، فكان مظنة لأن تظنوا به الخير ، وترجحوا فيه جانب الصدق على الكذب ، وإذا فعلتم ذلك كفاكم أن تطالبوه بأن يأتيكم بآية ، فإذا أتى بها تبين أنه نذير مبين. فإن قلت : ما بِصاحِبِكُمْ ثم يتعلق؟ قلت : يجوز أن يكون كلاما مستأنفا تنبيها من الله عز وجل على طريقة النظر في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويجوز أن يكون المعنى : ثم تتفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من جنة ، وقد جوّز بعضهم أن تكون ما استفهامية بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ كقوله عليه الصلاة والسلام «1» : «بعثت في نسم الساعة «2»».

[سورة سبإ (34) : آية 47]

قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (47)

فَهُوَ لَكُمْ جزاء الشرط الذي هو قوله ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ تقديره : أىّ شيء سألتكم من أجر فهو لكم ،

(1). تقدم في الأنبياء. [.....]
(2). قوله «بعثت في نسم الساعة» في الصحاح «نسم الريح» : أولها حين تقبل بلين قبل أن تشتد. ومنه الحديث «بعثت في نسم الساعة» أى : حين ابتدأت وأقبلت أوائلها. والنسم أيضا : جمع نسمة وهي النفس. (ع)

كقوله تعالى ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ وفيه معنيان ، أحدهما : نفى مسألة الأجر رأسا ، كما يقول الرجل لصاحبه : إن أعطيتنى شيئا فخذه ، وهو يعلم أنه لم يعطه شيئا ولكنه يريد به البت ، لتعليقه الأخذ بما لم يكن. والثاني : أن يريد بالأجر ما أراد في قوله تعالى قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا وفي قوله قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى لأنّ اتخاذ السبيل إلى الله نصيبهم وما فيه نفعهم ، وكذلك المودّة في القرابة ، لأنّ القرابة قد انتظمته وإياهم عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ حفيظ مهيمن ، يعلم أنى لا أطلب الأجر على نصيحتكم ودعائكم إليه إلا منه ، ولا أطمع منكم في شيء.

[سورة سبإ (34) : آية 48]

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (48)

القذف والرمي : تزجية «1» السهم ونحوه بدفع واعتماد ، ويستعاران من حقيقتهما لمعنى الإلقاء ومنه قوله تعالى وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ ومعنى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ يلقيه وينزله إلى أنبيائه. أو يرمى به الباطل فيدمغه ويزهقه عَلَّامُ الْغُيُوبِ رفع محمول على محل إن واسمها ، أو على المستكن في يقذف ، أو هو خبر مبتدإ محذوف. وقرئ بالنصب صفة لربي ، أو على المدح. وقرئ : الغيوب بالحركات الثلاث ، فالغيوب كالبيوت. والغيوب كالصبور وهو الأمر الذي غاب وخفى جدا.

[سورة سبإ (34) : آية 49]

قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ (49)

والحىّ إمّا أن يبدئ فعلا أو يعيده فإذا هلك لم يبق له إبداء ولا إعادة ، فجعلوا قولهم : لا يبدئ ولا يعيد مثلا في الهلاك. ومنه قول عبيد : أقفر من أهله عبيد فاليوم لا يبدي ولا يعيد «2»

والمعنى : جاء الحق وهلك الباطل ، كقوله تعالى : جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ وعن ابن مسعود رضى الله عنه :

(1). قوله «القذف والرمي تزجية السهم» في الصحاح : زجيت الشيء تزجية إذا دفعته برفق. (ع)
(2). لعبيد بن الأبرص. وأقفر : خلا أو هلك عبيد من أهله. والإبداء والاعادة من لوازمهما الحياة ، فنفيهما كناية عن نفيها بالموت. كان المنذر بن ماء السماء يخرج في يوم من كل سنة فينعم على كل من يلقاه ، وفي آخر فيقتل أول من يلقاه ، فصادفه فيه عبيد ، فقيل له : امدحه بشعر لعله يعفو عنك ، فقال : حال الجريض دون القريض ، أى منعت الغصة الشعر ، فضرب ذلك مثلا وقال هذا البيت بعد ذلك تحسرا. وفي مجانى الأدب : أن المنذر قال له : أنشدنى : أقفر من أهله ملحوب ، فقال : أقفر من أهله عبيد. وملحوب : اسم موضع ، استنشده بيتا قديما فعلم أنه يريد هلاكه ، فقال : لا قدرة لي على إبداء شعر جديد ، ولا على إعادة شعر قديم ، ودخل في حشو البيت الزحاف الطى ، ومن العلل القطع ، فصار مستفعلن على وزن مستعل بسكون اللام ، وذلك في قوله «أهله».

دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما ، فجعل يطعنها بعود نبعة «1» ويقول جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً ، جاءَ الْحَقُّ وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ «2». والحق : القرآن. وقيل : الإسلام. وقيل : السيف. وقيل الباطل : إبليس لعنه الله ، أى : ما ينشئ خلقا ولا يعيده ، المنشئ والباعث: هو الله تعالى. وعن الحسن : لا يبدئ لأهله خيرا ولا يعيده ، أى : لا ينفعهم في الدنيا والآخرة. وقال الزجاج : أىّ شيء ينشئ إبليس ويعيده ، فجعله للاستفهام. وقيل للشيطان : الباطل ، لأنه صاحب الباطل ، أو لأنه هالك كما قيل له : الشيطان ، من شاط إذا هلك.

[سورة سبإ (34) : آية 50]

قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (50)

قرئ ، ضللت أضلّ ، بفتح العين مع كسرها. وضللت أضلّ ، بكسرها مع فتحها ، وهما لغتان ، نحو : ظللت أظلّ ، وظللت أظلّ. وقرئ اضلّ : بكسر الهمزة مع فتح العين. فإن قلت : أين التقابل بين قوله فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي وقوله فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ، وإنما كان يستقيم أن يقال : فإنما أضل على نفسي ، وإن اهتديت فإنما أهتدى لها ، كقوله تعالى مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها. أو يقال : فإنما أضل بنفسي. قلت : هما متقابلان من جهة المعنى ، لأنّ النفس كل ما عليها فهو بها ، أعنى : أن كل ما هو وبال عليها وضار لها فهو بها وبسببها : لأن الأمّارة بالسوء ، وما لها مما ينفعها فبهداية ربها وتوفيقه ، وهذا حكم عامّ لكل مكلف ، وإنما أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يسنده إلى نفسه ، لأن الرسول إذا دخل تحته مع جلالة حمله وسداد طريقته كان غيره أولى به إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ يدرك قول كل ضالّ ومهتد ، وفعله لا يخفى عليه منهما شيء.

[سورة سبإ (34) : آية 51]

وَلَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ (51)

وَلَوْ تَرى جوابه محذوف ، يعنى : لرأيت أمرا عظيما وحالا هائلة. و«لو» و«إذ» والأفعال التي هي «فزعوا» و«أخذوا» وحيل بينهم : كلها للمضى. والمراد بها الاستقبال ، لأن ما الله فاعله في المستقبل بمنزلة ما قد كان

(1). قوله «فجعل يطعنه بعود نبعة» لعله «معه» كعبارة النسفي. (ع)
(2). متفق عليه وقد تقدم في الاسراء.

وذلك أنّ ثمانين ألفا يغزون الكعبة ليخربوها ، فإذا دخلوا البيداء خسف بهم فَلا فَوْتَ فلا يفوتون اللّه ولا يسبقونه. وقرئ : فلا فوت. والأخذ من مكان قريب : من الموقف إلى النار إذا بعثوا. أو من ظهر الأرض إلى بطنها إذا ماتوا. أو من صحراء بدر إلى القليب. أو من تحت أقدامهم إذا خسف بهم. فإن قلت : علام عطف قوله وَأُخِذُوا؟ قلت : فيه وجهان : العطف على فزعوا ، أى : فزعوا وأخذوا فلا فوت لهم. أو على لا فوت ، على معنى : إذ فزعوا فلم يفوتوا وأخذوا. وقرئ : وأخذ ، وهو معطوف على محل لا فوت.

ومعناه : فلا فوت هناك ، وهناك أخذ.

[سورة سبإ (34) : الآيات 52 إلى 54]

وَقالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (52) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (53) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (54)

آمَنَّا بِهِ بمحمد صلى اللّه عليه وسلم لمرور ذكره في قوله ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ : والتناوش والتناول : أخوان إلا أنّ التناوش تناول سهل لشيء قريب ، يقال ناشه ينوشه ، وتناوشه القوم. ويقال : تناوشوا في الحرب : ناش بعضهم بعضا. وهذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون ، وهو أن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت ، كما ينفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا : مثلت حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة «1» كما يتناوله الآخر من قيس ذراع تناولا سهلا لا تعب فيه وقرئ التناؤش : همزت الواو المضمومة كما همزت في أجؤه وأدؤر وعن أبى عمرو التناؤش بالهمز التناول من بعد من قولهم : نأشت إذا أبطأت وتأخرت. ومنه البيت : تمنّى نئيشا أن يكون أطاعنى «2»

(1). قوله «أن يتناول الشيء من غلوة» في الصحاح : غلوت بالسهم غلوا ، إذا رميت به أبعد ما تقدر عليه ، والغلوة : الغاية مقدار رمية ، وفيه : يقال بينهما قيس رمح وقاس رمح ، أى : قدر رمح. (ع)
(2) ومولى عصاني واستبد برأيه كما لم يطع فيما أشار قصير
فلما رأى ما غب أمرى وأمره وناءت بأعجاز الأمور صدور
تمنى نئيشا أن يكون أطاعنى وقد حدثت بعد الأمور أمور
لنهشل بن حرى» واستبد : انفرد واستغنى بأمره. وقصير : علم رجل كان حسن الرأى ، وهو فاعل أشار.
ومفعول «يطع» محذوف لدلالة المذكور عليه. أو لأن الفعل منزل منزلة اللازم ، والأوجه رواية لم يطع مبنيا للمجهول. وقصير : نائب الفاعل ، وضميره فاعل أشار ، وبالعكس على الخلاف في باب التنازع. رغب الأمر :
بلغ فيه بالكسر عاقبته. وناء - بالمد - : أصله نأى ، فقلب : أى بعد ، وشبه الأمر بشيء له صدر وعجز على طريق المكنية وإثباتهما له تخييل ، كأن أوائل الأمور مضت بأواخرها ، فلما مضت الأوائل ظهرت الأواخر بعد خفائها. ويقال : نأش بالهمز إذا تأخر. ونئيشا: نصب على الظرف ، أى أخيرا ، أى : تمنى في آخر الأمر أن يكون أطاعنى في نصيحتي لما رأى عاقبة أمرى حسنة وعاقبة أمره سيئة ، والحال أنه قد حدثت بعد الأمور السهلة أمور صعبة كانت خفية أوجبت تمنيه ، فهي حال مبينة للمراد من الظرف. أو حدثت بعد الأمور السهلة التي كان يمكنه معها مطاوعتى أمور صعبة تمنعه من التخلص من ربكته ، كما نصحته بذلك أولا فلم يسمع ومضى على رأيه.

أى أخيرا وَيَقْذِفُونَ معطوف على قد كفروا ، على حكاية الحال الماضية ، يعنى : وكانوا يتكلمون بِالْغَيْبِ ويأتون به مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ وهو قولهم في رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم شاعر. ساحر. كذاب. وهذا تكلم بالغيب والأمر الخفي ، لأنهم لم يشاهدوا منه سحرا ولا شعرا ولا كذبا ، وقد أتوا بهذا الغيب من جهة بعيدة من حاله ، لأن أبعد شيء مما جاء به : الشعر والسحر ، وأبعد شيء من عادته التي عرفت بينهم وجربت : الكذب والزور : وقرئ: ويقذفون بالغيب ، على البناء للمفعول ، أى : يأتيهم به شياطينهم ويلقنونهم إياه ، وإن شئت فعلقه بقوله وَقالُوا آمَنَّا بِهِ على أنه مثلهم في طلبهم تحصيل ما عطلوه من الإيمان في الدنيا بقولهم آمنا في الآخرة ، وذلك مطلب مستبعد بمن يقذف شيئا من مكان بعيد لا مجال للظن في لحوقه ، حيث يريد أن يقع فيه لكونه غائبا عنه شاحطا، والغيب : الشيء الغائب ، ويجوز أن يكون الضمير للعذاب الشديد في قوله بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ وكانوا يقولون: وما نحن بمعذبين ، إن كان الامر كما تصفون من قيام الساعة والعقاب والثواب ، ونحن أكرم على اللّه من أن يعذبنا ، قايسين أمر الآخرة على أمر الدنيا : فهذا كان قذفهم بالغيب ، وهو غيب ومقذوف به من جهة بعيدة ، لأن دار الجزاء لا تنقاس على دار التكليف ما يَشْتَهُونَ من نفع الإيمان يومئذ والنجاة به من النار والفوز بالجنة.

شعر شاعر.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة سبأ لم يبق رسول ولا نبىّ إلا كان له يوم القيامة رفيقا ومصافحا «1»»

(1). أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم عن أبى بن كعب.

سورة الملائكة

مكية ، وهي خمس وأربعون آية [نزلت بعد الفرقان]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة فاطر (35) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1)

فاطِرِ السَّماواتِ مبتدئها ومبتدعها. وعن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما : ما كنت أدرى ما فاطر السماوات والأرض ، حتى اختصم إلىّ أعرابيان في بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها «1» ، أى ابتدأتها. وقرئ : الذي فطر السماوات والأرض وجعل الملائكة. وقرئ : جاعل الملائكة ، بالرفع على المدح رُسُلًا بضم السين وسكونها أُولِي أَجْنِحَةٍ أصحاب أجنحة ، وأولو : اسم جمع لذو ، كما أن أولاء اسم جمع لذا ، ونظيرهما في المتمكنة : المخاض والخلفة مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ صفات لأجنحة ، وإنما لم تنصرف لتكرر العدل فيها. ذلك أنها عدلت عن ألفاظ الأعداد عن صيغ إلى صيغ أخر ، كما عدل عمر عن عامر. وحذام عن حاذمة ، وعن تكرير إلى غير تكرير. وأما الوصفية فلا يفترق الحال فيما بين المعدولة والمعدول عنها. ألا تراك تقول : مررت بنسوة أربع ، وبرجال ثلاثة ، فلا يعرج عليها ، والمعنى : أن الملائكة «2» خلقا أجنحتهم اثنان اثنان ، أى : لكل واحد منهم جناحان ، وخلقا أجنحتهم ثلاثة ثلاثة ، وخلقا أجنحتهم أربعة أربعة يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ أى : يزيد في خلق الأجنحة ، وفي غيره ما تقتضيه مشيئته وحكمته. والأصل الجناحان ، لأنهما بمنزلة اليدين ، ثم الثالث والرابع زيادة على الأصل ، وذلك أقوى للطيران وأعون عليه. فإن قلت : قياس الشفع من الأجنحة أن يكون في كل شق نصفه ، فما صورة الثلاثة؟ قلت : لعل الثالث يكون في وسط الظهر بين الجناحين يمدّهما بقوة. أو لعله لغير الطيران ، فقد مرّبى في بعض الكتب أن صنفا من الملائكة لهم ستة أجنحة فجناحان يلفون بها أجسادهم ، وجناحان يطيرون بهما في الأمر من أمور الله ، وجناحان مرخيان على وجوههم حياء من الله.

---

(1). تقدم في أول الأنعام

(2). قوله «أن الملائكة خلقا» لعله : متنوعة خلقا ... الخ. (ع)

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم «أنه رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج وله ستمائة جناح «1» ، وروى أنه سأل جبريل عليه السلام أن يتراءى له في صورته فقال : إنك لن تطيق ذلك. قال : «إنى أحب أن تفعل «2» فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة مقمرة ، فأتاه جبريل في صورته فغشى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أفاق وجبريل عليه السلام مسنده وإحدى يديه على صدره والأخرى بين كتفيه ، فقال : سبحان الله! ما كنت أرى أن شيئا من الخلق هكذا ، فقال جبريل : فكيف لو رأيت إسرافيل : له اثنا عشر جناحا : جناح منها بالمشرق ، وجناح بالمغرب. وإن العرش على كاهله ، وإنه ليتضاءل الأحايين لعظمة الله حتى يعود مثل الوصع «3» وهو العصفور الصغير. وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ : «هو الوجه الحسن ، والصوت الحسن ، والشعر الحسن» وقيل «الخط الحسن» وعن قتادة : الملاحة في العينين ، والآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق : من طول قامة ، واعتدال صورة ، وتمام في الأعضاء ، وقوة في البطش ، وحصافة في العقل «4» ، وجزالة في الرأى ، وجراءة في القلب ، وسماحة في النفس ، وذلاقة» في اللسان ولباقة في التكلم «6» ، وحسن تأنّ في مزاولة الأمور ، وما أشبه ذلك مما لا يحيط به الوصف.

[سورة فاطر (35) : آية 2]

ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (2)

استعير الفتح للإطلاق والإرسال. ألا ترى إلى قوله فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ مكان : لا فاتح له ، يعنى : أى شيء يطلق الله من رحمة أى من نعمة رزق أو مطر أو صحة أو أمن أو غير ذلك من صنوف نعمائه التي لا يحاط

(1). متفق عليه من حديث ابن مسعود «أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح» ولفظ ابن حبان «رأيت جبريل عند سدرة المنتهى وله ستمائة جناح ينتشر في ريشه الدر والياقوت»
(2). أخرجه ابن المبارك في الزهد. والثعلبي من طريقه أخبرنا الليث عن عقيل عن الزهري بهذا. وزاد «و الوصع عصفور صغير حتى ما يحمل عرشه إلا عظمته» الوصع بفتح الصاد المهملة بعدها مهملة أيضا
(3). قوله «مثل الوصع وهو العصفور» في الصحاح «الوصع» : طائر أصغر من العصفور. (ع)
(4). قوله «و حصافة» أى : إحكام. أفاده الصحاح. (ع) [.....]
(5). قوله «و ذلاقة» أى : حدة وطلاقة ، أفاده الصحاح. (ع)
(6). قوله «و لباقة في التكلم» أى حذق. أفاده الصحاح. (ع)

فأنث على معنى الرحمة ، وذكر على أن لفظ المرجوع إليه لا تأنيث فيه ، ولأنّ الأوّل فسر بالرحمة ، فحسن اتباع الضمير التفسير ، ولم يفسر الثاني فترك على أصل التذكير وقرئ فلا مرسل لها.

فإن قلت : لا بد للثاني من تفسير ، فما تفسيره؟ قلت : يحتمل أن يكون تفسيره مثل تفسير الأوّل ، ولكنه ترك لدلالته عليه ، وأن يكون مطلقا في كل ما يمسكه من غضبه ورحمته ، وإنما فسر الأوّل دون الثاني للدلالة على أن رحمته سبقت غضبه. فإن قلت : فما تقول فيمن فسر الرحمة بالتوبة وعزاه إلى ابن عباس رضى الله عنهما؟ قلت : إن أراد بالتوبة الهداية لها والتوفيق فيها - وهو الذي أراده ابن عباس رضى الله عنهما إن قاله - فمقبول ، وإن أراد أنه إن شاء أن يتوب العاصي تاب ، وإن لم يشأ لم يتب ، فمردود لأنّ الله تعالى يشاء التوبة أبدا «1»، ولا يجوز عليه أن لا يشاؤها مِنْ بَعْدِهِ من بعد إمساكه ، كقوله تعالى فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ أى من بعد هدايته وبعد آياته وَهُوَ الْعَزِيزُ الغالب القادر على الإرسال والإمساك الْحَكِيمُ الذي يرسل ويمسك ما تقتضي الحكمة إرساله وإمساكه.

[سورة فاطر (35) : آية 3]

يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (3)

ليس المراد بذكر النعمة ذكرها باللسان فقط ، ولكن به وبالقلب ، وحفظها من الكفران والغمط «2» وشكرها بمعرفة حقها والاعتراف بها وطاعة موليها. ومنه قول الرجل لمن أنعم عليه : اذكر أيادىّ عندك. يريد حفظها وشكرها والعمل على موجبها ، والخطاب عام للجميع لأنّ جميعهم مغمورون في نعمة الله. وعن ابن عباس رضى الله عنهما : يريد : يا أهل مكة اذكروا نعمة الله عليكم ، حيث أسكنكم حرمه ومنعكم من جميع العالم ، والناس يتخطفون من حولكم. وعنه : نعمة الله العافية. وقرئ : غير الله ، بالحركات الثلاث فالجرّ والرفع على الوصف لفظا ومحلا ، والنصب على الاستثناء. فإن قلت : ما محل يَرْزُقُكُمْ؟ قلت : يحتمل أن يكون له محل إذا أوقعته صفة لخالق «3» وأن لا يكون له محل إذا رفعت محل من خالق ، بإضمار يرزقكم ، وأوقعت يرزقكم تفسيرا له ، أو جعلته كلاما مبتدأ بعد قوله هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ.

(1). قوله «يشاء التوبة أبدا» هذا وما بعده على مذهب المعتزلة ، من أنه تعالى يجب عليه الصلاح للعبد. وعند أهل السنة : لا يجب عليه شيء ، فالكلام على ظاهره ، ورده مردود. (ع)
(2). قوله «و حفظها من الكفران والغمط» أى : الاحتقار. أفاده الصحاح. (ع)
(3). قال محمود : «إن قلت : ما محل يرزقكم؟ قلت : يحتمل أن يكون له محل إذا أوقعته صفة لخالق ، وأن لا يكون له محل إذا جعلته تفسيرا وجعلت من خالق مرفوع المحل بفعل يدل عليه هذا ، كأنه قيل : هل يرزقكم خالق غير الله ، أو جعلت يرزقكم كلاما مبتدأ» قال أحمد : والوجه المؤخر أوجهها

فإن قلت : هل فيه دليل على أنّ الخالق لا يطلق على غير الله تعالى «1»؟ قلت نعم إن جعلت يَرْزُقُكُمْ كلاما مبتدأ وهو الوجه الثالث من الأوجه الثلاثة. وأمّا على الوجهين الآخرين وهما الوصف والتفسير. فقد يقيد فيهما بالرزق من السماء والأرض ، وخرج من الإطلاق ، فكيف يستشهد به على اختصاصه ، بالإطلاق ، والرزق من السماء المطر ، ومن الأرض النبات لا إِلهَ إِلَّا هُوَ جملة مفصولة لا محل لها ، مثل : يرزقكم في الوجه الثالث ، ولو وصلتها كما وصلت يرزقكم لم يساعد عليه المعنى ، لأنّ قولك : هل من خالق آخر سوى الله لا إله

[سورة فاطر (35) : آية 4]

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (4)

نعى به على قريش سوء تلقيهم لآيات الله ، ولتكذيبهم بها ، وسلى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن له في الأنبياء قبله أسوة حسنة ، ثم جاء بما يشتمل على الوعد والوعيد : من رجوع الأمور إلى حكمه ومجازاة المكذب والمكذب بما يستحقانه. وقرئ : ترجع ، بضم التاء وفتحها. فإن قلت : ما وجه صحة جزاء الشرط؟ ومن حق الجزاء أن يتعقب الشرط وهذا سابق له. قلت : معناه : وإن يكذبوك فتأس بتكذيب الرسل من قبلك ، فوضع فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ موضع : فتأس ، استغناء بالسبب عن المسبب : أعنى بالتكذيب عن التأسى. فإن قلت : ما معنى التنكير في رسل؟ قلت : معناه فقد كذبت رسل ، أى رسل ذو وعدد كثير. وأولو آيات ونذر ، وأهل أعمار طوال وأصحاب صبر وعزم ، وما أشبه ذلك. وهذا أسلى له ، وأحث على المصابرة.

---

(1). عاد كلامه. قال : فان قلت : هل فيه دليل على أن الخالق لا يطلق على غير الله تعالى؟ قلت : نعم إن جعلت يرزقكم كلاما مبتدأ ، وهو الوجه الثالث من الأوجه الثلاثة. وأما على الوجهين الآخرين وهما الوصف والتفسير فقد تقيد فيهما بالرزق من السماوات والأرض ، وخرج من الإطلاق ، فكيف يستشهد به على نفيه مطلقا.

قال أحمد : القدرية إذا قرعت هذه الآية أسماعهم قالوا بجرأه على الله تعالى : نعم ثم خالق غير الله ، لأن كل أحد عندهم يخلق فعل نفسه ، فلهذا رأيت الزمخشري وسع الدائرة ، وجلب الوجوه الشاردة النافرة ، وجعل الوجهين يطابقان معتقده في إثبات خالق غير الله ، ووجهها هو الحق والظاهر ، وأخره في الذكر تأسيا له ، والذي يحقق الوجه الثالث وأنه هو المراد : أن الآية خوطب بها قوم على أنهم مشركون ، إذا سئلوا عن رازقهم من السماوات والأرض ، قالوا : الله ، فقرروا بذلك وقرعوا به ، إقامة للحجة عليهم بإقرارهم ، ولو كان على غير هذا الوجه قيد ، لكان مفهومه إثبات خالق غير الله ، لكنه لا يرزق وهؤلاء الكفرة قد تبرؤا عن ذلك ، فلا وجه لتقريعهم بما يلائم قولهم هذا ترجيح الوجه الثالث من حيث مقصود سياق الآية. وأما من حيث النظم اللفظي ، فلأن الجملتين اللتين هما قوله يَرْزُقُكُمْ وقوله لا إِلهَ إِلَّا هُوَ سقتا سياقا واحدا. والثانية مفصولة اتفاقا مما تقدم ، فكذلك وَزِينَتَها.

[سورة فاطر (35) : الآيات 5 إلى 7]

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (5) إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ (6) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (7)

وعد الله الجراء بالثواب والعقاب فَلا تَغُرَّنَّكُمُ فلا تخدعنكم الدُّنْيا ولا يذهلنكم التمتع بها والتلذذ بمنافعها عن العمل للآخرة وطلب ما عند الله وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ لا يقولن لكم اعملوا ما شئتم فإن الله غفور يغفر كل كبيرة ويعفو عن كل خطيئة «1». والغرور الشيطان لأن ذلك ديدنه. وقرئ بالضم وهو مصدر غره كاللزوم والنهوك أو جمع غارّ كقاعد وقعود أخبرنا الله عز وجل أن الشيطان لنا عدوّ مبين ، واقتص علينا قصته وما فعل بأبينا آدم عليه السلام ، وكيف انتدب لعداوة جنسنا من قبل وجوده وبعده ، ونحن على ذلك نتولاه ونطيعه فيما يريد منا مما فيه هلاكنا ، فوعظنا عز وجل بأنه كما علمتم عدوّكم الذي لا عدوّ أعرق في العداوة منه ، وأنتم تعاملونه معاملة من لا علم له بحاله فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا في عقائدكم وأفعالكم ، ولا يوجدن منكم إلا ما يدل على معاداته ومناصبته في سركم وجهركم. ثم لخص سر أمره وخطأ من اتبعه بأنّ غرضه الذي يؤمه في دعوة شيعته ومتبعي خطواته : هو أن يوردهم مورد الشقوة والهلاك ، وأن يكونوا من أصحاب السعير. ثم كشف الغطاء وقشر اللحاء «2» ، ليقطع الأطماع الفارغة والأمانى الكاذبة ، فبنى الأمر كله على الإيمان والعمل وتركهما.

[سورة فاطر (35) : آية 8]

أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ (8)

لما ذكر الفريقين الذين كفروا والذين آمنوا ، قال لنبيه أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً يعنى : أفمن زين له سوء عمله من هذين الفريقين ، كمن لم يزين له ، فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لا»

(1). قال محمود : «معناه : ولا يقولن لكم الشيطان : اعملوا ما شئتم فان اللّه غفور ، يغفر كل كبيرة ويعفو عن كل خطيئة» قال أحمد: هو يعرض بأهل السنة في اعتقادهم جواز مغفرة الكبائر للموحد ، وإن لم يكن توبة.
وهذا لا يناقض صدق وعده تعالى ، لأن اللّه تعالى حيث توعد على الكبائر قرن الوعد بالمشيئة في مثل قوله لهم إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ فهم إذا مصدقون بوعد اللّه تعالى ، موقنون به على حسب ما ورد.
(2). قوله «و قشر اللحاء» في الصحاح : اللحاء - ممدود - : قشر الشجر. (ع)

فقال فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ ومعنى تزيين العمل والإضلال : واحد ، وهو أن يكون العاصي على صفة لا تجدى عليه المصالح ، حتى يستوجب بذلك خذلان اللّه تعالى وتخليته وشأنه ، فعند ذلك يهيم في الضلال ويطلق آمر النهى ، ويعتنق طاعة الهوى ، حتى يرى القبيح حسنا والحسن قبيحا ، كأنما غلب على عقله وسلب تمييزه ، ويقعد تحت قول أبى نواس : اسقني حتّى تراني حسنا عندي القبيح «1».

وإذا خذل اللّه المصممين على الكفر وخلاهم وشأنهم ، فإنّ على الرسول أن لا يهتم بأمرهم ولا يلقى بالا إلى ذكرهم ، ولا يحزن ولا يتحسر عليهم : اقتداء بسنة اللّه تعالى في خذلانهم وتخليتهم. وذكر الزجاج أنّ المعنى : أفمن زين له سوء عمله ذهبت نفسك عليهم حسرة ، فحذف الجواب لدلالة فلا تذهب نفسك عليه : أو أفمن زين له سوء عمله كمن هداه اللّه ، فحذف لدلالة فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ عليه. حسرات : مفعول له يعنى : فلا تهلك نفسك للحسرات.

وعليهم صلة تذهب ، كما تقول : هلك عليه حبا ، ومات عليه حزنا. أو هو بيان للمتحسر عليه.

ولا يجوز أن يتعلق بحسرات ، لأنّ المصدر لا يتقدم عليه صلته. ويجوز أن يكون حالا ، كأن كلها صارت حسرات لفرط التحسر ، كما قال جرير : مشق الهواجر لحمهنّ مع السرى حتّي ذهبن كلاكلا وصدورا «2»

يريد : رجعن كلا كلا وصدورا ، أى : لم يبق إلا كلا كلها وصدورها. ومنه قوله : فعلى إثرهم تساقط نفسي حسرات وذكرهم لي سقام «3»

وقرئ : فلا تذهب نفسك إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ وعيد لهم بالعقاب على سوء صنيعهم.

(1) نحن نخفيها فتأتى طيب ريح فتفوح
اسقني حتى تراني حسنا عندي القبيح
لأبى نواس. ونخفيها ، أى : الخمر ، فتفوح : أى رائحتها ، ثم قال لساقى الخمر : اسقني حتى أسكر ، فيحسن عندي القبيح ، وحسنا : المفعول الثاني ، والقبيح مرفوع به ، واستحسانه : كناية عن اشتداد السكر.
(2). لجرير يصف نوقا بالهزال. يقال : فرس ممشوق ، أى : طويل مهزول. وجارية ممشوقة : رقيقة القوام.
والهاجرة : شدة الحر. والسرى - بالضم - : سير الليل. والكلكل والكلكال : الصدر ، وعطف الصدور على الكلاكل للتفسير ، أى : صرن من شدة الحر والسير كأنهم عظام فقط لا لحم عليهن.
(3). لما أصابه الحزن بعد ذهاب الأحباب وتمكن من نفسه ، تخيل أنها تتناثر وتنزل من جسمه حال كونها حسرات متتابعة ، وجعل النفس حسرات لامتزاجها بها ، فكأنها هي. أو تتساقط بعدهم لأجل الحسرات والأحزان وهو أوجه. وذكرهم : أى تذكرهم سقام لي ، وهو بالفتح مصدر كالسقم.

[سورة فاطر (35) : آية 9]

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذلِكَ النُّشُورُ (9)

وقرئ : أرسل الريح. فإن قلت : لم جاء فَتُثِيرُ على المضارعة دون ما قبله ، وما بعده؟ قلت : ليحكى الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب ، وتستحضر تلك الصور البديعة الدالة على القدرة الربانية ، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية ، بحال تستغرب ، أوتهمّ المخاطب ، أو غير ذلك ، كما قال تأبط شرا : بأنىّ قد لقيت الغول تهوى بسهب كالصّحيفة صحصحان فأضربها بلا دهش فخرّت صريعا لليدين وللجران «1»

لأنه قصد أن يصوّر لقومه الحالة التي تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول ، كأنه يبصرهم إياها ويطلعهم على كنهها ، مشاهدة للتعجيب من جرأته على كل هول ، وثباته عند كل شدّة. وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت ، وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها : لما كانا من الدلائل على القدرة الباهرة قيل : فسقنا ، وأحيينا ، معدولا بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدلّ عليه. والكاف في كَذلِكَ في محلّ الرفع ، أى : مثل إحياء

فقال «هل مررت بوادي أهلك محلا ثم مررت به يهزّ «2» خضرا» قال : نعم. قال : «فكذلك يحيى الله الموتى وتلك آيته في خلقه «1» وقيل يحيى الله الخلق» بماء يرسله من تحت العرش كمنى الرجال ، تنبت منه أجساد الخلق.

(1) فمن ينكر وجود الغول إنى أخبر عن يقين بل عيان
بأنى لقد لقيت الغول تهوى بسهب كالصحيفة صحصحان
فأضربها بلا دهش فخرت صريعا لليدين وللجران
لتأبط شرا. والغول : أنثى الشياطين. والعيان : المشاهدة بالعين. والهوى : الهبوط. والمراد : سرعة العدو. والسهب - بالفتح - : الفضاء المستوى البعيد الأطراف. والصحيفة : الكتاب. والصحصحان والصعصعان - بالفتح - : المستوى من الأرض. والجران - ككتاب - : مقدم عظم العنق من الحلق إلى اللبة ، وجمعه جرنة ككتبة ، وأجرنة كأفئدة. يقول : فمن ينكر وجود الغول فقد كذب ، فإنى أخبر عن يقين. ويجوز أن المعنى : فيا من تنكر وجود الغول ، إنى أخبر إخبارا ناشئا عن يقين ، وهو ما كان بدليل قاطع بل عيان ومشاهدة بالعين ، بأنى قد لقيتها تسرع في مكان متسع مستو ، وكرر الوصف بذلك توكيدا ، وأظهر موضع الإضمار لزيادة تمكين الغول في ذهن السامع وللتهويل ، وكان الظاهر أن يقول : فضربتها ، لكن عدل إلى المضارع ليحكى الحال الماضية كأنها موجودة الآن مشاهدة فيتعجب منها ، وتعلم شجاعته ، أى : فجعلت أضربها بلا خوف فسقطت مطروحة على يديها وعنقها. وفعيل : يوصف به المذكر والمؤنث كما هنا.
(2). قوله «ثم مررت به يهز خضرا» في الخازن : «يهتز». (ع)

[سورة فاطر (35) : آية 10]

مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ (10)

كان الكافرون يتعززون بالأصنام ، كما قال عز وجل وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا والذين آمنوا بألسنتهم من غير مواطأة قلوبهم : كانوا يتعززون بالمشركين ، كما قال تعالى الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً فبين أن لا عزة إلا لله ولأوليائه. وقال وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمعنى فليطلبها عند الله ، فوضع قوله فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً موضعه ، استغناء به عنه لدلالته عليه ، لأن الشيء لا يطلب إلا عند صاحبه ومالكه. ونظيره قولك : من أراد النصيحة فهي عند الأبرار ، تريد : فليطلبها عندهم ، إلا أنك أقمت ما يدل عليه مقامه. ومعنى فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً أنّ العزة كلها مختصة بالله : عزة الدنيا وعزة الآخرة. ثم عرف أن ما تطلب به العزة هو الإيمان والعمل الصالح بقوله إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ والكلم الطيب : لا إله إلا الله. عن ابن عباس رضى الله عنهما : يعنى أنّ هذه الكلم لا تقبل. ولا تصعد إلى السماء فتكتب حيث تكتب الأعمال المقبولة ، كما قال عز وجل إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ إلا إذا اقترن بها العمل الصالح الذي يحققها ويصدقها فرفعها وأصعدها. وقيل : الرافع الكلم ، والمرفوع العمل ، لأنه لا يقبل عمل إلا من موحد. وقيل : الرافع هو الله تعالى ، والمرفوع العمل. وقيل : الكلم الطيب : كل ذكر من تكبير وتسبيح وتهليل وقراءة قرآن ودعاء واستغفار وغير ذلك. وعن النبي صلى الله عليه وسلم : «هو قول الرجل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر إذا قالها العبد عرج بها الملك إلى السماء فحيا بها وجه الرحمن فإذا لم يكن عمل صالح لم يقبل «2» منه»

(1). أخرجه أحمد وإسحاق وابن أبى شيبة والحاكم والبيهقي في البعث كلهم من طريق حماد بن سلمة عن يعلى ابن عطاء عن وكيع بن عدى عن عمه أبى رزين العقيلي أنه قال «يا رسول الله أكلنا يرى ربه يوم القيامة. وما آية ذلك في خلقه؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أليس كلكم ينظر إلى القمر مختليا به؟ قالوا بلى. قال : فالله أعظم. قال : قلت : يا رسول الله ، كيف يحيى الله الموتى. وما آية ذلك في خلقه؟ قال : أما مررت بوادي أهلك ممحلا؟ قال : بلى. قال ثم مررت به يهتز خضرا؟ قال : قلت : بلى. قال : فكذلك يحيى الله الموتى. وذلك آية في خلقه» وأوله في سنن أبى داود وابن ماجة دون مقصود الكتاب. [.....]
(2). أخرجه الثعلبي وابن مردويه من رواية على بن عاصم عن سهيل عن أبيه عن أبى هريرة مرفوعا ، ورواه الحاكم والبيهقي في الأسماء والطبري مرفوعا عن ابن مسعود رضى الله عنه.

وفي الحديث «لا يقبل الله قولا إلا بعمل ، ولا يقبل قولا ولا عملا إلا بنية ، ولا يقبل قولا وعملا ونية إلا بإصابة السنة «1»» وعن ابن المقفع : قول بلا عمل كثريد بلا دسم ، وسحاب بلا مطر ، وقوس بلا وتر.

وقرئ : إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ على البناء للمفعول. وإِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ على تسمية الفاعل ، من أصعد. والمصعد : هو الرجل أى يصعد إلى الله عز وجل الكلم الطيب ، وإليه يصعد الكلام الطيب. وقرئ : وَالْعَمَلُ

قلت : هذه صفة للمصدر ، أو لما في حكمه ، كقوله تعالى وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ أصله والذين مكروا المكرات السيئات. أو أصناف المكر السيئات ، وعنى بهن مكرات قريش حين اجتمعوا في دار الندوة وتداوروا الرأى في إحدى ثلاث مكرات يمكرونها برسول الله صلى الله عليه وسلم : إما إثباته ، أو قتله ، أو إخراجه كما حكى الله سبحانه عنهم وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ. وَمَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ يعنى : ومكر أولئك الذين مكروا تلك المكرات الثلاث هو خاصة يبور ، أى : يكسد ويفسد ، دون مكر الله بهم حين أخرجهم من مكة وقتلهم وأثبتهم في قليب بدر ، فجمع عليهم مكراتهم جميعا وحقق فيهم قوله وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ وقوله. ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله.

[سورة فاطر (35) : آية 11]

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (11)

أَزْواجاً أصنافا ، أو ذكرانا وإناثا ، كقوله تعالى أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً وعن قتادة رضى الله عنه : زوج بعضهم بعضا بِعِلْمِهِ في موضع الحال ، أى : إلا معلومة له.

فإن قلت : ما معنى قوله. وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ؟ قلت : معناه وما يعمر من أحد. وإنما سماه معمرا بما هو صائر إليه. فإن قلت : الإنسان إما معمر ، أى طويل العمر : أو منقوص العمر ، أى قصيره. فأما أن يتعاقب عليه التعمير وخلافه فمحال ، فكيف صح قوله وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ

(1). أخرجه الخطيب في الجامع من رواية بقية بن إسماعيل بن عبد الله عن أبان عن أنس بهذا مرفوعا. وأبان متروك. وله طريق أخرى عن أبى هريرة مرفوعا أخرجه ابن عدى وابن حبان ، كلاهما في الضعفاء عن خالد بن عبد الدائم عن نافع بن يزيد عن زهرة بن معبد عن سعيد بن المسيب عنه ، بلفظ «قرآن في صلاة خير من قرآن في غير صلاة - الحديث. وفيه : ولا قول إلا بعمل إلى آخره. ورواه ابن حبان أيضا من رواية الزهري عن سعيد بن المسيب عن ابن مسعود. وفيه أحمد بن الحسن المصري. وهو كذاب.

قلت : هذا من الكلام المتسامح فيه ، ثقة في تأويله بأفهام السامعين ، واتكالا على تسديدهم معناه بعقولهم ، وأنه لا يلتبس عليهم إحالة الطول والقصر في عمر واحد. وعليه كلام الناس المستفيض. يقولون : لا يثيب الله عبدا ولا يعاقبه إلا بحق.

وما تنعمت بلدا ولا اجتويته إلا قل فيه ثوائى «1». وفيه تأويل آخر : هو أنه لا يطول عمر إنسان ولا يقصر إلا في كتاب ، وصورته : أن يكتب في اللوح : إن حج فلان أو غزا فعمره أربعون سنة ، وإن حج وغزا فعمره ستون سنة ، فإذا جمع بينهما فبلغ الستين فقد عمر. وإذا أفرد أحدهما فلم يتجاوز به الأربعون ، فقد نقص من عمره الذي هو الغاية وهو الستون. وإليه أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله «إن الصدقة والصلة تعمران الديار وتزيدان في الأعمار «2»» وعن كعب أنه قال حين طعن عمر رضى الله عنه : لو أن عمر دعا الله لأخر في أجله ، «3» فقيل لكعب : أليس قد قال الله إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ قال : فقد قال الله وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وقد استفاض على الألسنة : أطال الله بقاءك ، وفسخ في مدتك وما أشبهه. وعن سعيد بن جبير رضى الله عنه : يكتب في الصحيفة عمره كذا وكذا سنة ، ثم يكتب في أسفل ذلك : ذهب يوم ، ذهب يومان ، حتى يأتى على آخره. وعن قتادة رضى الله عنه : المعمر من بلغ ستين سنة ، والمنقوص من عمره من يموت قبل ستين سنة ، والكتاب : اللوح. عن ابن عباس رضى الله عنهما : ويجوز أن يراد بكتاب الله: علم الله ، أو صحيفة الإنسان.

وقرئ : ولا ينقص ، على تسمية الفاعل من عمره بالتخفيف.

[سورة فاطر (35) : آية 12]

وَما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَواخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12)

ضرب البحرين : العذب والمالح مثلين للمؤمن والكافر ، ثم قال على سبيل الاستطراد في صفة البحرين وما علق بهما من نعمته وعطائه وَمِنْ كُلٍّ أى : ومن كل واحد منهما تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وهو السمك وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً وهي اللؤلؤ والمرجان وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ في كل مَواخِرَ شواق للماء بجريها ،

(1). قوله «و لا اجتويته إلا قل فيه ثوائي» أى : كرهت المقام به ، كذا في الصحاح. (ع)
(2). أخرجه أحمد من طريق القاسم عن عائشة ، لكن قال «و حسن الخلق» بدل «الصدقة» ورواه البيهقي في الشعب من هذا الوجه كذلك ، وزاد وحسن الجوار» وله طريق أخرى عند الأصبهانى عن أبى سعيد بلفظ «صلة الرحم وحسن الخلق وبر الوالدين» وزاد «و إن كان القوم فجارا»
(3). أخرجه إسحاق في آخر مسند ابن عباس رضى الله عنهما ، أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن سعيد.

يقال : مخرت السفينة الماء. ويقال للسحاب : بنات مخر ، لأنها تمخر الهواء والسفن الذي اشتقت منه السفينة قريب من المخر ، لأنها تسفن الماء كأنها تقشره كما تمخره مِنْ فَضْلِهِ من فضل الله ، ولم يجر له ذكر في الآية، ولكن فيما قبلها ، ولو لم يجر لم يشكل ، لدلالة المعنى عليه. وحرف الرجاء مستعار لمعنى الإرادة ، ألا ترى كيف سلك به مسلك لام التعليل ، كأنما قيل : لتبتغوا ، ولتشكروا. والفرات : الذي يكسر العطش. والسائغ : المريء السهل الانحدار لعذوبته. وقرئ : سيغ ، بوزن سيد : وسيغ بالتخفيف. وملح : على فعل.

والأجاج : الذي يحرق بملوحته. ويحتمل غير طريقة الاستطراد : وهو أن يشبه الجنسين بالبحرين ، ثم يفضل البحر الأجاج على الكافر ، بأنه قد شارك العذب في منافع من السمك واللؤلؤ : وجرى الفلك فيه والكافر خلو من النفع ، فهو في طريقة قوله تعالى ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ثم قال وَإِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ.

[سورة فاطر (35) : آية 13]

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (13)

ذلِكُمُ مبتدأ. واللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ أخبار مترادفة. أو اللَّهُ رَبُّكُمْ خبران. وله الملك : جملة مبتدأة واقعة في قران قوله وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ويجوز في حكم الإعراب إيقاع اسم الله صفة لاسم الإشارة. أو عطف بيان. وربكم خبرا.

لو لا أن المعنى يأباه. والقطمير : لفافة النواة ، وهي القشرة الرقيقة الملتفة عليها.

[سورة فاطر (35) : آية 14]

إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ(14)

إن تدعوا الأوثان لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ لأنهم جماد وَلَوْ سَمِعُوا على سبيل الفرض والتمثيل ل مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ لأنهم لا يدعون ما تدعون لهم من الإلهية ، ويتبرءون منها.

وقيل : ما نفعوكم يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ «1» وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ولا يخبرك بالأمر مخبر هو مثل خبير عالم به.

(1). قوله «يكفرون بشركلكم» كأن تفسيره قد سقط ، وفي النسفي : يكفرون بشركلكم : باشراككم لهم وعبادتكم إياهم ، ويقولون : ما كنتم إيانا تعبدون ، ولا ينبئك ... الخ. (ع)

ويريد : أن الخبير بالأمر وحده ، هو الذي يخبرك بالحقيقة دون سائر المخبرين به. والمعنى : أنّ هذا الذي أخبرتكم به من حال الأوثان هو الحق ، لأنى خبير بما أخبرت به.

وقرئ : يدعون ، بالياء والتاء.

[سورة فاطر (35) : الآيات 15 إلى 17]

يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (15) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (16) وَما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (17)

فإن قلت : لم عرف الفقراء؟ قلت : قصد بذلك أن يريهم أنهم لشدة افتقارهم إليه هم جنس الفقراء ، وإن كانت الخلائق كلهم مفتقرين إليه من الناس وغيرهم ، لأن الفقر مما يتبع الضعف ، وكلما كان الفقير أضعف كان أفقر وقد شهد اللّه سبحانه على الإنسان بالضعف في قوله وَخُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً وقال سبحانه وتعالى اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ولو نكر لكان المعنى أنتم بعض الفقراء. فإن قلت : قد قوبل الفقراء بالغنى ، فما فائدة الحميد؟ قلت : لما أثبت فقرهم إليه وغناه عنهم - وليس كل غنى نافعا بغناه إلا إذا كان الغنىّ جوادا منعما ، فإذا جاد وأنعم حمده المنعم عليهم واستحق عليهم الحمد - ذكر الحميد ليدل به على أنه الغنى النافع بغناه خلقه ، الجواد المنعم عليهم المستحق بإنعامه عليهم أن يحمدوه ، الحميد على ألسنة مؤمنيهم بِعَزِيزٍ بممتنع ، وهذا غضب عليهم لاتخاذهم له أندادا ، وكفرهم بآياته ومعاصيهم ، كما قال وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : يخلق بعدكم من يعبده لا يشرك به شيئا.

[سورة فاطر (35) : آية 18]

وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (18)

الوزر والوقر : أخوان ، ووزر الشيء إذا حمله. والوازرة : صفة للنفس ، والمعنى : أن كل نفس يوم القيامة لا تحمل إلا وزرها الذي اقترفته : لا تؤخذ نفس بذنب نفس ، كما تأخذ جبابرة الدنيا : الولي بالولى ، والجار بالجار. فإن قلت : هلا قيل : ولا تزر نفس وزر أخرى؟

ولم قيل وازرة؟ قلت : لأن المعنى أن النفوس الوازرات لا ترى منهن واحدة إلا حاملة وزرها ، لا وزر غيرها. فإن قلت : كيف توفق بين هذا وبين قوله وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ؟ قلت : تلك الآية في الضالين المضلين ، وأنهم يحملون أثقال إضلال الناس مع أثقال ضلالهم ، وذلك كله أوزارهم ما فيها شيء من وزر غيرهم. ألا ترى كيف كذبهم اللّه تعالى في قولهم اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ بقوله تعالى وَما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْ ءٍ.

فإن قلت : ما الفرق بين معنى قوله وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وبين معنى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْ ءٌ؟ قلت : الأول في الدلالة على عدل اللّه تعالى في حكمه ، وأنه تعالى لا يؤاخذ نفسا بغير ذنبها ، والثاني في أن لا غياث يومئذ لمن استغاث ، حتى أن نفسا قد أثقلها الأوزار وبهظتها ، لو دعت إلى أن يخفف بعض وقرها لم تجب ولم تغث ، وإن كان المدعو بعض قرابتها من أب أو ولد أو أخ. فإن قلت : إلام أسند كان في وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى ؟

قلت : إلى المدعو المفهوم من قوله وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ. فإن قلت : فلم ترك ذكر المدعو؟ قلت : ليعمّ ، ويشمل كل مدعوّ. فإن قلت : كيف استقام إضمار العام؟ ولا يصح أن يكون العام ذا قربى للمثقلة؟ قلت : هو من العموم الكائن على طريق البدل. فإن قلت : ما تقول فيمن قرأ وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى على كان التامّة ، كقوله تعالى وَإِنْ كانَ ذُو عُسْرَةٍ؟ قلت : نظم الكلام أحسن ملاءمة للناقصة ، لأنّ المعنى على أن المثقلة إن دعت أحدا إلى حملها لا يحمل منه شيء ، وإن كان مدعوّها ذا قربى ، وهو معنى صحيح ملتئم ، ولو قلت : ولو وجد ذو قربى ، لتفكك وخرج من اتساقه والتئامه «1» ، على أنّ هاهنا ما ساغ أن يستتر له ضمير في الفعل بخلاف ما أوردته بِالْغَيْبِ حال من الفاعل أو المفعول ، أى : يخشون ربهم غائبين عن عذابه أو يخشون عذابه غائبا عنهم. وقيل : بالغيب في السر ، وهذه صفة الذين كانوا مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من أصحابه ، فكانت عادتهم المستمرّة أن يخشوا اللّه ، وهم الذين أقاموا الصلاة وتركوها منارا منصوبا وعلما مرفوعا ، يعنى : إنما تقدر على إنذار هؤلاء وتحذيرهم من قومك ، وعلى تحصيل منفعة الإنذار فيهم دون متمرّديهم وأهل عنادهم وَمَنْ تَزَكَّى ومن تطهر بفعل الطاعات وترك المعاصي. وقرئ : ومن ازكى فإنما يزكى ، وهو اعتراض مؤكد لخشيتهم وإقامتهم الصلاة ، لأنهما من جملة التزكى وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ وعد للمتزكين بالثواب. فإن قلت : كيف اتصل قوله إِنَّما تُنْذِرُ بما قبله؟ قلت : لما غضب عليهم في قوله إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أتبعه الإنذار بيوم القيامة وذكر

[سورة فاطر (35) : الآيات 19 إلى 23]

وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ (19) وَلا الظُّلُماتُ وَلا النُّورُ (20) وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (21) وَما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَلا الْأَمْواتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (22) إِنْ أَنْتَ إِلاَّ نَذِيرٌ (23)

---

(1). قوله «و خرج من اتساقه والتئامه» أى : انتظامه. (ع)

الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ مثل للكافر والمؤمن ، كما ضرب البحرين مثلا لهما أو للصنم والله عزّ وجلّ ، والظلمات والنور والظلّ والحرور : مثلان للحق والباطل ، وما يؤدّيان إليه من الثواب والعقاب. والأحياء والأموات : مثل للذين دخلوا في الإسلام والذين لم يدخلوا فيه ، وأصروا على الكفر والحرور : السموم ، إلا أنّ السموم يكون بالنهار ، والحرور بالليل والنهار. وقيل : بالليل خاصة. فإن قلت : لا المقرونة بواو العطف ما هي؟ قلت : إذا وقعت الواو في النفي قرنت بها لتأكيد معنى النفي. فإن قلت : هل من فرق بين هذه الواوات؟ قلت : بعضها ضمت شفعا إلى شفع ، وبعضها وترا إلى وتر إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ يعنى أنه قد علم من يدخل في الإسلام ممن لا يدخل فيه ، فيهدى الذي قد علم أنّ الهداية تنفع فيه ، ويخذل من علم أنها لا تنفع فيه. وأمّا أنت فخفى عليك أمرهم ، فلذلك تحرص وتتهالك على إسلام قوم من المخذولين. ومثلك في ذلك مثل من لا يريد أن يسمع المقبورين وينذر ، وذلك ما لا سبيل إليه ، ثم قال إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ أى ما عليك إلا أن تبلغ وتنذر ، فإن كان المنذر ممن يسمع الإنذار نفع ، وإن كان من المصرين فلا عليك. ويحتمل أنّ الله يسمع من يشاء وأنه قادر على أن يهدى المطبوع على قلوبهم على وجه القسر والإلجاء ، وغيرهم على وجه الهداية والتوفيق ، وأما أنت فلا حيلة لك في المطبوع على قلوبهم الذين هم بمنزلة الموتى.

[سورة فاطر (35) : آية 24]

إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيها نَذِيرٌ (24)

بِالْحَقِّ حال من أحد الضميرين ، يعنى : محقا أو محقين ، أو صفة للمصدر ، أى : إرسالا مصحوبا بالحق. أو صلة لبشير ونذير على : بشيرا بالوعد الحق ، ونذيرا بالوعيد الحق. والأمّة الجماعة الكثيرة. قال الله تعالى : وجد عليه أمّة من الناس ، ويقال لأهل كل عصر : أمّة ، وفي حدود المتكلمين : الأمّة هم المصدقون بالرسول صلى الله عليه وسلم دون المبعوث إليهم ، وهم الذين يعتبر إجماعهم ، والمراد هاهنا : أهل العصر. فإن قلت : كم من أمّة في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ولم يخل فيها نذير؟ قلت : إذا كانت آثار النذارة باقية لم تخل من نذير إلى أن تندرس ، وحين اندرست آثار نذارة عيسى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم. فإن قلت : كيف اكتفى بذكر النذير عن البشير في آخر الآية بعد ذكرهما؟ قلت لما كانت النذارة مشفوعة بالبشارة لا محالة ، دلّ ذكرها على ذكرها ، لا سيما قد اشتملت الآية على ذكرهما.

[سورة فاطر (35) : الآيات 25 إلى 26]

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتابِ الْمُنِيرِ (25) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (26)

بِالْبَيِّناتِ بالشواهد على صحة النبوّة وهي المعجزات وَبِالزُّبُرِ وبالصحف وَبِالْكِتابِ الْمُنِيرِ نحو التوراة والإنجيل والزبور. لما كانت هذه الأشياء في جنسهم أسند المجيء بها إليهم إسنادا مطلقا ، وإن كان بعضها في جميعهم : وهي البينات ، وبعضها في بعضهم : وهي الزبر والكتاب. وفيه مسلاة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

[سورة فاطر (35) : الآيات 27 إلى 28]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَغَرابِيبُ سُودٌ (27) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ كَذلِكَ إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (28)

أَلْوانُها أجناسها من الرّمان والتفاح والتين والعنب وغيرها مما لا يحصر أو هيئاتها من الحمرة والصفرة والخضرة ونحوها. والجدد : الخطط والطرائق. قال لبيد : أو مذهب جدد على ألواحه.

ويقال : جدة الحمار للخطة السوداء على ظهره ، وقد يكون للظبي جدتان مسكيتان تفصلان بين لوني ظهره وبطنه وَغَرابِيبُ معطوف على بيض أو على جدد ، كأنه قيل : ومن الجبال مخطط ذو جدد ، ومنها ما هو على لون واحد غرابيب «1». وعن عكرمة رضى اللّه عنه : هي الجبال الطوال السود. فإن قلت : الغربيب تأكيد للأسود. يقال : أسود غربيب ، وأسود حلكوك : وهو الذي أبعد في السواد وأغرب فيه. ومنه الغراب. ومن حق التأكيد أن يتبع المؤكد كقولك : أصفر فاقع ، وأبيض يقق «2» وما أشبه ذلك. قلت : وجهه أن يضمر المؤكد قبله ويكون الذي بعده تفسيرا لما أضمر ، كقول النابغة : والمؤمن العائذات الطّير «3» ...

(1). قوله «ما هو على لون واحد غرابيب» لعله. غربيب. (ع)
(2). قوله «و أبيض يقق» بفتح القاف الأولى ، وحكى كسرها. أفاده الصحاح. (ع)
(3) فلا لعمر الذي طيفت بكعبته وما هريق على الأنصاب من جسد
والمؤمن العائذات الطير يرقبها ركبان مكة بين الغيل والسند
ما إن أتيت بشيء أنت تكرهه إذا فلا رفعت سوطى إلى يدي
للنابغة ، يعتذر للنعمان بن المنذر ، ولا زائدة قبل القسم ، لأنه في الغالب لنفى دعوى الخصم. والعمر : الحياة ، وهو مبتدأ حذف خبره وجوبا ، وطاف به يطيف طيفا. أتى عليه ونزل به ، وطاف به يطوف طوافا وطوفانا ، إذا دار حوله ومنه : طيفت ، وهو مبنى للمجهول ، ونائب الفاعل : الجار والمجرور ، ولما كان مؤنثا لحقت التاء الفعل شذوذا ، والفصيح تركها في مثله. والغيل والسند : أجمتان بجانب منى. وقيل : موضعا ماء بجانبي الحرم ، وهو قريب مما قبله. أى : حياة الذي طاف الحجيج بكعبته قسمي ، وما هريق، والمؤمن : بالرفع عطف على المبتدأ والعائذات منصوب بالمؤمن ، والطير : عطف بيان للعائذات ، ويجوز جعله بدلا منه ، وكذا كل موصوف تبع صفته ، وهريق : أصله أريق. والجسد : البدن ، وجسد به الدم ، إذا لصق به ، فهو جاسد وجسد. فعلى الأول «أريق» بمعنى ذبح ، وعلى الثاني على ظاهره ، لكنه كناية عن الذبح ، أى وما ذبح على الحجارة المنصوبة حول الكعبة من الهدى ، والذي آمن الطير العائذات اللائذات بالحرم ، حال كونها بنظرها الحجاج في منى ولا يؤذونها لاحرامهم. وروى : يمسحها وهو أبلغ في الأمن ، وما أتيت جواب القسم ، وإن زائدة. ويجوز أنها نافية مؤكدة ثم دعا على نفسه فقال : إذا كان ذلك منى فلا رفعت سوطى إلى يدي : بيان يدي ، كناية عن أنه يضعف غاية الضعف ، وروى «سوطا» ، بدل «سوطى» أى يضعف حتى لا يقدر على رفعه.

وإنما يفعل ذلك لزيادة التوكيد ، حيث يدل على المعنى الواحد من طريقى الإظهار والإضمار جميعا ، ولا بد من تقدير حذف المضاف في قوله تعالى وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بمعنى : ومن الجبال ذو جدد بيض وحمر وسود ، حتى يؤول إلى قولك : ومن الجبال مختلف ألوانه كما قال : ثمرات مختلفا ألوانها وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ يعنى : ومنهم بعض مختلف ألوانه. وقرئ : ألوانها. وقرأ الزهري جدد ، بالضم : جمع جديدة ، وهي الجدّة ، يقال : جديدة وجدد وجدائد ، كسفينة وسفن وسفائن. وقد فسر بها قول أبى ذؤيب يصف حمار وحش.

جون السّراة له جدائد اربع «1»

وروى عنه : جدد ، بفتحتين ، وهو الطريق الواضح المسفر وضعه موضع الطرائق والخطوط الواضحة المنفصل بعضها من بعض. وقرئ ، والدواب مخففا ونظير هذا التخفيف قراءة من قرأ «و لا الضألين» لأنّ كل واحد منهما فرار من التقاء الساكنين ، فحرك ذاك أوّ لهما ، وحذف هذا آخرهما. وقوله كَذلِكَ أى كاختلاف الثمرات والجبال. المراد : العلماء به الذين علموه بصفاته وعدله وتوحيده ، وما يجوز عليه وما لا يجوز ، فعظموه وقدروه حق قدره ، وخشوه حق خشيته ، ومن ازداد به علما ازداد منه خوفا ، ومن كان علمه به أقل كان آمن. وفي الحديث :

(1) والدهر لا يبقى على حدثانه جون السراة له جدائد أربع
لأبى ذؤيب في مرثية بنيه. والجون : الأسود ويطلق على الأبيض ، فهو من الأضداد. وسراة الظهر : أعلاه.
وسراة كل شيء : أعلاه. وجديدة وجدد وجدائد ، كسفينة وسفن وسفائن. والجدائد : الأتن التي جف لبنها.
والمرأة الجداء : التي لا ثدي لها : يسلى عن بنيه بأن لك عادة الدهر ، فهو لا يبقى مع ما فيه من الحدثان أحدا ، حتى أسود الظهر كناية عن حمار الوحش له أتن أربع يرعى معهن في البراري وينزو عليهن. وقيل : إنه يعيش مائتي سنة فربما يتوهم أنه لا يصيبه الدهر بشيء. ويجوز قراءة «يبقى» بالفتح. وجون بالرفع فاعل ، وله جدائد : جملة حالية أى : لا بد أن تهلك أتنه واحدة بعد واحدة ، أو يهلك هو.

«أعلمكم باللّه أشدّكم له خشية» «1» وعن مسروق : كفى بالمرء علما أن يخشى ، وكفى بالمرء جهلا أن يعجب بعلمه. وقال رجل للشعبى : أفتنى أيها العالم ، فقال : العالم من خشي اللّه. وقيل : نزلت في أبى بكر الصديق رضى اللّه عنه وقد ظهرت عليه الخشية حتى عرفت فيه. فإن قلت : هل يختلف المعنى إذا قدّم المفعول في هذا الكلام أو أخر؟ قلت : لا بدّ من ذلك ، فإنك إذا قدمت اسم اللّه وأخرت العلماء كان المعنى : إنّ الذين

[سورة فاطر (35) : الآيات 29 إلى 30]

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللَّهِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ (29) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (30)

يَتْلُونَ كِتابَ اللَّهِ يداومون على تلاوته وهي شأنهم وديدنهم. وعن مطرف رحمه الله : هي آية القرّاء. وعن الكلبي رحمه الله : يأخذون بما فيه. وقيل : يعلمون ما فيه ويعملون به.

وعن السدى رحمه الله : هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم. وعن عطاء : هم المؤمنون يَرْجُونَ خبر إن ، والتجارة : طلب الثواب بالطاعة. ولِيُوَفِّيَهُمْ متعلق بلن تبور ، أى : تجارة ينتفي عنها الكساد وتنفق «3» عند الله ليوفيهم بنفاقها عنده أُجُورَهُمْ

(1). لم أجده هكذا. وفي الصحيح : «أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية».
(2). أخرجه عبد الرزاق عن ابن جريج عن زيد بن أسلم. ومالك في الموطأ والشافعي عنه عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار به مرسلا في أثناء حديث أوله «أن رجلا قبل امرأته وهو صائم»
(3). قوله «و تنفق عند الله» أى تروج. أفاده الصحاح. (ع) [.....]

وهي ما استحقوه من الثواب وَيَزِيدَهُمْ من التفضل على المستحق ، وإن شئت جعلت يَرْجُونَ في موضع الحال على : وأنفقوا راجين ليوفيهم ، أى فعلوا جميع ذلك من التلاوة وإقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله لهذا الغرض ، وخبر إن قوله إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ على معنى : غفور لهم شكور لأعمالهم. والشكر مجاز عن الإثابة.

[سورة فاطر (35) : آية 31]

وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (31)

الْكِتابِ القرآن. ومن للتبيين أو الجنس. ومن للتبعيض مُصَدِّقاً حال مؤكدة ، لأنّ الحق لا ينفك عن هذا التصديق لِما بَيْنَ يَدَيْهِ لما تقدّمه من الكتب لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ يعنى أنه خبرك وأبصر أحوالك ، فرآك أهلا لأن يوحى إليك مثل هذا الكتاب المعجز الذي هو عيار على سائر الكتب.

[سورة فاطر (35) : الآيات 32 إلى 35]

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (32) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ (33) وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (34) الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ (35)

فإن قلت : ما معنى قوله ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : إنا أوحينا إليك القرآن ثم أورثنا من بعدك أى حكمنا بتوريثه. أو قال : أورثناه وهو يريد نورثه ، لما عليه أخبار الله الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا وهم أمّته من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم إلى يوم القيامة ، لأن الله اصطفاهم على سائر الأمم ، وجعلهم أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس ، واختصهم بكرامة الانتماء إلى أفضل رسل الله ، وحمل الكتاب الذي هو

(1). قال محمود : «يعنى بالمصطفين أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، ثم قسمتهم الآية إلى ظالم لنفسه : هو المرجأ لأمر اللّه ، وإلى مقتصد : وهو الذي خلط عملا صالحا وآخر سيئا ، وإلى سابق ، ثم قال لزمخشرى : فان قلت :
كيف جعل الجنات بدلا من الفضل الكبير ، وذلك في تتمة الآية في قوله وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها قلت : لأن الاشارة بالفضل إلى السبق بالخيرات وهو السبب في الجنات ونيل الثواب ، فأقام السبب مقام المسبب ، وفي اختصاص السابقين بذكر الجزاء دون الآخرين ما يوجب الحذر فليحذر المقتصد ، وليملك الظالم لنفسه حذرا ، وعليهما بالتوبة النصوح ، ولا يغترا بما رواه عمر رضى اللّه عنه عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له» فان شرط ذلك صحة التوبة فلا يعلل نفسه بالخدع» قال أحمد : وقد صدرت هذه الآية بذكر المصطفين من عباد اللّه ، ثم قسمتهم إلى الظالم والمقتصد والسابق ليلزم اندراج الظالم لنفسه من الموحدين في المصطفين ، وإنه لمنهم ، وأى نعمة أتم وأعظم من اصطفائه للتوحيد والعقائد السالمة من البدع ، فما بال المصنف يطنب في التسوية بين الموحد المصطفى والكافر المجترئ ، وقوله جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها الضمير فيه راجع إلى المصطفين عموما ، والجنات جزاؤهم على توحيدهم جميعا ، وإعرابها : جنات مبتدأ ، ويدخلونها الخبر ، وقوله يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ ... إلى آخر الآية : خبر بعد خبر ، وخبر على خبر ، واللّه المستعان.
(2). أخرجه البيهقي في الشعب من رواية ميمون بن سياه عن عمر رضى اللّه عنه مرفوعا. وهذا منقطع وأخرجه الثعلبي وابن مردويه من وجه آخر عن ميمون بن سياه عن أبى عثمان الهدى عن عمر. فيه الفضل بن عميرة : وهو ضعيف. ورواه سعيد بن منصور عن فرج بن فضالة عن أزهر بن عبد اللّه الحرازى عمن سمع عمر فذكره موقوفا
(3). قوله «فإن شرط ذلك صحة التوبة» هذا عند المعتزلة. أما أهل السنة فيجوزون الغفران بمجرد الفضل. (ع)

وجنات عدن : بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر ، أى يدخلون جنات عدن يدخلونها ، ويدخلونها ، على البناء للمفعول. ويحلون : من حليت : المرأة ، فهي حال وَلُؤْلُؤاً معطوف على محل من أساور ، ومن داخلة للتبعيض ، أى : يحلون بعض أساور من ذهب ، كأنه بعض سابق لسائر الأبعاض ، كما سبق المسوّرون به غيرهم : وقيل : إنّ ذلك الذهب في صفاء اللؤلؤ. وقرئ : ولو لؤلؤا بتخفيف الهمزة الاولى ، وقرى : الحزن ، والمراد : حزن المتقين ، وهو ما أهمهم من خوف سوء العاقبة ، كقوله تعالى إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ فمنّ اللّه علينا ووقانا عذاب السموم. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : حزن الأعراض والآفات. وعنه : حزن الموت.

وعن الضحاك : حزن إبليس ووسوسته. وقيل : همّ المعاش. وقيل : حزن زوال النعم ، وقد أكثروا حتى قال بعضهم : كراء الدار ، ومعناه : أنه يعم كل حزن من أحزان الدين والدنيا حتى هذا. وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «ليس على أهل لا إله إلا اللّه وحشة في قبورهم ولا في محشرهم ولا في مسيرهم ، وكأنى بأهل لا إله إلا اللّه يخرجون من قبورهم وهم ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون الحمد للّه الذي أذهب عنا الحزن«1»» وذكر الشكور : دليل على أن القوم كثير والحسنات ، المقامة : بمعنى الإقامة ، يقال : أقمت إقامة ومقاما ومقامة مِنْ فَضْلِهِ من عطائه وإفضاله ، من قولهم : لفلان فضول على قومه وفواضل ، وليس من الفضل الذي هو التفضل ، لأن الثواب بمنزلة الأجر المستحق ، والتفضل كالتبرع. وقرئ : لغوب ، بالفتح : وهو اسم ما يلغب منه ، أى : لا نتكلف عملا يلغبنا : أو مصدر كالقبول والولوغ ، أو صفة للمصدر ، كأنه «2» لغوب لغوب ، كقولك : موت مائت ، فإن قلت : ما الفرق بين النصب واللغوب؟ قلت : النصب التعب والمشقة التي تصيب المنتصب للأمر المزاول له. وأما اللغوب فما يلحقه من الفتور بسبب النصب ، فالنصب : نفس المشقة والكلفة. واللغوب : نتيجته وما يحدث منه من الكلال والفترة.

[سورة فاطر (35) : الآيات 35 إلى 37]

الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ (35) وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها كَذلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (36) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (37)

(1). أخرجه أبو يعلى وابن أبى حاتم والبيهقي في أول الشعب والطبراني في الأوسط من حديث ابن عمر. وفيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف وله طريق أخرى عند الطبراني والنسائي في الكنى عن ابن عمر. وأخرى عند البيهقي في الشعب. وفي الباب عن ابن عباس أخرجه تمام في فوائده والخطيب في ترجمة محمد بن سعيد الطائفي وعن أنس عند ابن مردويه

(2). «كأنه» لعله: كأنه قال. (ع)

فَيَمُوتُوا جواب النفي، ونصبه بإضمار أن: وقرئ: فيموتون، عطفا على يقضى، وإدخالا له في حكم النفي، أى: لا يقضى عليهم الموت فلا يموتون، كقوله تعالى وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ. كَذلِكَ مثل ذلك الجزاء «يجزى» وقرئ: يجازى. ونجزى كُلَّ كَفُورٍ بالنون «1» يَصْطَرِخُونَ يتصارخون: يفتعلون من الصراخ وهو الصياح بجهد وشدّة. قال كصرخة حبلى أسلمتها قبيلها «2»

واستعمل في الاستغاثة لجهد المستغيث صوته. فإن قلت: هلا اكتفى بصالحا كما اكتفى به في قوله تعالى فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً وما فائدة زيادة غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ على أنه يؤذن أنهم يعملون صالحا آخر غير الصالح الذي عملوه؟ قلت: فائدته زيادة التحسر على ما عملوه من غير الصالح مع الاعتراف به. وأما الوهم فزائل لظهور حالهم في الكفر وركوب المعاصي، ولأنهم «3» كانوا يحسبون أنهم على سيرة صالحة، كما قال الله تعالى وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً فقالوا. أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نحسبه صالحا فنعمله أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ توبيخ من الله يعنى: فنقول لهم. وقرئ: ما يذكر فيه، من أذكر على الإدغام وهو متناول لكل عمر تمكن فيه المكلف من إصلاح شأنه وإن قصر، إلا أن التوبيخ في المتطاول أعظم.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة «4». وعن مجاهد:

(1). قوله «و تجزى كل كفور بالنون» ونصب كل في هذه القراءة ورفعه فيما قبلها. (ع)

(2) قصدت إلى عنس لأحدج رحلها وقد حان من تلك الديار رحيلها
فأنت كما أن الأسير وصرخت كصرخة حبلى أسلمتها قبيلها

للأعشى. وعنست المرأة عنسا: إذا لم تخرج من بيتها للزواج مع بلوغها من السن. والعنس: الناقة الصلبة الصعبة وحدج من باب ضرب: إذا شد الرحل على الناقة. والحدوج: الرحال والهوادج، وهو بتأخير الجيم. واما الجدح - بتأخير المهملة -: فهو اللت والخوض والمزج، أى: عمدت إلى ناقة صلبة لأشد رحلها عليها، والحال أنه جاء حين رحليها من تلك الديار. والأنين: الصوت المنخفض للتحزن، أى: أنت كأنين الأسير في الأول، وصرخت برفع صوتها ثانيا كصرخة حبلى عند الطلق أسلمتها وتركتها قبيلها التي تخدمها عند الولادة. والقبيل والقبول والقابلة:
التي تقوم بمصلحة المرأة عند الولادة وتتلقى الولد عند خروجه.

(3). قوله «و لأنهم كانوا يحسبون» لعله: أو لأنهم كانوا. (ع)

(4). أخرجه البزار من رواية سعيد المقبري عن أبى هريرة مرفوعا بهذا. وأصله في البخاري، بلفظ «من عمره الله ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر» ووهم الحاكم فاستدركه. ورواه ابن مردويه به من حديث سهل بن سعد

ما بين العشرين إلى الستين. وقيل: ثماني عشر وسبع عشر. والنَّذِيرُ الرسول صلى الله عليه وسلم. وقيل: الشيب. وقرئ: وجاءتكم النذر. فإن قلت: علام عطف وجاءكم النذير؟

قلت: على معنى: أو لم نعمركم، لأن لفظه لفظ استخبار. ومعناه معنى إخبار، كأنه قيل: قد عمرناكم وجاءكم النذير.

[سورة فاطر (35) : آية 38]

إِنَّ اللَّهَ عالِمُ غَيْبِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (38)

إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ

كالتعليل ، لأنه إذا علم ما في الصدور وهو أخفى ما يكون ، فقد علم كل غيب في العالم وذات الصدور : مضمراتها ، وهي تأنيث ذو في نحو قول أبى بكر رضى الله عنه : ذو بطن خارجة جارية «1» وقوله : لتغنى عنّى ذا إنائك أجمعا «2»

المعنى ما في بطنها من الحبل ، وما في إنائك من الشراب ، لأن الحبل والشراب يصحبان البطن والإناء. ألا ترى إلى قولهم : معها حبل ، وكذلك المضمرات تصحب الصدور وهي معها.

وذو : موضوع لمعنى الصحبة.

[سورة فاطر (35) : آية 39]

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَساراً (39)

(1). أخرجه في الموطأ عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة «أن أبا بكر كان نحلنى جداد عشرين وسقا - الحديث» وفيه «إنما هي أسماء فمن الأخرى؟ قال : ذو بطن بنت خارجة أراها جارية ، فولدت جارية» وقد تقدم طرف منه في الاسراء

(2) وناولته من رسل كوماء جلدة وأغضبت عنه الطرف حتى تضلعا

إذا قال قدنى قلت بالله حلفة لتغنى عنى ذا إنائك أجمعا

لحريث بن عتاب الطائي. والرسل - بالكسر - : اللبن القليل. والكوماء : السمينة. والجلدة : الصلبة. والاغضاء الغض والإغماض. والتضلع : امتلاء البطن حتى يرتفع الجنبان والضلوع. وغض طرفه عن الضيف كى لا يستحى إذا قال الضيف : قدنى ، أى حسبي من الشرب قلت : بالله. وروى : قال بالله ، فكأنه عبر عن نفسه بطريق الغيبة.

ويروى : إذا قلت قدنى قال ، على أن الشاعر الضيف وليس بذاك. وحلفة : نصب بمعنى القسم قبله ، أى : أحلف بالله حلفة ، ولتغنى : جواب القسم وفتح آخره لاتصاله تقديرا بنون التوكيد الخفيفة ، أى : لتمنعنى عنى. وروى ثعلب لتغنن بنون التوكيد الثقيلة ، أى : لتبعدن عنى ، وكان حقه على اللغة المشهورة لتغنين ، لكن حذفت ياؤه بعد الكسرة على لغة فزارة. وروى لتغنى بكسر اللام للتعليل ، أى : اشرب لتغنى عنى صاحب إنائك وهو اللبن ، وأضافه للاناء لأنه فيه ، وأضاف الإناء لضمير الضيف لأنه في يده ، وتبرأ من نسبته إلى نفسه دلالة على الكرم ، وأجمع : توكيد للبن ، أى لا ترد إلى ما في الإناء ، بل أشربه كله.

يقال للمستخلف : خليفة وخليف ، فالخليفة تجمع خلائف ، والخليف : خلفاء ، والمعنى : أنه جعلكم خلفاءه في أرضه قد ملككم مقاليد التصرف فيها وسلطكم على ما فيها ، وأباح لكم منافعها لتشكروه بالتوحيد والطاعة فَمَنْ كَفَرَ منكم وغمط مثل هذه النعمة «1» السنية ، فوبال كفره راجع عليه ، وهو مقت الله الذي ليس وراءه خزى وصغار وخسار الآخرة الذي ما بقي بعده خسار ، والمقت : أشدّ البغض. ومنه قيل لمن ينكح امرأة أبيه : مقتى، لكونه ممقوتا في كل قلب ، وهو خطاب للناس. وقيل : خطاب لمن بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلكم أمّة خلفت من قبلها ، ورأت وشاهدت فيمن سلف ما ينبغي أن تعتبر به ، فمن كفر منكم فعليه جزاء كفره من مقت الله وخسار الآخرة ، كما أنّ ذلك حكم من قبلكم.

[سورة فاطر (35) : آية 40]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً فَهُمْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلاَّ غُرُوراً (40)

أَرُونِي بدل من أرأيتم : لأنّ المعنى : أرأيتم أخبرونى ، كأنه قال : أخبرونى عن هؤلاء الشركاء وعما استحقوا به الإلهية والشركة أرونى أى جزء من أجزاء الأرض استبدوا بخلقه دون الله أم لهم مع الله شركة في خلق السماوات ، أم معهم كتاب من عند الله ينطق بأنهم شركاؤه فهم على حجة وبرهان من ذلك الكتاب. أو يكون الضمير في آتَيْناهُمْ للمشركين ، كقوله تعالى أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً أم آتيناهم كتابا من قبله ، بل إن يعد بعضهم وهم الرؤساء بَعْضاً وهم الأتباع إِلَّا غُرُوراً وهو قولهم هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ وقرئ : بينات.

[سورة فاطر (35) : آية 41]

إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً (41)
أَنْ تَزُولا كراهة أن تزولا. أو يمنعهما من أن تزولا : لأن الإمساك منع إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً غير معاجل بالعقوبة ، حيث يمسكهما ، وكانتا جديرتين بأن تهدّا هدّا ، لعظم كلمة الشرك كما قال تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ. وقرئ : ولو زالتا ، وإن أمسكهما : جواب القسم في وَلَئِنْ زالَتا سدّ مسدّ الجوابين ، ومن

(1). قوله «و غمط مثل هذه النعمة» أى : واحتقر. (ع)

من لقيت به؟ قال : كعبا. قال : وما سمعته يقول؟ قال سمعته يقول : إنّ السماوات على منكب ملك. قال : كذب كعب. أما ترك يهوديته بعد «1» ثم قرأ هذه الآية.

[سورة فاطر (35) : الآيات 42 إلى 44]

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ما زادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً (42) اسْتِكْباراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً (43) أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَما كانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ عَلِيماً قَدِيراً(44)
بلغ قريشا قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ أهل الكتاب كذبوا رسلهم ، فقالوا : لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم ، فو الله لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كذبوه. وفي إِحْدَى الْأُمَمِ وجهان ، أحدهما : من بعض الأمم ، ومن واحدة من الأمم من اليهود والنصارى وغيرهم.

والثاني : من الأمّة التي يقال لها إحدى الأمم ، تفضيلا لها على غيرها في الهدى والاستقامة ما زادَهُمْ إسناد مجازى ، لأنه هو السبب في أن زادوا أنفسهم. نفورا عن الحق وابتعادا عنه كقوله تعالى فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ. اسْتِكْباراً بدل من نفورا. أو مفعول له ، على معنى : فما زادهم الا أن نفروا استكبارا وعلوّا فِي الْأَرْضِ أو حال بمعنى : مستكبرين وماكرين برسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين. ويجوز أن يكون وَمَكْرَ السَّيِّئِ معطوفا على نفورا فإن قلت : فما وجه قوله وَمَكْرَ السَّيِّئِ؟ قلت : أصله : وأن مكروا السيئ ، أى المكر السيئ ، ثم ومكرا السيئ ، ثم ومكر السيئ. والدليل عليه قوله تعالى وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ومعنى يحيق : يحيط وينزل. وقرئ : ولا يحيق المكر السيئ ، أى : لا يحيق الله ، ولقد حاق بهم يوم بدر. وعن النبي صلى الله عليه وسلم : لا تمكروا ولا تعينوا ما كرا ، «2» فإنّ الله تعالى يقول وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ولا تبغوا ولا تعينوا باغيا ، يقول الله تعالى : إنما بغيكم على أنفسكم».

(1). لم أجده. وروى الطبري من رواية أبى وائل قال : جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فقال : من أين جئت؟ قال : من الشام فذكره مثله ، إلا أنه لم يقل ما ترك يهوديته»
(2). أخرجه ابن المبارك في الزهد. وقد تقدم في أول يونس [.....]

وعن كعب أنه قال لابن عباس رضى الله عنهما : قرأت في التوراة : من حفر مغواة «1» وقع فيها. قال : أنا وجدت ذلك في كتاب الله ، وقرأ الآية. وفي أمثال العرب : من حفر لأخيه جبا وقع فيه منكبا. وقرأ حمزة : ومكر السيئ ، بإسكان الهمزة ، وذلك لاستثقاله الحركات مع الياء والهمزة ، ولعله اختلس فظنّ سكونا أو وقف وقفة خفيفة ، ثم ابتدأ وَلا يَحِيقُ وقرأ ابن مسعود : ومكرا سيئا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ إنزال العذاب على الذين كذبوا برسلهم من الأمم قبلهم ، وجعل استقبالهم لذلك انتظارا له منهم ، وبين أنّ عادته التي هي الانتقام من مكذبي الرسل عادة لا يبدلها ولا يحولها ، أى : لا يغيرها ، وأنّ ذلك مفعول له لا محالة ، واستشهد عليهم بما كانوا يشاهدونه في مسايرهم ومتاجرهم في رحلهم إلى الشام والعراق واليمن : من آثار الماضين وعلامات هلاكهم ودمارهم لِيُعْجِزَهُ ليسبقه ويفوته.

[سورة فاطر (35) : آية 45]

وَلَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً (45)

بِما كَسَبُوا بما اقترفوا من معاصيهم عَلى ظَهْرِها على ظهر الأرض مِنْ دَابَّةٍ من نسمة تدب عليها ، يريد بنى آدم. وقيل : ما ترك بنى آدم وغيرهم من سائر الدواب بشؤم ذنوبهم.

وعن ابن مسعود : كاد الجعل يعذب في جحره بذنب ابن آدم ، «2» ثم تلا هذه الآية. وعن أنس : إن الضب ليموت هزالا في جحره بذنب ابن آدم «3». وقيل : يحبس المطر فيهلك كل شيء إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إلى يوم القيامة كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً وعيد بالجزاء.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ سورة الملائكة دعته ثمانية أبواب الجنة : أن أدخل من أى باب شئت» «4»

(1). قوله «من حفر مغواة وقع فيها» في الصحاح : وقع الناس في أغوية ، أى : في داهية. والمغويات - بفتح الواو مشددة - : جمع المغواة ، وهي حفرة كالزبية ، يقال : من حفر مغواة وقع فيها ، والزبية : حفرة تحفر للأسد اه أى : لصيد الأسد. (ع)
(2). أخرجه الحاكم وقد تقدم في النحل ،
(3). لم أجده عن أنس وقد تقدم في النحل عن أبى هريرة. وعزاه إليه المصنف فيه على الصواب
(4). أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبى بن كعب رضى الله عنه.

سورة يس

بسم اللّه الرحمن الرحيم

مكية ، [إلا آية 45 فمدنية] وآياتها 83 [نزلت بعد الجنّ]

[سورة يس (36) : الآيات 1 إلى 7]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (4) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (5) لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ (6) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ(7)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ قرئ : يس ، بالفتح «1» ، كأين وكيف. أو بالنصب على اتل يس ، وبالكسر على الأصل كجير ، وبالرفع على هذه يس. أو بالضم كحيث. وفخمت الألف وأميلت «2». وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : معناه يا إنسان في لغة طيئ ، واللّه أعلم بصحته ، وإن صح فوجهه أن يكون أصله يا أنيسين ، فكثر النداء به على ألسنتهم حتى اقتصروا على شطره ، كما قالوا في القسم : م اللّه في أيمن اللّه الْحَكِيمِ ذى الحكمة. أو لأنه دليل ناطق بالحكمة كالحي. أو لأنه كلام حكيم فوصف بصفة المتكلم به عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ خبر بعد خبر ، أو صلة للمرسلين. فإن قلت : أى حاجة إليه خبرا كان أو صلة ، وقد علم أنّ المرسلين لا يكونون إلا على صراط مستقيم؟

(1). قوله «قرئ يس بالفتح» يفيد أن السكون قراءة الجمهور ، والحركات قراءات لبعضهم ، فالفتح بناء أو نصب ، والكسر بناء فقط، فتدبر (ع)
(2). قوله «و أخفت الألف وأميلت» يعنى : قرأ الجمهور بالتفخيم. وقرأ بعضهم بالامالة ، كما في النسفي. (ع)

قلت : ليس الغرض بذكره ما ذهبت إليه من تمييز من أرسل على صراط مستقيم عن غيره ممن ليس على صفته ، وإنما الغرض وصفه ووصف ما جاء به من الشريعة ، فجمع بين الوصفين في نظام واحد ، كأنه قال : إنك لمن المرسلين الثابتين على طريق ثابت ، وأيضا فإن التنكير فيه دل على أنه أرسل من بين الصراط المستقيمة على صراط مستقيم لا يكتنه وصفه «1» ، وقرئ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، وبالنصب على أعنى ، وبالجرّ على البدل من القرآن قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ قوما غير منذر آباؤهم على الوصف «2» ونحوه قوله تعالى لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ، وَما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ. وقد فسر ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ على إثبات الإنذار.

ووجه ذلك أن تجعل ما مصدرية ، لتنذر قوما إنذار آبائهم أو موصولة ومنصوبة على المفعول الثاني لتنذر «3» قوما ما أنذره آباؤهم من العذاب ، كقوله تعالى نَّا أَنْذَرْناكُمْ عَذاباً قَرِيباً.

فإن قلت : أى فرق بين تعلقي قوله فَهُمْ غافِلُونَ على التفسيرين؟ قلت : هو على الأوّل متعلق بالنفي ، أى : لم ينذروا فهم غافلون ، على أن عدم إنذارهم هو سبب غفلتهم ، وعلى الثاني بقوله إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ لتنذر ، كما تقول : أرسلتك إلى فلان لتنذره ، فإنه غافل. أو فهو غافل. فإن قلت : كيف يكونون منذرين غير منذرين لمناقضة هذا ما في الآي الأخر؟ قلت : لا مناقضة : لأنّ الآي في نفى إنذارهم لا في نفى إنذار آبائهم ، وآباؤهم القدماء من ولد إسماعيل وكانت النذارة فيهم «4» فإن قلت : ففي أحد التفسيرين أنّ آباءهم لم ينذروا وهو الظاهر ، فما تصنع به؟

(1). قال محمود : «إن قلت ما سر قوله على صراط مستقيم وقد علم بكونه من المرسلين أنه كذلك؟ وأجاب بأن الغرض وصفه ووصف ما جاء به ، فجاء بالوصفين في نظام واحد ، فكأنه قال : إنك لمن المرسلين على طريق ثابت.
قال : وأيضا ففي تنكير الصراط أنه مخصوص من بين الصراط المستقيمة بصراط لا يكتنه وصفه. انتهى كلامه» قال أحمد : قد تقدم في مواضع أن التنكير قد يفيد تفخيما وتعظيما وهذا منه.
(2). قال محمود : إنه على الوصف كقوله لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ قال : وقد فسر ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ على إثبات الانذار على أن ما مصدرية أو موصولة. قال : والفرق بين موقع الفاء على التفسيرين أنها على الأول متعلقة بالنفي معنى جوابا له ، والمعنى أن نفى

(3). قوله «على المفعول الثاني لتنذر» لعل بعده سقطا تقديره : أى لتنذر. (ع)
(4). قال محمود : فان قلت كيف يكونون منذرين على هذا التفسير غير منذرين في قوله ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ وأجاب بأن الآية لنفى إنذارهم لا لنفى إنذار آبائهم ، وآباؤهم القدماء من ولد إسماعيل ، وقد كانت النذارة فيهم.
قال : فما تصنع بأحد التفسيرين الذي مقتضاه أن آباءهم لم ينذروا وهو التفسير الأول في هذه الآية مع التفسير الثاني ، ومقتضاء أنهم أنذروا ، وأجاب بأن آباءهم الأباعد هم المنذرون لا آباؤهم الأدنون. قال : ثم مثل تصميمهم على للكفر وأنهم لا يرعوون ولا يرجعون بأن جعلهم كالمغلولين لمقمحين في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يطأطئون رؤسهم له ، وكالحاصلين بين سدين لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم قال والضمير للأغلال لأن طوق الغر يكون في ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود نادرا من الحلقة إلى الذقن ، فلا تخليه يطأطئ رأسه ، فلا يزال مقمحا. انتهى كلامه» قال أحمد : إذا فرقت هذا التشبيه كان تصميمهم على الكفر مشبها بالأغلال ، وكان استكبارهم عن قبول الحق وعن الخضوع والتواضع لاستماعه ، مشبها بالاقماح ، لأن المقمح لا يطأطئ رأسه.
وقوله : فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ تتمة للزوم الاقماح لهم ، وكان عدم الفكر في القرون الخالية مشبها بسد من خلفهم ، وعدم النظر في العواقب المستقلة مشبها بسد من قدامهم.

قلت : أريد آباؤهم الأدنون دون الأباعد الْقَوْلُ قوله تعالى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ يعنى تعلق بهم هذا القول وثبت عليهم ووجب ، لأنهم ممن علم أنهم يموتون على الكفر.

[سورة يس (36) : الآيات 8 إلى 9]

إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (8) وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (9)

ثم مثل تصميمهم على الكفر ، وأنه لا سبيل إلى ارعوائهم بأن جعلهم كالمغلولين المقمخين : في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ، ولا يطأطئون رءوسهم له ، وكالحاصلين بين سدين لا يبصرون ما قدّامهم ولا ما خلفهم : في أن لا تأمل لهم ولا تبصر ، وأنهم متعامون عن النظر في آيات الله. فإن قلت : ما معنى قوله فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ؟ قلت : معناه : فالأغلال واصلة إلى الأذقان ملزوزة إليها ، وذلك أن طوق الغل الذي في عنق المغلول ، يكون ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود ، نادرا «1» من الحلقة إلى الذقن ، فلا تخليه يطأطئ رأسه ويوطئ قذاله «2» ، فلا يزال مقمحا. والمقمح : الذي يرفع رأسه ويغض بصره. يقال : قمح البعير فهو قامح : إذا روى فرفع رأسه. ومنه شهرا قماح «3» ، لأن الإبل ترفع رءوسها عن الماء لبرده فيهما ، وهما الكانونان. ومنه : اقتحمت السويق. فإن قلت : فما قولك فيمن جعل الضمير للأيدى وزعم أن الغل لما كان جامعا لليد والعنق - وبذلك يسمى جامعة - كان ذكر الأعناق دالا على ذكر الأيدى «4»؟ قلت : الوجه ما ذكرت لك ،

(1). قوله «رأس العمود نادرا» أى شاذا ، كما يفيده الصحاح. (ع)
(2). قوله «و يوطئ قذاله» في الصحاح «القذال» : جماع مؤخر الرأس ، فتدبر. (ع)
(3). قوله «و منه شهرا قماح» بوزن كتاب وغراب ، كما نقل عن القاموس. وفي الصحاح : سميا بذلك ، لأن الإبل إذا وردت فيهما آذاها برد الماء فقامحت. (ع)
(4). قال محمود : فان قلت : فما قولك فيمن جعل الضمير للأيدى وزعم أن الغل لما كان جامعا لليد والعنق وبذلك يسمى جامعة : كان ذكر الأعناق دالا على ذكر الأيدى. وأجاب بأن الوجه هو الأول ، واستدل على هذا التفسير الثاني بقوله فَهُمْ مُقْمَحُونَ لأنه جعل الاقماح نتيجة قوله فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ ولو كان الضمير للأيدى لم يكن معنى التسبب في الاقماح ظاهرا ، وترك الحق الأبلج للباطل اللجلج. انتهى كلامه» قال أحمد : ويحتمل أن تكون الفاء للتعقيب كالفاء الأولى في قوله فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ أو للتسبب ، ولا شك أن ضغط اليد مع العنق في الغل يوجب الاقماح ، فان اليد والعياذ بالله تعالى تبقى ممسكة بالغل تحت الذقن دافعة بها ومانعة من وطأتها ، ويكون التشبيه أتم على هذا التفسير ، فان اليد متى كانت مرسلة مخلاة كان للمغلول بعض الفرج بإطلاقها ، ولعله يتحيل بها على فكاك الغل ، ولا كذلك إذا كانت مغلولة ، فيضاف إلى ما ذكرناه من التشبيهات المفرقة أن يكون انسداد باب الحيل عليهم في الهداية والانخلاع من ربقة الكفر المقدر عليهم مشبها بغل الأيدى ، فان اليد آلة الحيلة إلى الخلاص. [.....]

والدليل عليه قوله فَهُمْ مُقْمَحُونَ ألا ترى كيف جعل الإقماح نتيجة قوله فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ ولو كان الضمير للايدى لم يكن معنى التسبب في الإقماح ظاهرا على أن هذا الإضمار فيه ضرب من التعسف وترك الظاهر الذي يدعوه المعنى إلى نفسه إلى الباطن الذي يجفو عنه وترك للحق الأبلج إلى الباطل اللجلج «1». فإن قلت : فقد قرأ ابن عباس رضى الله عنهما في أيديهم وابن مسعود في أيمانهم ، فهل تجوّز على هاتين القراءتين أن تجعل الضمير للأيدى أو للايمان؟ قلت : يأبى ذلك وإن ذهب الإضمار المتعسف ظهور كون الضمير للاغلال ، وسداد المعنى عليه كما ذكرت. وقرئ : سدا بالفتح والضم. وقيل : ما كان من عمل الناس فبالفتح ، وما كان من خلق الله فبالضم فَأَغْشَيْناهُمْ فأغشينا أبصارهم ، أى : غطيناها وجعلنا عليها غشاوة عن أن تطمح إلى مرئى ، وعن مجاهد : فأغشيناهم : فألبسنا أبصارهم غشاوة. وقرئ بالعين من العشا. وقيل : نزلت في بنى مخزوم ،

[سورة يس (36) : الآيات 10 إلى 11]

وَسَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (10) إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (11)

فإن قلت : قد ذكر ما دلّ على انتفاء إيمانهم مع ثبوت الإنذار ، ثم قفاه بقوله إِنَّما تُنْذِرُ «3» وإنما كانت تصح هذه التقفية لو كان الإنذار منفيا. قلت : هو كما قلت ، ولكن لما كان ذلك نفيا للايمان مع وجود الإنذار وكان معناه أن البغية المرومة بالإنذار غير حاصلة وهي الإيمان ، قفى بقوله إِنَّما تُنْذِرُ على معنى : إنما تحصل البغية بإنذارك من غير هؤلاء المنذرين وهم المتبعون للذكر : وهو القرآن أو الوعظ ، الخاشون ربهم.

(1). قوله «إلى الباطل اللجلج» أى الذي يردد من غير أن ينفذ. أفاده الصحاح. (ع)
(2). أخرجه ابن إسحاق في السيرة في كلام طويل. ورواه أبو نعيم في الدلائل من طريق ابن إسحاق : حدثني محمد بن محمد بن سعيد ، أو عكرمة ، عن ابن عباس «أن أبا جهل قال : إنى أعاهد الله لأجلسن غدا لمحمد بحجر ما أطيق حمله فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه. فذكر نحوه إلى قوله قد يبست يداه على حجره ، حتى قذف الحجر بين يديه : وأصله في البخاري من طريق عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما.
(3). قال محمود : «إن قلت : قد ذكر ما دل على انتفاء إيمانهم مع ثبوت الانذار ، ثم قفاه بقوله إِنَّما تُنْذِرُ وإنما كانت التقفية تصح لو كان الانذار منفيا ، وأجاب بأن الأمر كذلك ، ولكن لما بين أن البغية المرومة بالإنذار وهي الايمان منفية عنهم : قفاه بقوله إِنَّما تُنْذِرُ أى إنما تحصل بغية الانذار ممن اتبع الذكر. انتهى كلامه» قلت : في السؤال سوء أدب ، وينبغي أن يقال : وما وجه ذكر الانذار الثاني في معرض المخالفة للأول ، مع أن الأول إثبات ، والانذار الثاني كذلك.

[سورة يس (36) : آية 12]

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ (12)

نُحْيِ الْمَوْتى نبعثهم بعد مماتهم. وعن الحسن : إحياؤهم : أن يخرجهم من الشرك إلى الإيمان وَنَكْتُبُ ما أسلفوا من الأعمال الصالحة وغيرها وما هلكوا عنه من أثر حسن ، كعلم علموه ، أو كتاب صنفوه ، أو حبيس حبسوه، أو بناء بنوه : من مسجد أو رباط أو قنطرة أو نحو ذلك. أو سيئ ، كوظيفة وظفها بعض الظلام على المسلمين ، وسكة أحدث فيها تخسيرهم ، وشيء أحدث فيه صدّ عن ذكر الله : من ألحان وملاه ، وكذلك كل سنة حسنة أو سيئة يستن بها. ونحوه قوله تعالى يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَأَخَّرَ.

أى : قدّم من أعماله ، وأخر من آثاره. وقيل : هي آثار المشائين إلى المساجد. وعن جابر : أردنا النقلة إلى المسجد والبقاع حوله «1» خالية ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتانا في ديارنا وقال : يا بنى سلمة ، بلغني أنكم تريدون النقلة إلى المسجد ، فقلنا نعم ، بعد علينا المسجد والبقاع حوله خالية ، فقال : عليكم دياركم. فإنما تكتب آثاركم. قال : فما وددنا حضرة المسجد لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. وعن عمر بن عبد العزيز : لو كان الله مغفلا شيئا لأغفل هذه الآثار التي تعفيها الرياح.

والإمام : اللوح. وقرئ : ويكتب ما قدّموا وآثارهم على البناء للمفعول. وكل شيء : بالرقع

[سورة يس (36) : الآيات 13 إلى 15]

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13) إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (14) قالُوا ما أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (15)

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا ومثل لهم مثلا ، من قولهم : عندي من هذا الضرب كذا ، أى : من هذا المثال ، وهذه الأشياء على ضرب واحد ، أى على مثال واحد. والمعنى. واضرب لهم مثلا مثل أصحاب القرية ، أى : اذكر لهم قصة عجيبة قصة أصحاب القرية. والمثل الثاني بيان للأوّل.

وانتصاب إذ بأنه بدل من أصحاب القرية. والقرية أنطاكية. والْمُرْسَلُونَ رسل عيسى عليه السلام إلى أهلها ،

(1). أخرجه ابن حبان في الأول من الأول عن طريق أبى نضرة عنه. وأصله في مسلم.

بعثهم دعاة إلى الحق وكانوا عبدة أوثان. أرسل إليهم اثنين ، فلما قربا من المدينة رأيا شيخا يرعى غنيمات له وهو حبيب النجار صاحب يس ، فسألهما فأخبراه ، فقال : أمعكما آية؟ فقالا : نشفى المريض ونبرئ الأكمه والأبرص ، وكان له ولد مريض من سنتين فمسحاه ، فقام ، فآمن حبيب وفشا الخبر ، فشفى على أيديهما خلق كثير ، ورقى حديثهما إلى الملك وقال لهما : ألنا إله سوى آلهتنا؟ قالا : نعم من أوجدك وآلهتك ، فقال : حتى أنظر في أمركما ، فتبعهما الناس وضربوهما. وقيل : حبسا ، ثم بعث عيسى عليه السلام شمعون ، فدخل متنكرا وعاشر حاشية الملك حتى استأنسوا به ، ورفعوا خبره إلى الملك فأنس به ، فقال له ذات يوم : بلغني أنك حبست رجلين فهل سمعت ما يقولانه؟ فقال : لا ، حال الغضب بيني وبين ذلك ، فدعاهما ، فقال شمعون : من أرسلكما؟ قالا : الله الذي خلق كل شيء وليس له شريك ، فقال : صفاه وأوجزا. قالا : يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. قال : وما آيتكما؟ قالا : ما يتمنى الملك ، فدعا بغلام مطموس العينين ، فدعوا الله حتى انشق له بصر ، وأخذا بندقتين فوضعاهما في حدقتيه فكانتا مقلتين ينظر بهما ، فقال له شمعون : أرأيت لو سألت إلهك حتى يصنع مثل هذا فيكون لك وله الشرف. قال : ليس لي عنك سر ، إنّ إلهنا لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع ، وكان شمعون يدخل معهم على الصنم فيصلى ويتضرع ويحسبون أنه منهم ، ثم قال : إن قدر إلهكما على إحياء ميت آمنا به ، فدعوا بغلام مات من سبعة أيام فقام وقال : إنى أدخلت في سبعة أودية من النار ، وأنا أحذركم ما أنتم فيه فآمنوا ، وقال : فتحت أبواب السماء فرأيت شابا حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة ، قال الملك : ومن هم؟ قال شمعون ، وهذان ، فتعجب الملك. فلما رأى شمعون أنّ قوله قد أثر فيه نصحه فآمن وآمن معه قوم ، ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل عليه السلام صيحة فهلكوا فَعَزَّزْنا فقوّينا. يقال : المطر يعزز الأرض إذا لبدها وشدّها ، وتعزز لحم الناقة. وقرئ بالتخفيف من عزه يعزه : إذا غلبه ، أى : فغلبنا وقهرنا بِثالِثٍ وهو شمعون. فإن قلت : لم ترك ذكر المفعول به؟ قلت : لأنّ الغرض ذكر المعزز به وهو شمعون وما لطف فيه من التدبير حتى عزّ الحق وذلّ الباطل ، وإذا كان الكلام منصبا إلى غرض من الأغراض جعل سياقه له وتوجهه إليه ، كأن ما سواه مرفوض مطرح.

ونظيره قولك : حكم السلطان اليوم بالحق ، الغرض المسوق إليه : قولك بالحق فلذلك رفضت ذكر المحكوم له والمحكوم عليه. إنما رفع بشر ونصب «1» في قوله ما هذا بَشَراً لأنّ إلا تنقض النفي ، فلا يبقى لما المشبهة بليس شبه ، فلا يبقى له عمل. فإن قلت : لم قيل : إنا إليكم

(1). قوله «إنما رفع بشر ونصب» عبارة النسفي : إنما رفع بشر هنا ونصب ... الخ. (ع)

مرسلون أوّلا «1» ، وإِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ آخرا؟ قلت : لأن الأوّل ابتداء إخبار ، والثاني جواب عن إنكار.

[سورة يس (36) : الآيات 16 إلى 17]

قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (16) وَما عَلَيْنا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (17)

وقوله رَبُّنا يَعْلَمُ جار مجرى القسم في التوكيد ، وكذلك قولهم : شهد الله ، وعلم الله. وإنما حسن منهم هذا الجواب الوارد على طريق التوكيد والتحقيق مع قولهم وَما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ أى الظاهر المكشوف بالآيات الشاهدة لصحته ، وإلا فلو قال المدعى : والله إنى لصادق فيما أدعى ولم يحضر البينة كان قبيحا.

[سورة يس (36) : الآيات 18 إلى 19]

قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ (18) قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (19)

تَطَيَّرْنا بِكُمْ تشاء منابكم ، وذلك أنهم كرهوا دينهم ونفرت منه نفوسهم ، «2» وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شيء مالوا إليه واشتهوه وآثروه وقبلته طباعهم ، ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه ، فإن أصابهم نعمة أو بلاء قالوا ببركة هذا وبشؤم هذا ، كما حكى الله عن القبط : وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه. وعن مشركي مكة : وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك. وقيل : حبس عنهم القطر فقالوا ذلك. وعن قتادة : إن أصابنا شيء كان من أجلكم طائِرُكُمْ مَعَكُمْ وقرئ : طيركم ، أى سبب شؤمكم معكم وهو كفرهم. أو أسباب

(1). قال محمود : «إن قلت : لم أسقط اللام هنا وأثبتها في الثانية عند قوله رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ قلت : الأول ابتداء إخبار ، والثاني جواب إنكار» قال أحمد : أى فلاق توكيده.
(2). قوله «و نفرت منهم» لعله : منه كعبارة النسفي. (ع)
(3). قوله «و آئن بألف بينهما» الذي في النسفي أن هذا وما قبله بياء مكسورة بدل الهمزة الثانية. (ع)

[سورة يس (36) : الآيات 20 إلى 25]

وَجاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21) وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ (23) إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (24) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (25)

رَجُلٌ يَسْعى هو حبيب بن إسرائيل النجار ، وكان ينحت الأصنام ، وهو ممن آمن برسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ، وبينهما ستمائة سنة كما آمن به تبع الأكبر وورقة بن نوفل وغيرهما ، ولم يؤمن بنبي أحد إلا بعد ظهوره. وقيل : كان في غار يعبد اللّه ، فلما بلغه خبر الرسل أتاهم وأظهر دينه وقاول الكفرة ، فقالوا : أو أنت تخالف ديننا ، فوثبوا عليه فقتلوه.

وقيل : توطئوه بأرجلهم حتى خرج قصبه «1» من دبره. وقيل : رجموه وهو يقول : اللهم اهد قومي ، وقبره في سوق أنطاكية ، فلما قتل غضب اللّه عليهم فأهلكوا بصيحة جبريل عليه السلام.

وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «سباق الأمم ثلاثة : لم يكفروا باللّه طرفة عين : على بن أبى طالب ، وصاحب يس ، ومؤمن آل فرعون» «2» مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ كلمة جامعة في الترغيب فيهم ، أى: لا تخسرون معهم شيئا من دنياكم ، وتربحون صحة دينكم فينتظم لكم خير الدنيا وخير الآخرة ، ثم أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويداريهم ، ولأنه أدخل في إمحاض النصح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لروحه ، ولقد وضع قوله وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي مكان قوله : وما لكم لا تعبدون الذي فطركم. ألا ترى إلى قوله وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ولولا أنه قصد ذلك لقال : الذي فطرني وإليه أرجع ، وقد ساقه ذلك المساق إلى أن قال آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ يريد فاسمعوا قولي وأطيعونى ، فقد نبهتكم على الصحيح الذي لا معدل عنه : أنّ العبادة لا تصح إلا لمن منه مبتدؤكم وإليه مرجعكم ، وما أدفع العقول وأنكرها لأن تستحبوا على عبادته عبادة أشياء إن أرادكم هو بضر وشفع لكم هؤلاء لم تنفع شفاعتهم ولم يمكنوا من أن يكونوا شفعاء عنده ، ولم يقدروا على

(1). قوله «حتى خرج قصبه» في الصحاح «القصب» بالضم : المتقى. والمعى : واحد الأمعاء. (ع)
(2). أخرجه الثعلبي من طريق عبد الرحمن بن أبى ليلى عن أبيه بهذا ، وفيه عمرو بن جمع وهو متروك. ورواه العقيلي والطبراني وابن مردويه ، من طريق حسين بن حسن الأشقر عن ابن عيينة عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس ، بلفظ «السباق ثلاثة. فالسابق إلى عيسى صاحب يس ، والى محمد صلى اللّه عليه وسلم على بن أبى طالب

إنقاذكم منه بوجه من الوجوه ، إنكم في هذا الاستحباب لواقعون في ضلال ظاهر بين لا يخفى على ذى عقل وتمييز. وقيل : لما نصح قومه أخذوا يرجمونه فأسرع نحو الرسل قبل أن يقتل ، فقال لهم إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ أى اسمعوا إيمانى تشهدوا لي به. وقرئ : إن يردني الرحمن بضر ، بمعنى : أن يوردني ضرا ، أى يجعلني موردا للضر.

[سورة يس (36) : الآيات 26 إلى 27]

قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (27)

أى لما قتل قِيلَ له ادْخُلِ الْجَنَّةَ وعن قتادة : أدخله الله الجنة وهو فيها حيّ يرزق أراد قوله تعالى بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، فَرِحِينَ وقيل : معناه البشرى بدخول الجنة ، وأنه من أهلها. فإن قلت : كيف مخرج هذا القول في علم البيان؟ قلت : مخرجه مخرج الاستئناف ، لأنّ هذا من مظان المسألة عن حاله عند لقاء ربه ، كأنّ قائلا قال : كيف كان لقاء ربه بعد ذلك التصلب في نصرة دينه والتسخى لوجهه بروحه؟ فقيل : قيل ادخل الجنة ولم يقل قيل له ، لانصباب الغرض إلى المقول وعظمه ، لا إلى المقول له مع كونه معلوما ، وكذلك قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ مرتب على تقدير سؤال سائل عما وجد من قوله عند ذلك الفوز العظيم ، وإنما تمنى علم قومه بحاله ، ليكون علمهم بها سببا لاكتساب مثلها لأنفسهم ، بالتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان والعمل الصالح المفضيين بأهلهما إلى الجنة. وفي حديث مرفوع : نصح قومه حيا وميتا «1». وفيه تنبيه عظيم على وجوب كظم الغيظ ، والحلم عن أهل الجهل ، والترؤف على من أدخل نفسه في عمار الأشرار وأهل البغي ، والتشمر في تخليصه والتلطف في افتدائه ، والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه. ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته والباغين له الغوائل وهم كفرة عبدة أصنام. ويجوز أن يتمنى ذلك ليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم في أمره ، وأنه كان على صواب ونصيحة وشفقة ، وأن عداوتهم لم تكسبه إلا فوزا ولم تعقبه إلا سعادة ، لأنّ في ذلك زيادة غبطة له وتضاعف لذة وسرور. والأوّل أوجه. وقرئ : المكرّمين. فإن قلت : ما في قوله تعالى بِما غَفَرَ لِي رَبِّي أى الماءات هي؟ قلت : المصدرية أو الموصولة ، أى : بالذي غفره لي من الذنوب. ويحتمل أن تكون استفهامية ، يعنى بأى شيء غفر لي ربى ، يريد به

(1). ورد هذا في قصة عروة بن مسعود أخرجه ابن مردويه من حديث المغيرة بن شعبة ، فذكر القصة وفي آخرها «فكان يقول وهو في النزع : يا معشر ثقيف ائتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطلبوا منه الأمان ، قبل أن يبلغه موتى فيغزوكم. فلم يزل كذلك حتى مات ، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم. فقال : لقد نصح قومه حيا وميتا ، وشبهه بصاحب يس.

ما كان منه معهم من المصابرة لإعزاز الدين حتى قتل ، إلى أنّ قولك بِما غَفَرَ لِي بطرح الألف أجود وإن كان إثباتها جائزا ، يقال : قد علمت بما صنعت هذا ، أى : بأى شيء صنعت وبم صنعت.

[سورة يس (36) : الآيات 28 إلى 29]

وَما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ وَما كُنَّا مُنْزِلِينَ (28) إِنْ كانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ (29)

المعنى : أن الله كفى أمرهم بصيحة ملك ، ولم ينزل لإهلاكهم جندا من جنود السماء ، كما فعل يوم بدر والخندق ، فإن قلت : وما معنى قوله وَما كُنَّا مُنْزِلِينَ؟ قلت : معناه : وما كان يصح في حكمتنا أن ننزل في إهلاك قوم حبيب جندا من السماء ، وذلك لأنّ الله تعالى أجرى هلاك كل قوم على بعض الوجوه دون البعض ، وما ذلك إلا بناء على ما اقتضته الحكمة وأوجبته المصلحة. ألا ترى إلى قوله تعالى فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا. فإن قلت : فلم أنزل الجنود من السماء يوم بدر والخندق؟ قال تعالى فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها ، بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ، بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ ، بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ؟

قلت : إنما كان يكفى ملك واحد ، فقد أهلكت مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل ، وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة منه ، ولكنّ الله فضل محمدا صلى الله عليه وسلم بكل شيء على كبار الأنبياء وأولى العزم من الرسل ، فضلا عن حبيب النجار ، وأولاده من أسباب الكرامة والإعذار ما لم يوله أحدا ، فمن ذلك : أنه أنزل له جنودا من السماء ، وكأنه أشار بقوله : وَما أَنْزَلْنا ، وَما كُنَّا مُنْزِلِينَ إلى أن إنزال الجنود من عظائم الأمور التي لا يؤهل لها إلا مثلك ، وما كنا نفعله بغيرك إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً إن كانت الأخذة أو العقوبة إلا صيحة واحدة. وقرأ أبو جعفر المدني بالرفع على كان التامّة ، أى : ما وقعت إلا صيحة ، والقياس والاستعمال على تذكير الفعل ، لأنّ المعنى : ما وقع شيء إلا صيحة ، ولكنه نظر إلى ظاهر اللفظ وأن الصيحة في حكم فاعل الفعل ، ومثلها قراءة الحسن : فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم ، وبيت ذى الرمّة : وما بقيت إلّا الضلوع الجراشع«1»

(1) برى لحمها سير الفيافي وحرها وما بقيت إلا الضلوع الجراشع
للبيد. يصف ناقته بأنها أذهب لحمها سير الأراضى القفرة ، أى السير فيها وحرها الشديد ، برما بقيت فيها إلا الضلوع.
وكان الأفصح حذف التاء ، لأن المعنى : ما بقي فيها شيء إلا الضلوع ، لكنه أنث نظرا للضلوع. والجراشع : جمع جرشع كقنفذ ، وهو الغليظ المرتفع. ويروى : بدل الشطر الأول
طوى الحر والأجراز ما في عروضها
والأجراز : جمع جرز ، وهي المفازة القفرة ، والعروض : جمع عرض - بضم فسكون - : أى جنوبها. ويروى :

النحز ، بدل الحر ، وهو بنون فمهملة فزاى : النخس والدفع. ويروى «غروض» بغين معجمة : جمع غرض ، كقفل : وهو حزام الرحل ، أراد به الصدر لعلاقة المجاورة. أو هو على حذف مضاف ، أى محل غروضها. ويجوز أنه أراد بما في غروضها الصدر ذاته لا الشحم واللحم. ومعنى الطي التضمير أو الاذهاب على طريق المجاز.

وقرأ ابن مسعود : الأزقية : واحدة ، من زقا الطائر يزقو ويزقى ، إذا صاح. ومنه المثل : أثقل من الزواقى خامِدُونَ خمدوا كما تخمد النار ، فتعود رمادا ، كما قال لبيد : وما المرء إلّا كالشهاب وضوئه يحور رمادا بعد إذ هو مناطع «1»

[سورة يس (36) : آية 30]

يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (30)

يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ نداء للحسرة عليهم ، كأنما قيل لها : تعالى يا حسرة فهذه من أحوالك التي حقك أن تحضرى فيها ، وهي حال استهزائهم بالرسل. والمعنى أنهم أحقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون ، ويتلهف على حالهم المتلهفون. أوهم متحسر عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين. ويجوز أن يكون من الله تعالى على سبيل الاستعارة في معنى تعظيم ما جنوه على أنفسهم ومحنوها به ، وفرط إنكاره له وتعجيبه منه ، وقراءة من قرأ : يا حسرتا ، تعضد هذا الوجه لأن المعنى : يا حسرتى. وقرئ : يا حسرة العباد ، على الإضافة إليهم لاختصاصها بهم ، من حيث أنها موجهة إليهم. ويا حسرة على العباد : على إجراء الوصل مجرى الوقف.

[سورة يس (36) : الآيات 31 إلى 32]

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ (31) وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (32)

أَلَمْ يَرَوْا ألم يعلموا ، وهو معلق عن العمل في كَمْ لأن كم لا يعمل فيها عامل قبلها ، كانت للاستفهام أو للخبر ، لأن أصلها الاستفهام ، إلا أن معناه نافذ في الجملة ، كما نفذ في قولك : ألم يروا إن زيدا لمنطلق ، وإن لم يعمل في لفظه. وأَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ بدل من كَمْ أَهْلَكْنا على المعنى ، لا على اللفظ ، تقديره : ألم يروا كثرة إهلاكنا القرون من قبلهم كونهم

(1) وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رمادا بعد إذ هو ساطع
وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوما أن ترد الودائع
للبيد العامري ، أى : ليس حال المرء وحياته وبهجته ثم موته وفناؤه بعد ذلك إلا مثل حال شهاب النار وضوئه حال كونه يصير رمادا بعد إضاءته. ويمكن أن قوله «يحور رمادا» استئناف مبين لوجه للشبه ، وذلك تشبيه هيئة ولا يصح تشبيه المرء بالشهاب وضوئه ، وشبه مال الشخص وأقاربه بالودائع تشبيها بليغا ، بجامع أنه لا بد من أخذ كل ، وبين ذلك بقوله : ولا بد أن ترد الودائع في يوم من الأيام.

غير راجعين إليهم. وعن الحسن : كسر إنّ على الاستئناف. وفي قراءة ابن مسعود : ألم يروا من أهلكنا ، والبدل على هذه القراءة بدل اشتمال ، وهذا مما يردّ قول أهل الرجعة. ويحكى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قيل له : إن قوما يزعمون أنّ عليا مبعوث قبل يوم القيامة ، فقال : بئس القوم نحن إذن نكحنا : نساءه وقسمنا ميراثه «1». قرئ : لما ، بالتخفيف ، على أن «ما» صلة للتأكيد ، وإن : مخففة من الثقيلة ، وهي متلقاة باللام لا محالة. ولما بالتشديد ، بمعنى : إلا ، كالتي في مسألة الكتاب. نشدتك بالله لما فعلت ، وإن نافية. والتنوين في كُلٌّ هو الذي يقع عوضا من المضاف إليه ، كقولك : مررت بكل قائما. والمعنى أن كلهم محشورون مجموعون محضرون للحساب يوم القيامة. وقيل محضرون معذبون. فإن قلت : كيف أخبر عن كل بجميع ومعناهما واحد«2»؟ قلت : ليس بواحد : لأن كلا يفيد معنى الإحاطة ، وأن لا ينفلت منهم أحد ، والجميع : معناه الاجتماع ، وأن المحشر يجمعهم. والجميع : فعيل بمعنى مفعول ، يقال حى جميع ، وجاءوا جميعا.

[سورة يس (36) : الآيات 33 إلى 36]

وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها وَأَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33) وَجَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ وَفَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ (34) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ (35) سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (36)

القراءة بالميتة على الخفة أشيع ، لسلسها على اللسان. وأَحْيَيْناها استئناف بيان لكون الأرض الميتة آية ، وكذلك نسلخ : ويجوز أن توصف الأرض والليل بالفعل ، لأنه أريد بهما الجنسان مطلقين لا أرض «3» وليل بأعيانهما ، فعوملا معاملة النكرات في وصفهما بالأفعال ، ونحوه :

(1). أخرجه الحاكم في تفسير البقرة نحوه باختصار. وأخرجه من حديث الحسن في فضائل الصحابة أتم منه.
وليس فيه : بئس القوم نحن إذن [.....]
(2). قال محمود : «إن قلت لم أخبر عن كل بجميع ومعناهما واحد وأجاب بأن كلا تفيد الاحاطة لا ينلفت عنهم أحد وجميع تفيد الاجتماع وهو فعيل بمعنى مفعول وبينهما فرق انتهي كلامه ، قال أحمد : ومن ثم وقع أجمع في التوكيد تابعا لكل ، لأنه أخص منه وأزيد معنى
(3). قال محمود : «يجوز أن يكون أحييناها صفة للأرض وصح ذلك لأن المراد بالأرض الجنس ولم يقصد بها أرض معينة وأن يكون بيانا لوجه الآية فيها» قال أحمد : وغيره من النحاة يمنع وقوع الجملة صفة للمعرف وإن كان جنسيا وليس الغرض منه معينا ويراعي هذا المانع المطابقة اللفظية في الوصفية ومنه
ولقد أمر على اللئيم يسبني

ولقد امر على اللّئيم يسبني «1»

وقوله فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ بتقديم الظرف للدلالة على أن الحب هو الشيء الذي يتعلق به معظم العيش ويقوم بالارتزاق منه صلاح الإنس ، وإذا قل جاء القحط ووقع الضرّ ، وإذا فقد جاء الهلاك ونزل البلاء. قرئ وَفَجَّرْنا بالتخفيف والتثقيل ، والفجر والتفجير ، كالفتح والتفتيح لفظا ومعنى. وقرئ ثَمَرِهِ بفتحتين وضمتين وضمة وسكون ، والضمير للّه تعالى : والمعنى : ليأكلوا مما خلقه اللّه من الثمر وَمن ما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ من الغرس والسقي والآبار ، وغير ذلك من الأعمال إلى أن بلغ الثمر منتهاه وإبان أكله ، يعنى أنّ الثمر في نفسه فعل اللّه وخلقه ، وفيه آثار من كد بنى آدم ، وأصله من ثمرنا كما قال : وجعلنا ، وفجرنا ، فنقل الكلام من التكلم إلى الغيبة على طريقة الالتفات. ويجوز أن يرجع إلى النخيل ، وتترك الأعناب غير مرجوع إليها ، لأنه علم أنها في حكم النخيل فيما علق به من أكل ثمره. ويجوز أن يراد من ثمر المذكور وهو الجنات ، كما قال رؤبة : فيها خطوط من بياض وبلق كأنّه في الجلد توليع البهق «2»

فقيل له ، فقال : أردت كأن ذاك : ولك أن تجعل «ما» نافية على أنّ الثمر خلق اللّه ولم تعمله أيدى الناس ولا يقدرون عليه. وقرئ على الوجه الأوّل ، وما عملت من غير راجع ، وهي في مصاحف أهل الكوفة كذلك ، وفي مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام مع الضمير الْأَزْواجَ الأجناس والأصناف وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ومن أزواج لم يطلعهم اللّه عليها ولا توصلوا إلى معرفتها بطريق من طرق العلم ، ولا يبعد أن يخلق اللّه تعالى من الخلائق الحيوان والجماد ما لم يجعل للبشر طريقا إلى العلم به ، لأنه لا حاجة بهم في دينهم ودنياهم إلى ذلك العلم ، ولو كانت بهم اليه حاجة لأعلمهم بما لا يعلمون ، كما أعلمهم بوجود ما لا يعلمون. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : لم يسمهم. وفي الحديث «ما لا عين رأت «3» ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، بله ما أطلعتهم عليه» فأعلمنا بوجوده وإعداده ولم يعلمنا به ما هو ، ونحوه فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ وفي الإعلام بكثرة ما خلق مما علموه ومما جهلوه ما دلّ على عظم قدرته واتساع ملكه.

(1). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 16 فراجعه إن شئت اه مصححه.
(2). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 149 فراجعه إن شئت اه مصححه.
(3). قوله «في الحديث ما لا عين رأت» أوله : «أعددت لعبادي الصالحين» كما مر في تفسير السجدة. (ع)

[سورة يس (36) : آية 37]

وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ (37)

سلخ جلد الشاة : إذا كشطه عنها وأزاله. ومنه : سلخ الحية لخرشائها «1» ، فاستعير لازالة الضوء وكشفه عن مكان الليل وملقى ظله مُظْلِمُونَ داخلون في الظلام ، يقال : أظلمنا ، كما تقول : أعتمنا وأدجينا «2» لِمُسْتَقَرٍّ لَها لحدّ لها مؤقت مقدّر تنتهي إليه من فلكها في آخر السنة ، شبه بمستقر المسافر إذا قطع مسيره ، أو لمنتهى لها من المشارق والمغارب ، لأنها تتقصاها مشرقا مشرقا ومغربا مغربا حتى تبلغ أقصاها ، ثم ترجع فذلك حدها ومستقرّها ، لأنها لا تعدوه أو لحدّ لها من مسيرها كل يوم في مرأى عيوننا وهو المغرب. وقيل : مستقرّها : أجلها الذي أقر اللّه عليه أمرها في جريها ، فاستقرت عليه وهو آخر السنة. وقيل : الوقت الذي تستقر فيه وينقطع جريها وهو يوم القيامة.

[سورة يس (36) : الآيات 38 إلى 40]

وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38) وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39) لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40)

وقرئ : تجرى إلى مستقر لها. وقرأ ابن مسعود : لا مستقرّ لها ، أى : لا تزال تجرى لا تستقر. وقرئ : لا مستقر لها ، على أنّ لا بمعنى ليس ذلِكَ الجري على ذلك التقدير والحساب الدقيق الذي تكل الفطن عن استخراجه وتتحير الأفهام في استنباطه. ما هو إلا تقدير الغالب بقدرته على كل مقدور ، المحيط علما بكل معلوم. قرئ : والقمر رفعا على الابتداء ، أو عطفا على الليل. يريد : من آياته القمر ، ونصبا بفعل يفسره قدرناه ، ولا بدّ في قَدَّرْناهُ مَنازِلَ من تقدير مضاف ، لأنه لا معنى لتقدير نفس القمر منازل. والمعنى : قدرنا مسيره منازل وهي ثمانية وعشرون منزلا ، ينزل القمر كل ليلة في واحد منها لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه ، على تقدير مستو لا يتفاوت ، يسير فيها كل ليلة من المستهل إلى الثامنة والعشرين ، ثم يستتر ليلتين أو ليلة إذا نقص الشهر ، وهذه المنازل هي مواقع النجوم التي نسبت إليها العرب الأنواء المستمطرة ، وهي : الشرطان ، البطين ، الثريا ، الدبران ، الهقعة ، الهنعة ، الذراع ، النثرة ، الطرف ، الجبهة ، الزبرة ، الصرفة ، العوّا ، السماك ، الغفر ، الزباني ، الإكليل ، القلب ، الشولة ، النعائم ، البلدة ، سعد الذابح ، سعد بلع ، سعد السعود ، سعد الأخبية ، فرغ الدلو المقدم ،

(1). قوله «و منه سلخ الحية لخرشائها» في الصحاح «الخرشاء» : مثل الحرباء : جلد الحية. (ع)
(2). قوله «أعتمنا وأدجينا» الدجى : وجع في حافر الفرس أو خف البعير. أفاده الصحاح وغيره. (ع)

فرغ الدلو المؤخر ، الرشا. فإذا كان في آخر منازله دق واستقوس ، وعادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ وهو عود العذق ، ما بين شماريخه إلى منبته من النخلة. وقال الزجاج : هو «فعلون» من الانعراج وهو الانعطاف. وقرئ : العرجون ، بوزن الفرجون «1» ، وهما لغتان ، كالبزيون والبزيون ، والقديم المحول ، وإذا قدم دق وانحنى واصفر ، فشبه به من ثلاثة أوجه. وقيل : أقل مدّة الموصوف بالقدم الحول ، فلو أنّ رجلا قال : كل مملوك لي قديم فهو حر. أو كتب ذلك في وصيته : عتق منهم من مضى له حول أو أكثر. وقرئ : سابق النهار. على الأصل ، والمعنى : أنّ الله تعالى قسم لكل واحد من الليل والنهار وآيتيهما قسما من الزمان ، وضرب له حدا معلوما ، ودبر أمرهما على التعاقب ، فلا ينبغي للشمس : أى لا يتسهل لها ولا يصح ولا يستقيم لوقوع التدبير على المعاقبة ، وإن جعل لكل واحد من النيرين سلطان على حياله «2»

(1). قوله «و قرئ العرجون بوزن الفرجون» في الصحاح «الفرجون» : المحسة ، وقد فرجنت الدابة إذا فرجنتها. ومنه قول بعضهم : ادفنوني في ثيابي ولا تحسوا عتى ترابا ، أى : لا تتفضوه. وفيه «البزيون» : السندس. (ع)
(2). قال محمود : «معناه أن كل واحد منهما لا يدخل على الآخر في سلطانه فيطمس نوره بل هما متعاقبان بمقتضى تدبيره تعالى. قال : فان قلت : لم جعلت الشمس غير مدركة والقمر غير سابق؟ قلت : لأن الشمس بطيئة السير تقطع فلكها في سنة والقمر يقطع فلكه في شهر ، فكانت الشمس لبطئها جديرة بأن توصف بالإدراك ، والقمر لسرعته جديرا بأن يوصف بالسبق انتهى كلامه» قال أحمد : يؤخذ من هذه الآية أن النهار تابع لليل وهو المذهب المعروف للفقهاء ، وبيانه من الآية أنه جعل الشمس التي هي آية النهار غير مدركة للقمر الذي هو آية الليل ، وإنما نفى الإدراك لأنه هو الذي يمكن أن يقع ، وذلك يستدعى تقدم القمر وتبعية الشمس ، فانه لا يقال : أدرك السابق اللاحق ، ولكن أدرك اللاحق السابق ، وبحسب الإمكان توقيع النفي ، فالليل إذا متبوع والنهار تابع.
فإن قيل : هل يلزم على هذا أن يكون الليل سابق النهار؟ وقد صرحت الآية بأنه ليس سابقا ، فالجواب : أن هذا مشترك الإلزام ، وبيانه أن الأقسام المحتملة ثلاثة : إما تبعية النهار لليل وهو مذهب الفقهاء. أو عكسه وهو المنقول عن طائفة من النحاة. أو اجتماعهما، فهذا القسم الثالث منفي باتفاق «فلم يبق إلا تبعية النهار لليل وعكسه ، وهذا السؤال وارد عليهما جميعا ، لأن من قال : إن النهار سابق الليل ، لزمه أن يكون مقتضى البلاغة أن يقال : ولا الليل يدرك النهار ، فان المتأخر إذا نفى إدراكه كان أبلغ من نفى سابقه ، مع أنه يتناءى عن مقتضى قوله لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ تنائيا لا يجمع شمل المعنى باللفظ ، فان الله تعالى نفى أن تكون مدركة فضلا عن أن تكون سابقة ، فإذا أثبت ذلك فالجواب المحقق عنه أن المنفي السبقية الموجبة لتراخى النهار عن الليل وتخلل زمن آخر بينهما ، وحينئذ يثبت التعاقب وهو مراد الآية. وأما سبق أول المتعاقبين للآخر منهما فانه غير معتبر. ألا ترى إلى جواب موسى بقوله : هم أولاء على أثرى ، فقد قريهم منه عذرا عن قوله تعالى وَما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ فكأنه سهل أمر هذه العجلة بكونهم على أثره ، فكيف لو كان متقدما وهم في عقبه لا يتخلل بينهم وبينه مسافة؟ فذاك لو اتفق لكان سياق الآية يوجب أنه لا يعد عجلة ولا سبقا ، فحينئذ يكون القول بسبقية النهار لليل مخالفا صدر الآية على وجه لا يقبل التأويل ، فان بين عدم الإدراك الدال على التأخير والتبعية وبين السبق بونا بعيدا ومخالفا أيضا لبقية الآية ، فانه لو كان الليل تابعا ومتأخرا لكان أحرى أن يوصف بعدم الإدراك ولا يبلغ به عدم السبق ، ويكون القول بتقدم الليل على النهار مطابقا لصدر الآية صريحا ، ولعجزها بوجه من التأويل مناسب لنظم القرآن وثبوت ضده أقرب إلى الحق من حبل وريده ، والله الموفق للصواب من القول وتسديده.

أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ فتجتمع معه في وقت واحد وتداخله في سلطانه فتطمس نوره ، ولا يسبق الليل النهار يعنى آية الليل آية النهار وهما النيران ، ولا يزال الأمر على هذا الترتيب إلى أن يبطل الله ما دبر من ذلك ، وينقض ما

[سورة يس (36) : الآيات 41 إلى 44]

وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (41) وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ (42) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ (43) إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا وَمَتاعاً إِلى حِينٍ (44)

ذُرِّيَّتَهُمْ أولادهم ومن يهمهم حمله. وقيل : اسم الذرية يقع على النساء ، لأنهنّ مزارعها وفي الحديث أنه نهى عن قتل الذراري يعنى النساء مِنْ مِثْلِهِ من مثل الفلك ما يَرْكَبُونَ من الإبل ، وهي سفائن البر. وقيل الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ سفينة نوح ، ومعنى حمل الله ذرياتهم فيها : أنه حمل فيها آباءهم الأقدمين ، وفي أصلابهم هم وذرياتهم ، وإنما ذكر ذرياتهم دونهم لأنه أبلغ في الامتنان عليهم ، وأدخل في التعجيب من قدرته ، في حمل أعقابهم إلى يوم القيامة في سفينة نوح. وِمِنْ مِثْلِهِ من مثل ذلك الفلك ما يركبون من السفن والزوارق فَلا صَرِيخَ لا مغيث. أولا إغاثة. يقال : أتاهم الصريخ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ لا ينجون من الموت بالغرق إِلَّا رَحْمَةً إلا لرحمة منا ولتمتيع بالحياة إِلى حِينٍ «1» إلى أجل يموتون فيه لا بد لهم منه بعد النجاة من موت الغرق. ولقد أحسن من قال : ولم أسلم لكي أبقى ولكن سلمت من الحمام إلى الحمام «2»

وقرأ الحسن رضى الله عنه : نغرقهم ،

(1). قال أحمد : من هنا أخذ أبو الطيب :
ولم أسلم لكي أبقى ولكن سلمت من الحمام إلى الحمام
لأنه تعالى أخبر أنهم إن سلموا من موت الغرق فتلك السلامة متاع إلى حين ، أى : إلى أجل يموتون فيه ، ولا بد.
(2). للمتنبي يقول : ولم أسلم من حوادث الدهر ومكاره الحرب لأجل أن أخلد ، وإنما سلمت من الحمام - ككتاب - : أى الموت ببعض الأسباب إلى أن أموت ببعضها الآخر. أو منقلب إلى الموت ببعضها الآخر ، لأنه لا خلود في الدنيا.

[سورة يس (36) : الآيات 45 إلى 46]

وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَما خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (45) وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (46)

اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَما خَلْفَكُمْ كقوله تعالى أَفَلَمْ يَرَوْا إِلى ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ وعن مجاهد : ما تقدّم من ذنوبكم وما تأخر. وعن قتادة : ما بين أيديكم من الوقائع التي خلت ، يعنى من مثل الوقائع التي ابتليت بها الأمم المكذبة بأنبيائها ، وما خلفكم من أمر الساعة لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ لتكونوا على رجاء رحمة الله. وجواب إذا محذوف مدلول عليه بقوله إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ فكأنه قال : وإذا قيل لهم اتقوا أعرضوا. ثم قال : ودأبهم الإعراض عند كل آية وموعظة.

[سورة يس (36) : آية 47]

وَإِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (47)

كانت الزنادقة منهم يسمعون المؤمنين يعلقون أفعال الله تعالى بمشيئته فيقولون : لو شاء الله لأغنى فلانا ، ولو شاء لأعزه ، ولو شاء لكان كذا ، فأخرجوا هذا الجواب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين وبما كانوا يقولونه من تعليق الأمور بمشيئة الله. ومعناه : أنطعم المقول فيه هذا القول بينكم ، وذلك أنهم كانوا دافعين أن يكون الغنى والفقر من الله ، لأنهم معطلة لا يؤمنون بالصانع : وعن ابن عباس رضى الله عنهما : كان بمكة زنادقة ، فإذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا : لا والله ، أيفقره الله ونطعمه نحن؟ وقيل : كانوا يوهمون أن الله تعالى لما كان قادرا على إطعامه ولا يشاء إطعامه فنحن أحق بذلك. نزلت في مشركي قريش حين قال فقراء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعطونا مما زعمتم من أموالكم أنها لله ، يعنون قوله وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعامِ نَصِيباً ، فحرموهم وقالوا : لو شاء الله لأطعمكم.

[سورة يس (36) : الآيات 48 إلى 50]

وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (48) ما يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (49) فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (50)

إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ قول الله لهم. أو حكاية قول المؤمنين لهم. أو هو من جملة جوابهم للمؤمنين. قرئ : وهم يخصمون بإدغام التاء في الصاد مع فتح الخاء وكسرها ، وإتباع الياء الخاء في الكسر. ويختصمون على الأصل. ويخصمون ، من خصمه. والمعنى : أنها تبغتهم وهم في أمنهم وغفلتهم عنها ، لا يخطرونها ببالهم مشتغلين بخصوماتهم في متاجرهم ومعاملاتهم وسائر ما يتخاصمون فيه ويتشاجرون. ومعنى خصمون : يخصم بعضهم بعضا. وقيل : تأخذهم وهم عند أنفسهم يخصمون في الحجة في أنهم لا يبعثون فَلا يَسْتَطِيعُونَ أن يوصوا في شيء من أمورهم تَوْصِيَةً ولا يقدرون على الرجوع إلى منازلهم وأهاليهم ، بل يموتون بحيث تفجؤهم الصيحة.

[سورة يس (36) : الآيات 51 إلى 52]

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (51) قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (52)

قرئ الصور ، بسكون الواو وهو القرن ، أو جمع صورة ، وحرّكها بعضهم. والْأَجْداثِ القبور. وقرئ بالفاء «1» يَنْسِلُونَ يعدون بكسر السين وضمها ، وهي النفخة الثانية. قرئ : يا ويلتنا. وعن ابن مسعود رضى الله عنه : من أهبنا ، من هب من نومه إذا انتبه ، وأهبه غيره وقرئ : من هبنا بمعنى أهبنا : وعن بعضهم : أراد هب بنا ، فحذف الجار وأوصل الفعل : وقرئ : من بعثنا ، ومن هبنا ، على من الجارة والمصدر ، وهذا مبتدأ ، وما وَعَدَ خبره ، وما مصدرية أو موصولة. ويجوز أن يكون هذا صفة للمرقد ، وما وعد : خبر مبتدإ محذوف، أى : هذا وعد الرحمن ، أى : مبتدأ محذوف الخبر ، أى ما وعد الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ حق. وعن مجاهد : للكفار هجعة يجدون فيها طعم النوم ، فإذا صيح بأهل القبور قالوا : من بعثنا ، وأما هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ فكلام الملائكة. عن ابن عباس. وعن الحسن : كلام المتقين. وقيل : كلام الكافرين يتذكرون ما سمعوه من الرسل فيجيبون به أنفسهم أو بعضهم بعضا. فإن قلت : إذا جعلت ما مصدرية : كان المعنى : هذا وعد الرحمن وصدق المرسلين ، على تسمية الموعود والمصدوق فيه بالوعد والصدق ، فما وجه قوله وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ إذا جعلتها موصولة؟ قلت : تقديره : هذا الذي وعده الرحمن والذي صدّقه المرسلون ، بمعنى : والذي صدق فيه المرسلون، من قولهم : صدقوهم الحديث والقتال. ومنه صدقنى سن بكره.

فإن قلت : مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا؟ سؤال عن الباعث ، فكيف طابقه ذلك جوابا؟ قلت : معناه بعثكم الرحمن الذي وعدكم البعث وأنبأكم به الرسل ، إلا أنه جيء به على طريقة : سيئت بها قلوبهم ، ونعيت إليهم أحوالهم ، وذكروا كفرهم وتكذيبهم ، وأخبروا بوقوع ما أنذروا به وكأنه قيل لهم : ليس بالبعث الذي عرفتموه وهو بعث النائم من مرقده ، حتى يهمكم السؤال عن

(1). قوله «و قرئ بالفاء» في الصحاح «الجدف» : القبر ، وهو إبدال الجدث. قال الفراء : العرب تعقب بين الفاء والثاء في اللغة ، فيقولون : جدث وجدف ، وهي الأجداث والأجداف. (ع)

الباعث ، إن هذا هو البعث الأكبر ذو الأهوال والأفزاع ، وهو الذي وعده الله في كتبه المنزلة على ألسنة رسله الصادقين.

[سورة يس (36) : الآيات 53 إلى 58]

إِنْ كانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (53) فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (54) إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ (55) هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ (56) لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ (57) سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (58)

إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً قرئت منصوبة ومرفوعة فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ... إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ «1» حكاية ما يقال لهم في ذلك اليوم. وفي مثل هذه الحكاية زيادة تصوير للموعود ، وتمكين له في النفوس ،

وعنه : في ضرب الأوتار. وعن ابن كيسان : في التزاور. وقيل : في ضيافة الله. وعن الحسن : شغلهم عما فيه أهل النار التنعم بما هم فيه. وعن الكلبي : هم في شغل عن أهاليهم من أهل النار ، لا يهمهم أمرهم ولا يذكرونهم : لئلا يدخل عليهم تنغيص في نعيمهم. قرئ : في شغل ، بضمتين وضمة وسكون ، وفتحتين ، وفتحة وسكون. والفاكه والفكه : المتنعم والمتلذذ : ومنه الفاكهة ، لأنها مما يتلذذ به. وكذلك الفكاهة ، وهي المزاحة. وقرئ فاكهون ، وفكهون ، بكسر الكاف وضمها ، كقولهم : رجل حدث وحدث «2» ، ونطس ونطس. وقرئ : فاكهين وفكهين ،

(1). قال أحمد : هذا مما التنكير فيه للتفخيم ، كأنه قيل : في شغل أى شغل ، وكذا قوله تعالى : سلام قولا من رب رحيم.
(2). قوله «كقولهم رجل حدث وحدث» أى حسن الحديث ، والنطس البالغ في التطهر والمدقق في العلم.
أفاده الصحاح. (ع) [.....]